أحسن تفسير للقرآن الكريم في تاريخ الإسلام بفيض من الله عز وجل

معالم الإيمان في تفسير القرآن

الجزء الثالث والثلاثون

سورة البقرة الآيات (١٨٧-١٩٠)

المرجع الديني للمسلمين

الشيخ صالح الطائي

أستاذ الفقه والأصول والتفسير والأخلاق

٢ ـــــــ

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله الذي أنزل القرآن جامعاً لأحكام الشريعة في السلم والحرب، وأذن فيه للمسلمين بالقتال دفاعاً عن بيضة الإسلام، وصلى الله على النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم الذي كان الإمام في العبادات والمناسك وفي الكتائب فكانت أول راية ترفع في ميادين الدفاع في معارك الإسلام الأولى تخفق فوق رأسه ومن فوقه الملائكة مدداً وعوناً سواء في معركة بدر أو أحد أو الخندق أو حنين، قال تعالى ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنْ الْمَلاَئِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾[1].

وهذا هو الجزء الثالث والثلاثون من تفسيري للقرآن ويتضمن تفسير الآيات(١٨٧-١٩٠) من سورة البقرة في آية علمية لم يشهد لها التأريخ مثيلاً، في تشريع لقوانين الدفاع في الإسلام وفيه بعث للفزع والخوف في قلوب المشركين من التعدي على المسلمين وثغورهم.

ومدرسة الدفاع في الإسلام تأسيس لأنظمة السلم في الأرض، وتهذيب للنفوس وإصلاح للمجتمعات والتعايش والأمن المجتمعي في أقطار الأرض.

وتضمن هذا الجزء بتفسير آية الأهلة وهي أيضاً تبدأ بالإخبار عن سؤال المسلمين وغيرهم للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم عن آيات كونية بقوله تعالى﴿يَسْأَلُونَكَ عَنْ الأَهِلَّةِ﴾[2]، وفيه تشريف وإكرام

---

(١)سورة الأنفال ٩

(٢)سورة البقرة ١٨٩.

إضافي للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وبيان لمقام الإمامة العظمى له بين الناس، وفيه دعوة لهم للتصديق بما جاء به من عند الله، قال تعالى ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾(١)، والتدبر في الآيات الكونية .

وكل فرد منها طريق للهداية والتدبر بمعجزات النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم ليكون القتال واسطة لنشر شآبيب الرحمة والسكينة في الأرض، وهو من مصاديق قوله تعالى ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾(٢)، بتقريب أن الناس يلجأون إلى العبادة بطريقين:

الأول : الإختيار وهو الأعم الغالب، والتفكر بالبراهين والدلالات التي تدل على التوحيد ووجوب طاعة الله.

الثاني : الإكراه وحمل الإنسان على الإيمان، وهو فرد نادر وهذا الإكراه ليس مستديماً ولا على نحو السالبة الكلية، بل هو دلالة وطريق للهداية إلى سواء السبيل، وهو مقدمة للواجب، لذا ترى الذي يدخل الإسلام لا يغادره أبداً.

فان قلت قد حصلت ردة بعض القبائل العربية ، والجواب هذا صحيح وتمت بتحريض رؤساء الكفر خاصة وأن رجالات من قادة الر دة كانوا مقيمين على الكفر حث وفاة النبي محمد لذا فان ما يسمى آية السيف ﴿فَإِذَا انسَلَخَ الأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلاَةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾(٣)، خاصة بالمشركين من أهل مكة

---

(١)سورة آل عمران ١٣٢.

(٢)سورة الذاريات ٥٦.

(٣) سورة التوبة ٥.

لكثرة تصديهم وغزوهم للمدينة وموضوعية مكة وأثرها ، قال تعالى ﴿وَلِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَى صَلاَتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾[1].

وبدأت لغة الدفاع في هذه الآيات بثلاثة شروط في أول آية فيها مع قلة كلماتها وهي:

الأول : قتال المسلمين في سبيل الله وليس من أجل الدنيا وزينتها.

الثاني : حصر القتال بالذين يقاتلون المسلمين.

الثالث : لزوم إجتناب المسلمين التعدي والإعتداء في القتال إبتداءً وإستدامة.

وأختتمت الآية بقانون كلي وهو ﴿إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾[2]، لتأكيد قبح التعدي وتنزه المسلمين عنه، وهذا التنزه المتوارث عندهم من مصاديق التقوى ، وسيأتي مزيد كلام في أجزاء لأحقة منها الجزء الثلاثون بعد المائتين.

وأختتمت آيات البحث بقوله تعالى ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾[3] ، ويمكن تسمية الآيات الأربعة التي جاء هذا الجزء خاصاً بتفسيرها(آيات الدفاع عن التقوى).

ومن إعجاز القرآن أنها أختتمت بقوله تعالى ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ وفيه تأديب للمسلمين وبيان لحقيقة وهي أن دفاع المسلمين فرع التقوى والخشية من الله.

(١) سورة الأنعام ١٩٢.

(٢)سورة البقرة ١٩٠.

(٣)سورة البقرة ١٩٤.

ويدل بالدلالة التضمنية على عدم اللجوء إلى القتال إلا في حال الدفاع والضرورة، وأنهم يتعاهدون طاعة الله والخشية منه في حال الحرب والسلم.

وتسمى معارك الإسلام الأولى غزوات للنبي صلى الله عليه وآله وسلم والحق أنها غزوات للمشركين ، وستأتي اجزاء من هذا السِفر خاصة بقانون لم يغز النبي صلى الله عليه وآله وسلم أحداً وهي :

- الجزء التاسع والخمسون بعد المائة.
- الجزء الستون بعد المائة.
- الجزء الحادي والستون بعد المائة.
- الجزء الثالث والستون بعد المائة.
- الجزء الرابع والستون بعد المائة.
- الجزء الخامس والستون بعد المائة.
- الجزء السادس والستون بعد المائة.
- الجزء السابع والستون بعد المائة.
- الجزء التاسع والستون بعد المائة.
- الجزء الحادي والسبعون بعد المائة .
- الجزء الثاني والسبعون بعد المائة .
- الجزء الثالث والسبعون بعد المائة .
- الجزء الخامس والسبعون بعد المائة.
- الجزء السادس والسبعون بعد المائة.
- الجزء السابع والسبعون بعد المائة .
- الجزء الثامن والسبعون بعد المائة .
- الجزء الثاني والثمانون بعد المائة .
- الجزء الخامس والثمانون بعد المائة .

- الجزء الثامن والثمانون بعد المائة.
- الجزء الثاني والتسعون بعد المائة .
- الجزء المائتان .
- الجزء الثامن بعد المائتين .
- الجزء الثاني عشر بعد المائتين .
- الجزء الثامن عشر بعد المائتين .
- الجزء السادس والعشرون بعد المائتين .

وقد جاء في مقدمة الجزء الثالث والثلاثين من هذا السِفر، ومن خصائص التقوى أنها واقية من القتال ، ودعوة للإيمان ، ودفع للتعدي، وسبب لبيان قبحه، وهي بذاتها أمن وحرز، قال تعالى ﴿وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا...﴾[1].

---

(١)سورة آل عمران ١٢٠.

قوله تعالى ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ فَالْآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ وَلَا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ **الآية ١٨٧.**

القراءة

قرأ ابن عباس (واتبعوا) بدل (اتبعوا) وقرأها الأعمش (وابغوا)

الإعراب

احل : فعل ماض مبني للمجهول، لكم : جار ومجرور متعلقان بأحل.

ليلة : ظرف زمان منصوب وهو مضاف، الصيام : مضاف إليه.

الرفث : نائب فاعل لأحل، إلى نسائكم : جار ومجرور متعلقان بالرفث، والضمير الكاف : مضاف إليه.

هـن : ضـمير منفصـل في محـل رفـع مبتـدأ، لبـاس : خـبر، لكـم : جـار ومجـرور متعلقـان بمحـذوف صـفة لبـاس وأنـتم لبـاس لهـن : عطـف علـى سـابقتها، علـم الله : فعـل وفاعـل، والجملـة لتعليـل التخفيـف عـن المسـلمين إنكـم : إن وإسمهـا، كنـتم : فعـل مـاض نـاقص، والتـاء : اسمهـا، تختـانون أنفسـكم : فعـل مضـارع والـواو فاعـل، وأنفـس : مفعول به وهو مضاف والضمير الكاف مضاف إليه.

فـالآن : الفـاء حـرف عطـف، وفيهـا أنهـا(عطف علـى محـذوف مقـدر، أي : فتبـتم فتـاب علـيكم)[1]، والأقـوى أنهـا للتعقيـب وإفادتهـا الإتصـال مـن غـير مهلـة، وبينهـا وبين(ثـم) عمـوم وخصـوص مـن وجـه، فمـادة الإلتقـاء الترتيـب، ومـادة الإفـتراق الإتصـال وإنعـدام المهلـة عنـد إسـتعمال(الفاء) كمـا يقـال قـام زيـد فعمـرو، والإنفاصـال والتراخي عند إستعمال(ثم).

الآن : ظـرف زمـان متعلـق بباشـروهن، باشـروهن : فعـل امـر وفاعل ومفعول به.

وابتغـوا مـا : الـواو حـرف عطـف، ابتغـوا : فعـل امـر، الـواو : فاعـل، مـا : اسـم موصـول في محـل نصـب مفعـول بـه،كتب الله : فعـل مـاض وفاعـل، والجملـة لا محـل لهـا، لأنهـا صـلة(ما) لكـم : جـار ومجرور، وكلـوا : الـواو : للإسـتئناف، كلـوا : فعـل أمـر والـواو فاعـل، وأشربوا : معطوف على(كلوا)

حتـى : حــرف غايـة وجـر، الخيــط الأبـيض : فاعــل، الأبيــض : صـفته، مـن الخـيط : جـار ومجـرور متعلقـان بيتـبين، الأسـود : صـفة مـن الفجـر : جـار ومجـرور متعلقـان بمحـذوف حـال، أي حـال كـون الخيط الأبيض هو الفجر.

ولا تباشـروهن : الـواو : عاطفــة، لا : ناهيــة، تباشـروهن فعــل

---

(١)إعراب القرآن ٢٤٣/١.

لمضارع مجزوم بحذف النون، والواو : فاعل، والضمير (هن) مفعول به، كذلك : جار ومجرور، لعلهم يتقون : لعل حرف مشبه بالفعل، والضمير (هم) اسمها، يتقون : جملة فعلية خبرها.

ثم : حرف عطف يدل على الترتيب والتراخي، اتموا : فعل امر مبني على حذف النون، لأن مضارعه من الأفعال الخمسة تتمون؛ والواو : ضمير متصل في محل رفع فاعل، الصيام : مفعول به، الى الليل : جار ومجرور متعلقان باتموا.

اللغة

حل الشيء حلالاً : ابيح نقيض حرم، ولبس الثوب لبساً ارتداه فهو لباس، وجاء في المقام بعنوان الإستعارة دلالة الستر، والرفث : الجماع ونحوه مما يكون بين الرجل والمرأة، واصله الفاحش من القول واختانه وخانه بمعنى واحد.

وتختانون انفسكم : تبخسونها حظها وتنقصون مما لها من النصيب.

والنفس لها عدة معان منها ذات الشيء، والجوهر المتعلق بالاجسام تعلق التدبير والتصرف وهو المراد في المقام، والمفرد النفس وهو الذي يشير اليه الانسان بقوله "انا" كما يقول "انا قرأت"، "انا صمت شهر رمضان".

والمباشرة : الجماع جاء استعارة من مس بشرة الجلد وهو باب من ابواب التأديب والتنزيه في القرآن الكريم، وبغيت الشيء ابغيه بغياً وابتغاء : اطلبه واسعى اليه.

والخيط الأبيض : تشبيه لما يستبين ويظهر من الفجر المعترض في الإفق واشارة الى ابتداء الإمساك وساعات الصوم، والخيط الأسود استعارة تصريحية لبقايا وامتداد غبش الليل وظلمته التي تتداخل معها بدايات الفجر.

والفجر مصدر يقال : تفجر الماء يتفجر فجراً : إذا إنبعث وجرى، وإستعير لتباشير ضياء الشمس وإنبعاثه وإخباره بإطلالة يوم جديد(وفي الحديث أُعَرِّسُ إِذا أَفْجَرْت وأَرْتَحِل إِذا أَسْفَرْت أي أنزل للنوم والتعريس إِذا قربت من الفجر)[1].

والتمام : الكمال وبلوغ الغاية، والليل زمان تغشي الآفاق بالظلام، ويكون عقيب النهار ومبدؤه عند غروب الشمس وبعده، والآية بيان وتحديد لمدة الصوم ولحظة انتهائه، وبين اتمام الصوم واكمال العدة فرق في اللفظ وربما في المعنى، فالشهر متكون من ايام كل منها جزء مستقل في الصيام، واليوم وجود واحد متكون من اجزاء زمانية متصلة، لذا ورد اللفظ بالإتمام فبدخول الليل تكون نهاية الصوم كعبادة.

في سياق الآيات

بعد فرض الصيام وبيان ما في ذات الفريضة من التخفيف والإستثناء من الأداء واحكام القضاء، جاءت هذه الآية لتبين تخفيفاً آخر وبياناً يتعلق بموضوع الصيام واباحة بعض الأفعال ليلاً.

صلة الآيات السابقة بآية البحث وفيها وجوه:

الأول : صلة هذه الآية بالآية السابقة﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾[2]، وفيه مسائل:

الأولى : بيان بعض معاني قرب الله عز وجل من الناس بأحكام التخفيف عن المسلمين بملامسة الأزواج في ليالي شهر رمضان، وتأكيد إختصاص حكم الصيام والإمساك عن المفطرات بالنهار دون الليل، وفيه مصداق لقانون كلي وهو أن قرب الله من

---

(١)لسان العرب ٤٥/٥.

(٢)الآية ١٨٦.

العباد رحمة بهم، وسبب لنزول البركات ومصاديق العفو والتخفيف.

الثانية : إذ ينحصر الصيام بنهار شهر رمضان ولا يشمل لياليه إذ تباح فيها المفطرات، فإن الدعاء يستغرق نهار وليل رمضان، وتلك نعمة من عند الله، وهو من معاني قرب الله عز وجل وإستدامته في جميع أفراد الزمان الطولية في الحياة الدنيا والآخرة، فكما قريب من الناس في الحياة الدنيا فأنه سبحانه قريب منهم في الآخرة.

الثالثة : ورج في آية البحث قوله تعالى﴿عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ﴾ وعلم الله هذا من قربه من الناس وأن هذا القرب رحمة وتخفيف عنهم، فاز المسلمون به ببيان الرخصة وموارد الإباحة في شهر رمضان.

ويدل الإخبار عن إباحة وطئ الزوجة في ليلة الصيام على حرمته في نهار شهر رمضان.

الرابعة : وطئ الزوجة في ليلة الصيام من الإستجابة لأمر الله عز وجل لقوله تعالى(فالآن باشروهن).

وفيه آية بأن تقسيم الأحكام التكليفية خمسة وهي الوجوب والندب والإباحة والكراهة والحرمة إنما هو تقسيم إستقرائي قاصر في الإحاطة بماهية الأمور الإلهية، فوطئ الزوجة من المباح ما لم يكون فيه قطع أكثر من أربعة أشهر، ولكن هذه الآية جاءت بصيغة الأمر في باب المباح وفيه آية من فضل الله، ولبعث المسلمين والمسلمات لنيل الثواب على المباح في شهر رمضان، والفوز بالعفو والمغفرة منه سبحانه.

الخامسة : أختتمت آية البحث بقوله تعالى(لعلهم يرشدون) لأن الإيمان بالله رشد وطريق للرشد في أمور الحياة، ووسيلة للنجاة

في مواطن الآخرة، ولبيان حقيقة وهي أن نبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم رحمة للناس، وآية من الله لهداية الناس لسبل المعرفة والصلاح وهو من عمومات قوله تعالى ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾(١).

أما آية السياق فأنها أختتمت بقوله تعالى(لعلهم يتقون) لتأكيد أن بيان الآيات بالقرآن وأحكامه إنما هو طريق للتقوى وسبيل للخشية من الله في السر والعلانية، وتعاقب إختتام الآيات بحرف الترجي(لعل) حجة على الناس وبيان لعظيم فضل الله عز وجل عليهم بجذبهم لمنازل الإيمان والتقوى، وزاجر عن أسبابا الضلالة فالدعاء شاهد على التقوى ومناسبة لإصلاح الذات، والصيام فريضة تطهر البدن، ودليل على الصلاح والتقوى.

الثاني : صلة هذه الآية بقوله تعالى ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ.....﴾(٢)، وفيه مسائل:

الأولى : تتعلق الآيتان بموضوع الصيام وأحكامه، فإذا أخبرت آية السياق بأن شهر رمضان أنزل فيه القرآن هدىً للناس جاءت آية البحث لبيان بمصاديق الهداية والرشاد تتعلق بذات الشهر وأحكام الصيام.

الثانية : ذكرت آية السياق مادة(صام)بقوله تعالى ﴿فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ بصيغة الأمر الدال على الوجوب، بينما ذكرته آية البحث مرتين بلفظ(الصيام) في دلالة على ثبوت الفريضة عند المسلمين وتعاهدهم لها.

---

(١)سورة الأنبياء ١٠٧.

(٢)الآية ١٨٥.

الثالثة : جاءت الرخصة في آية السياق للمريض والمسافر بالإفطار عن القضاء في أيام أخرى من السنة، وجاءت الرخصة في آية البحث بخصوص ليلة الصيام من وجهين:

الأول : الوطئ.

الثاني : الأكل والشرب.

الرابعة : أختتمت آية البحث بقوله تعالى(لعلهم يتقون) لتكون التقوى معلّولاً لبيان الآيات من عند الله عز وجل، وأختتمت آية السياق بقوله تعالى(لعلكم تشكرون) في خطاب للمسلمين على نعمة الصيام، والتوفيق لأدائه وإكمال العدة، وهو من مصاديق التقوى ليفوز المسلمون بالشكر لله على الإرتقاء لمراتب التقوى، وهو من عمومات قوله تعالى﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾[1].

الثالث : صلة هذه الآية بقوله تعالى﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمْ الصِّيَامُ.....﴾[2]، وفيه مسائل:

الأولى : إتحاد صيغة الخطاب في الآيتين، وتوجهها للمسلمين والمسلمات بإتيان فريضة الصيام والتقيد بأحكامها فإن قلت توجه الخطاب في آية البحث للمسلمين والإذن لهم بوطئ أزواجهم والجواب من وجوه :

الأول : الوطئ نوع مفاعلة بين الزوج والزوجة، ويدل الأمر إلى المسلمين في مفهومه على توجهه إلى المسلمات أيضاً.

الثاني : بيان حقيقة وهي أن إختيار أوان الوطئ أمر راجع للزوج.

الثالث : في الآية إصلاح للحالة الزوجية عند المسلمين، ومنع

(١)سورة آل عمران ١١٠.

(٢)سورة البقرة ١٨٣.

عـن التباعـد والنفـرة بـين الـزوجين، خصوصـاً وإن الخطـاب (أحـل لكم ليلة الصيام) جاء مطلقاً.

وهـل يشـمل المـريض والمسـافر الـذي تصـاحبه زوجتـه الجـواب نعم، بدليل بيان الآية أن كلاً من الزوج والزوجة لباس للآخر.

الرابـع : توجـه الخطـاب في الـوطئ لـلأزواج مـن المسـلمين إكـرام للمسلمة، وتنمية لملكة الحياء عندها.

الخـامس : جـاءت الإشـارة إلى موضـوعية الزوجـة في ذات الآيـة بقوله تعالى﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ﴾.

الثانيـة : يفيـد الجمـع بـين الآيـتين بيـان أحكـام الصـيام في الأمـم السـابقة لقولـه تعـالى﴿كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ ولـو دار الأمر في كاف التشبيه أعلاه بين أمرين:

الأول : التشـابه التـام في فـرض الصـيام، وإباحـة الأكـل والشـرب والجماع في الليل.

الثـاني : التشـابه بخصـوص فـرض الصـوم بمعنـى الإمسـاك ويصـوم اليهـود إلى الآن يـوم كيبـور في شـهر تشـرين اليهـودي الـذي يصـادف في أيلـول أو تشـرين أول، ومدتـه مـن غـروب اليـوم التاسـع إلى أن تظهـر ثـلاث نجوم بعـد اليـوم العاشـر، وهـو يـوم عبـادة وصـيام عنـده، وقيل يوم كيبور مذكور في التوراة(العهد القديم)١٦، ٢٣، ٢٦، ٣٢.

الثالثـة : أختتمـت كـل مـن الآيـتين برجـاء التقـوى، وجـاءت آيـة البحـث للنـاس عامة(لعلـهم يتقـون) وإختصـت آيـة السـياق بالمسـلمين(لعلكم تتقـون) وفيـه آيـة بفـوز المسـلمين بمرتبـة التقـوى الـتي تتجلـى بـأدائهم لفريضـة الصـيام، وتقيـدهم بأحكامهـا، والأخـذ بـالرخص الـتي نـزل بهـا القـرآن وقولـه تعـالى﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمْ الْيُسْرَ وَلاَ يُرِيدُ بِكُمْ

الْعُسْرَ﴾[(١)].

الشعبة الثانية : صلة هذه الآية بالآيات التالية، وفيها وجوه:

الأول : صلة هذه الآية بالآية التالية﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ......﴾[(٢)]، وفيها مسائل:

الأولى : إتحاد لغة الخطاب في الآيتين بتوجهه إلى أجيال المسلمين والمسلمات إلى يوم القيامة وهو وسيلة لتفقه المسلمين في أمور الدين والدنيا، إذ جاءت آية البحث بخصوص عبادة الصوم، أما آية السياق فجاءت في المعاملات.

الثانية : تضمنت آية البحث الأمر بالصوم على نحو الوجوب، وتضمنت آية السياق النهي عن أكل المال بالباطل وعلى نحو الحرمة، ليكون من إعجاز القرآن مجيء النهي في المعاملات بعد الأمر والوجوب في العبادات، وتقيد وإمتثال المسلمين لكل منهما، وهو من عمومات خاتمة الآية السابقة﴿فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي﴾[(٣)].

الثالثة : جاءت آية البحث بخصوص شهر رمضان وصيامه، أما آية السياق فجاءت مطلقة بالنهي عن أكل مال المسلم بالحرام في أي يوم من أيام السنة، ليتلقى المسلمون شهر رمضان بالسلامة من دنس الحرام، وأكل المال بالباطل.

الرابعة : في الصيام تطهير للبدن من أدران الحرام، وهو سبب للعافية والسلامة من الأمراض(قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : صوموا تصحوا)، وفي إجتناب أكل الباطل سلامة من

(١)الآية ١٨٥.

(٢)الآية ١٨٨.

(٣)سورة البقرة ١٨٦.

الأمراض أيضاً.

الخامسة : بينت آية البحث أحكام الصيام وأخبرت ونهت عن مباشرة النساء في الإعتكاف بلغة التحذير(تلك حدود الله فلا تقربوها) أي حرمات الله، ويشمل ذات التحذير أحكام آية السياق لما فيها من النهي.

(عن الضحاك قال : كانوا يجامعون وهم معتكفون حتى نزلت { ولا تباشروهن وأنتم عاكفون في المساجد})[1]، ليكون من معاني الجمع بين الآيتين تهذيب النفوس بالإعتكاف ونحوه والتنزه وعن الفساد وأكل مال الآخرين بغير حق ومن الإعجاز في آية السياق تقييد النهي بخصوص أموال المسلمين﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ﴾ لبيان رحمة الله عز وجل بالمسلمين بأن يأتي شهر رمضان والظلم منتف بين المسلمين، ويحرص المسلمون في شهر رمضان على نحو الخصوص على التنزه عن أكل المال الحرام.

إعجاز الآية

في الآية اكرام للمسلمين واخبار عن جواز تمتعهم بما انعم الله عليهم به والفصل بين نهار الصيام وليلته، كما تؤكد الآية الكريمة تعدد وجوه فضله تعالى المصاحبة لفريضة الصيام والمقترنة بالتكليف وتبين اهمية الإعتكاف ولزوم تقيد المعتكف باحكامه.

بعد التكليف بالصوم وأحكامه في الآيات السابقة وبعث المسلمين على الدعاء والمسألة ولزوم الإيمان بالله وملائكته وكتبه وأنبيائه إبتدأت هذه الآية بالحلية والإباحة(أحل لكم ليلة الصيام) وفي باب الوطئ والجماع الحلال الذي تميل له الطبائع، وتسكن إليه النفوس لأنه حلال وبكتاب عهد الله عز وجل وهو من إعجاز

---

(١)الدر المنثور ٤٠٣/١.

سياق الآية وهو باب مستقل عن إعجاز ذات الآية لما فيه من الدر، وفرائد ، وفرائد الحكمة المستقرأة من الصلة بين الآيات.

وتتضمن هذه الآية نفي الحرج عن المسلمين، وبيان آية إعجازية وهي أن الله عز وجل يريد للمسلمين كثرة النسل، وهو سبحانه الذي ضمن رزقهم، قال تعالى ﴿نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾[1].

وجاءت الآية بوصف الزوجة لباساً للرجل وكذا العكس، وفيه آية في العناية بالزوجة، وتأديب للمرأة في طاعة زوجها، وهل تدل الآية في مفهومها على النهي عن الزنا الجواب نعم، إن كان هو محرم بالذات، قال تعالى ﴿الزَّانِي لاَ يَنكِحُ إِلاَّ زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لاَ يَنكِحُهَا إِلاَّ زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾[2]، وأداء فريضة الصيام زاجر عن الزنا، وواقية منه، وهو من خصائص التكاليف بأن تأتي كواجبات لتكون ناهياً عن المنكرات، فلذا أختتمت آية البحث بقوله تعالى ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلاَ تَقْرَبُوهَا﴾، ومن إعجاز الآية بيان أحكام الصيام بما يمنع من الخلاف والتحريف.

لقد أراد الله عز وجل للأحكام الصيام أن تبقى إلى يوم القيامة، فيصوم كل جيل من المسلمين كما صام رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه، وتلك آية إنفرد بها المسلمون، وهو من عمومات قوله تعالى ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ

(١)سورة الأنعام ١٥١.
(٢)سورة النور ٣.

﴿أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾[1]، بأن تأتي أجيالهم بذات الفعل العبادي.

ويمكن تسمية الآية الكريمة آية(ليلة الصيام) ولم يرد هذا اللفظ في القرآن إلا في هذه الآية، وكذا لفظ(تختانون) ولفظ (باشروهن) ولفظ(الخيط) والذي تكرر مرتين في هذه الآية.

الآية سلاح

يعتبر بيان قواعد الاحكام في الآية الكريمة خير عون على ادائها على الوجه الإحسن والإنتفاع مما فيها من الرخصة والإخبار عن عدم وجود الفارق بين ليالي رمضان وغيره من شهور السنة.

والآية تحث على عدم تفويت الفرص اليومية لوطىء الزوجة والانجاب، وان الصيام ليس سبباً في ضعف المسلمين بل هو مناسبة لكثرة الولد وزيادة عدد المسلمين، وعدم التعارض بين الصيام وبين التنعم بالحلال والعلل الطبيعية.

في الآية دفع للحرج عن المسلمين بخصوص إطلاق إباحة الحلال في ليلة الصيام، فعند الغروب وسقوط القرص يوم الصيام تعود الحال إلى ما كانت عليه قبل شهر رمضان، لتكون الآية سلاحاً سماوياً لينعم المسلمون بالطيبات والملذات ذات الحلية في ليلة رمضان، وتكون لهم عيداً حاضراً، وتذكيراً بنعم الآخرة، وما في الجنة من الحور العين، والتي تأتي بعد مغادرة الدنيا والمكث غير العقير في عالم البرزخ ثم النشور.

وتبين الآية صرح الحياة الزوجية في الإسلام بالظاهر والباطل.

أما الظاهر فهو الذي أشارت إليه بصفة اللباس.

وأما الباطن فالأذن بالخلوة والوطئ في ليلة الصيام.

وجاءت الآية بالعفو والتوبة من الله مع الإذن والإباحة

---

(١)سورة آل عمران ١١٠.

والتخفيف في الأحكام، فلم يأت العفو وحده وتفتح صفحة جديدة من العمل بل جاءت أحكام جديدة بحيث يكون ما يختان المسلمون به أنفسهم قبل نزول الآية مباحاً لهم بعده وتلك آية في فلسفة العفو الإلهي، وشاهد بأن الأفعال كلها حاضرة عند الله.

وإذ يغادر الإنسان الدنيا فإن أفعاله تبقى في إنتظاره في الآخرة، فجاءت آية البحث للإخبار عن محو الذنب المترتب على المخالطة في ليلة في ليلة الصيام، وصيرورة الحرام مباحاً حلالاً، فيجب أن يفطر الصائم في الليل ولا يواصل في صيامه بين يومين، وهو الذي تدل عليه صيغة الأمر في الآية ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمْ الْخَيْطُ الأَبْيَضُ﴾.

لقد جعل الله القرآن مصدر التشريع إلى يوم القيامة، وبما يمنع الإختلاف بين المسلمين، ومن الآيات أن هذه الأحكام قريبة منهم، ظاهرة لديهم بعلامات كونية لا يحجبهم عنه حاجب.

أسباب النزول

لقد ذكرت اسباب لنزول الآية منها ما يتعلق بنفر من المسلمين وشبابهم لم يستطيعوا الإمتناع عن مباشرة النساء مع ادراكهم لما في ذلك من ومعصية وتقصير.

منها ما رواه الترمذي في تفسير الآية باسناده عن ابي اسحاق عن البراء قال : كان اصحاب النبي صلى الله عليه وآله وسلم اذا كان الرجل صائماً، فحضر الإفطار فنام قبل ان يفطر لم يأكل ليلته ولا يومه حتى يمسي، وان قيس بن صرمة الأنصاري كان صائماً فلما حضر الإفطار اتى امرأته فقال : هل عندك طعام؟

قالت : لا ولكن انطلق اطلب لك وكان يومه يعمل فغلبته عينه وجاءته امرأته فلما رأته قالت : خيبة لك، فلما انتصف النهار غشي

عليه فذكر ذلك للنبي صلى الله عليه وآله وسلم فنزلت هذه الآية ﴿ أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ ﴾ ففرحوا بها فرحاً شديداً ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ﴾ [1] والدلالة في الرواية ان سبب النزول آثار الجوع وعلامات وهن القوة الناجم عن اتصال الإمساك بالليل وشطر من الآية في اباحة الرفث الى النساء.

(عن عبد الرحمن بن أبي ليلى قال : كانوا يصومون ثلاثة أيام من كل شهر، فلما دخل رمضان كانوا يصومون، فإذا لم يأكل الرجل عند فطره حتى ينام، لم يأكل إلى مثلها، وإن نام أو نامت امرأته لم يكن له أن يأتيها إلى مثلها. فجاء شيخٌ من الأنصار يقال له صرمة بن مالك، فقال لأهله : أطعموني. فقالت : حتى أجعل لك شيئًا سخنًا! قال : فغلبته عينه فنام. ثم جاء عمر فقالت له امرأته : إني قد نمت! فلم يعذرها، وظن أنها تعتلّ، فواقعها. فبات هذا وهذا يتقلبان ليلتهما ظهرًا وبطنًا، فأنزل الله في ذلك: "وكلوا واشرَبوا حتى يَتبين لكم الخيطُ الأبيضُ من الخيط الأسود من الفجر"، وقال: "فالآن بَاشروهن"، فعفا الله عن ذلك، وكانت سُنّةً)[2].

وبالاسناد عن ابي بصير المرادي عن الإمام محمد الباقر عليه السلام في قول الله عز وجل : احل لكم ليلة الصيام الرفث الى نسائكم الآية قال عليه السلام نزلت في خوات بن جبير الأنصاري وكان مع النبي صلى الله عليه وآله وسلم في الخندق وهو صائم فامسى وهو على تلك الحال وكانوا قبل ان تنزل هذه الآية اذا نام احدهم حرم عليه الطعام والشراب فجاء خوات الى اهله حين امسى فقال هل

([1]) الترمذي ٢٠٩ -٢٧٩هجرية/ الجامع الصحيح ١٩٤/٥ الحديث ٢٩٦٨.

(٢)تفسير الطبري ٤٩٤/٣.

عندكم طعام؟

فقالوا : لا تنم حتى نصلح لك طعاماً فاتكأ فنام فقالوا له قد غفلت قال : نعم فبات على تلك الحال فاصبح ثم غدا الى الخندق فجعل يغشي عليه فمر به رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فلما رآى الذي به اخبره كيف كان امره فانزل الله عز وجل فيه الآية ﴿ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ﴾[1].

مفهوم الآية

تدل الآية على قدسية شهر رمضان، ودقة وضبط أحكام الصيام ولزوم تنظيم الحياة الإجتماعية والصلات الزوجية مدة الشهر، فبعد ان ثبتت حرمة الجماع في نهار الصيام جاء الإذن باباحته ليلاً رأفة ورحمة ولعدم تعطيل الأرحام، والتباين الموضوعي بين النهار والليل، ولأصل الإباحة في غير ايام الصيام دون لياليها ولقاعدة نفي الحرج، ولأن الشريعة الإسلامية مبنية على التسامح والتخفيف.

وتعطي الآية منزلة خاصة لليالي رمضان وهو أمر ظاهر بالوجدان يحسه كل مسلم مسلمة، وهو مثال على ترشح افاضات الصيام في النهار على الليل .

وكأن قوله صلى الله عليه وآله وسلم " للصائم فرحتان فرحة عند الإفطار وفرحة عند لقاء ربه"[2] .

(1) الوسائل٢/١٤٣ طبعة حجرية.

(2) الدر المنثور ١/٣٦٠.

والإذن بالوطئ في ليالي شهر رمضان سبيل للشوق الى الجماع كمقدمة ووسيلة لإنجاب الولد الذي يحفظ ويتعاهد فريضة الصيام بوراثة الأبناء لها وهو شكر لله تعالى على الإمساك في النهار عن الأكل والشرب .

وهو جزاء حاضر وعاجل على الصيام وما فيه من المشقة والعناء، والقرآن يفسر بعضه بعضاً، وورد في هذه الآية وصف النساء بانهن لباس للرجال، وفي آيات اخرى وصف الليل بانه لباس، قال تعالى ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاسًا وَالنَّوْمَ سُبَاتًا﴾[1] مما يعني ان الليل مناسبة كريمة للرفث مع الزوجة ومداعبتها ونعت اللباس في الآية جاء مطلقا (لكم) ليشمل المسلمين والمسلمات لذا ورد في هذه الآية قوله تعالى ﴿وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ﴾ [2].

وبهذه القاعدة قاعدة تفسير القرآن بالقرآن يمكن القول ان الصيام كسب ومعاش وسعي لطلب المعيشة لعمومات قوله تعالى ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا * وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا﴾[3] فالإمساك عن الإكل والشرب وقلة الحركة والميل الى السكون طاعة لله تعالى باب كريم للتدبر وللرزق خصوصاً وقد وردت نصوص باستحباب نوم الصائم في النهار وانه عبادة، وهذا الرزق يتجلى بوجوه عديدة ظاهرة وباطنة مباشرة وتسبيباً، او صرف بلاء، او دفع مرض او رفع فتنة ومانع والله واسع كريم.

---

(١) سورة الفرقان ٤٧.
(٢) سورة البقرة ١٧٨.
(٣) سورة النبأ ١٠.

وتظهر الآية فضل الله تعالى على المسلمين والمسلمات في العناية بالحياة الزوجية اليومية وعدم ايجاد اسباب التعطيل فيها، وجعل الليل هبة منه تعالى للزوجين، ومن مفاهيم الآية حث المسلمين على عدم الإفتراق والإبتعاد عن ازواجهم ودعوتهم لقضاء شهر رمضان مع عوائلهم وازواجهم على نحو الندب والإستحباب، الا مع وجود الراجح العقلي او الشرعي، وعند الدفاع والمرابطة في الثغور لقاعدة تقديم الأهم على المهم ولتحقق الواجب العيني او الكفائي وترتب الأثر عليه.

ان ظاهر قوله تعالى﴿ فَالآنَ بَاشِرُوهُنَّ ﴾[1] استحباب وطئ الزوجة في ليالي شهر رمضان، كما تبين الآية علة ذلك بطلب الولد، وهو جزء من ثواب الصيام العاجل سواء بالتنعم في لياليه او بالرزق الكريم، لابد ان بركات شهر رمضان وايام نزول القرآن ظاهرة على الحمل، والولد في حياته، وتبدو بدراسة حال الولد الذي حملت به امه في شهر رمضان واثر أوان الحمل ومنافعه عليه، ولكن هذا لا يعني تأخير الحمل الى شهر رمضان فالله عز وجل واسع كريم.

والأكل والشرب في ليالي شهر رمضان امر مباح ولكن وروده في الآية بصيغة الأمر له دلالات عقائدية منها المنع من صوم الوصال، والحث على الأكل والشرب في ليالي رمضان ليكون عوناً على صيام اليوم التالي بل وتخفيفاً من وطأة مشقة الجوع والعطش في اليوم السابق وتذكيراً بالنعيم في الجنة واباحة الطيبات بعد

---

[1] سورة البقرة ١٨٧.

حظرها والحرمان منها، ومن مفاهيم الآية النهي عن صيام الليل والتشديد على النفس.

وبالإسناد عن عبد الله بن عمر قال : نهى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن الوصال قالوا : انك تواصل، قال : اني لست مثلكم اني اطعم واسقى[1].

ومن الإعجاز انه في آية واحدة حدد أوان الصوم اليومي ابتداء واستدامة وانتهاء بكلمات معدودة واستبان حكم شرعي قائم الى يوم القيامة، ليقطع الخلاف ويمنع من الإجتهاد او الحاجة للرجوع الى الفقهاء والعلماء والحكام .

فاحكام الآية واضحة بينة لكل انسان لتعلقها بالآيات الكونية والشواهد السماوية، مما يؤكد استغناء المؤمنين في عبادتهم باللجوء الى القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة التي هي بيان للقرآن.

ومن مفاهيم النهي عن مباشرة النساء حال الإعتكاف استثناؤه من الإذن والرخصة والحث على مباشرة الزوجة في ليالي رمضان، والترغيب بالإعتكاف وجعل اعتبار له في شهر رمضان كوجه من وجوه العبادة والتقوى وبيان تغشيها لساعاته، وكما اختتمت الآية الأولى من آيات الصيام بقوله تعالى ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾.

جاءت خاتمة الآية الخامسة من آيات الصيام رجاء للتقوى ولكن على نحو العموم الاستغراقي للناس جميعاً بقوله تعالى ﴿لَعَلَّهُمْ

(1) صحيح البخاري ٣٣٦/١.

يَتَّقُونَ﴾ ليكون موضوع الصيام فريضة واحكاماً سبيلاً للتقوى ودعوة للناس لدخول الاسلام.

وفي الآية اخبار عن بلوغ اسمى المقامات وصلاح النفس بالصيام

فالصيام مناسبة للإجتهاد في مسالك العبادة والتقيد باحكام القرآن، وهو طريق للتقوى، والقرآن انزله الله تعالى ﴿هُدًى لِلْمُتَّقِينَ﴾ (١).

وعن ابن عباس قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم : "من احب ان يكون اكرم الناس فليتق الله، ومن احب ان يكون اقوى الناس فليتوكل على الله، ومن احب ان يكون اغنى الناس فليكن بما في يد الله اوثق مما في يده" (٢).

فالصيام باب للكرم والسخاء وطرد للشح والأخلاق المذمومة من النفس ودرس سنوي منبسط على ايام الشهر كلها يدعو الإنسان الى مراجعة النفس واخلاص التوبة.

إفاضات الآية

تبين الآية كبرى كلية، وهي أن أحكام الحلال والحرام تنزل من عند الله في القرآن، الأمر الذي يقطع الطريق على الذين يريدون البدعة والتشريع،

ويمنع من وجود الطواغيت في الأرض، وفيه تأديب للمسلمين بالرجوع إلى القرآن لمعرفة أحكام الحلال

(١) سورة البقرة ٢.

(٢) تفسير ابن كثير ١٠١/٧.

والحرام، وتعاهد آيات القرآن في الأجيال المتعاقبة لأنها تتضمن الأحكام الشرعية.

نعم قد يأتي على لسان النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم قال تعالى ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى﴾[1]، بلحاظ أن السنة النبوية هي المصدر الثاني التشريع، ولا تتعارض السنة مع أحكام القرآن .□

لقد جعل الله عز وجل الليل سكناً، ومناسبة للسكينة والإستراحة، ولم يحجب هذه النعمة عن المسلمين، لتكون تذكيراً بنعم الآخرة التي تتصف بالإستدامة، وترغيباً بها.

فإذا جاء تقييد الأكل والشرب في شهر رمضان بطلوع الفجر، جاء الإطلاق في الخطاب لأهل الجنة بقوله تعالى ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[2].□

وتجمع هذه الآية بين الحلية والعفو والرخصة والإباحة، لبيان فضل الله في فريضة الصيام، وتأكيد حقيقة وهي أنها ليست تشديداً على المسلمين، بل هناك في ثناياها وفي ليالي شهر رمضان الإباحة المطلقة لكل ما أحل الله في غيرها من الليالي لتكون هذه الليلة عوناً للمسلمين في أداء الفريضة وثواباً عاجلاً.

وتبعث الآية على رجوع المسلمين للآيات الكونية لمعرفة أوان الإفطار والإمساك، وإدراك نعمة الله بتسخيرها لهم في

---

(١)سورة النجم ٣-٤.

(٢)سورة المرسلات ٤٣.

عباداتهم، فبعد أن جاء تسخير القمر بقوله تعالى ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ جاء تسخير آية سقوط القرص، والحمرة الشرقية وعلى نحو متجدد لثلاثين ليلة للتدبر في آيات الله وبديع صنعه وعظيم قدرته من منازل العبادة ليزدادوا خشوعاً وخضوعاً لله عز وجل وهو من مصاديق قوله تعالى ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾[١].□

الآية لطف

لم يهبط آدم إلى الأرض إلا وزوجته معه، بعد أن عاشت معه في الجنة بنعمة وفضل من الله قال تعالى ﴿وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا﴾[٢]، وجاءت آية البحث للتذكير بنعمة الأكل والشرب من جهتين:

الأولى : الإمساك عنهما في نهار رمضان طاعة لله عز وجل.

الثانية : لزوم الأكل والشرب، ليلة الصيام، إذ ورد النهي عن النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وعلى نحو متواتر النهي عن صوم الوصال، (عن أبي سعيد أنه سمع النبي صلى الله عليه وآله وسلم يقول: لا تواصلوا، فأيكم أراد أن يواصل فليواصل حتى السحر، قالوا : فإنك تواصل يا رسول الله؟ قال : إني لست كهيئتكم، إني أبيت لي مطعم يطعمني وساق يسقيني)[٣].□

(١)سورة محمد ١٧.

(٢)سورة البقر ٣٥.

(٣)الدر المنثور ٤٠٢/١.

ولم تقل الآية كفوا عن الأمر الذي كنتم تختانون به أنفسكم بل جاءت بإباحة الذي كانوا يختانون به أنفسهم وهو الأكل والشرب والجماع ليلة الصيام لتبقى هذه الإباحة إلى يوم القيامة(عن السدي في قوله {تختانون} قال : تقعون عليهن خيانة)[١]، لتنزل هذه الآية بأمور في ذات الفعل وهي:

الأول : التوبة والعفو من الله عن هذه الخيانة.

الثاني : تسمية ذات فعل الخيانة بأنه مباشرة (فالآن باشروهن).

الثالث : فورية المباشرة.

الرابع : صيغة الأمر في مباشرة المسلم لزوجته(و عن ابن عباس قال: المباشرة الجماع ، ولكن الله كريم يستكني)[٢].□

يخرج بها المسلمون للناس وتكون آية في تقوى المسلمين، ووسيلة لترغيب الناس بالإسلام، من عمومات قوله تعالى﴿خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾[٣]، مثلما هي ترغيب للمسلم بوطئ الزوجة، الولد ليضمن عليه شهر رمضان بركة، ويكون له حرزاً.□

(وأخرج عبد الرزاق في المصنف عن يحيى بن العلاء عن ابن أنعم، أن سعد بن مسعود الكندي قال : أتى عثمان بن مظعون رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال : يا رسول الله إني لأستحيي أن ترى أهلي عورتي.

قال : لم، وقد جعلك الله لهم لباساً وجعلهم لك؟!قال : أكره ذلك.

---

(١)الدر المنثور ٣٩٨/١.

(٢)الدر المنثور ٣٩٨/١.

(٣)سورة آل عمران ١١٠.

قال : فإنهم يرونه مني وأراه منهم. قال : أنت رسول الله؟ قال : أنا.

قال : أنت فمن بعدك إذاً؟!

فلما أدبر عثمان قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : إن ابن مظعون لحيي ستير)[١].□

وفي الآية فصل بين نهار الصيام وليلته مع أن كلاً منهما له قدسية خاصة، منها ليلة القدر.□

ولما جاء قبل آيتين قوله ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾[٢]، جاءت الآية السابقة بالبعث على الدعاء والتوجه إلى الله عز وجل في المسألة والحاجة، والدعاء بذاته يسر وبلغة لليسر، وتأكيداً له بالإخبار بأن الله عز وجل قريب منا ومن الناس جميعاً في ذات الوقت بقوله تعالى ﴿فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِي إِذَا دَعَانِي﴾[٣].□

ثم جاءت هذه الآية بعدد من مصاديق اليسر والتخفيف، واللطف الإلهي وصحيح أنها خاصة بليالي الصيام إلا أن منافعها وآثارها تتجلى على المسلم والمسلمة في النهار بالقدرة على تحمل الصيام والسكينة والرضا، بالصبر في النهار عن المفطرات، والغبطة بمعاني المحبة والود في الليل، قال تعالى ﴿وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾[٤].□

---

(١)الدر المنثور ٨٩/١.

(٢)سورة البقرة ١٨٥.

(٣)الآية ١٨٦.

(٤)سورة الروم ٢١.

وجاءت الآية بالإباحة والرخص المتعددة وفيه تنعم بفضل الله من وجوه: □

الأول : جاءت الإباحة بعد التوبة والعفو من الله عز وجل.□

الثاني : هذه الرخص من الشكر العاجل من الله للمسلمين عن صيامهم شهر رمضان.□

الثالث : في الآية تثبيت لأحكام الصيام لدلالة اللازم على الملزوم، فوطئ الزوج لزوجته مباح في كل ليالي السنة، بدليل قوله تعالى﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ﴾ ولكن هذا الوطئ له خصوصية في شهر رمضان تتقوم بالأمر به على نحو التعيين الذي يحمل على الإستحباب.□

الرابع : السعي لطلب الولد في شهر رمضان ليرث فريضة الصيام ذكراً كان أو أنثى.□

وإذا أعطى الله فأنه يعطي بالأوفى والأتم، ومنه الرخص الواردة في هذه الآية من جهات: □

الأولى : إباحة الأكل والشرب مطلقاً ليلة الصيام.□

الثانية : البعث على وطئ الزوجة.□

الثالثة : السعي لرزق الله عز وجل في ليل ونهار شهر رمضان.□

ومع أن علماء التفسير حصروا بتعليق قوله تعالى﴿وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾، بالمباشرة أوان الليل إلا أنها تحتمل وجوهاً: □

الأول : إرادة مباشرة النساء.□

الثاني : الرخص التي كتبها الله عز وجل للمسلمين ليلة الصيام.

الثالث : التوجه إلى الله عز وجل بالدعاء والمسألة وقراءة القرآن، وطلب الرزق ومنه الولد.

الرابع : بيان الملازمة بين العفو من الله وبين إبتغاء الرزق الكريم.

الخامس : بيان قانون في خصال ﴿خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾[1]، وهو أن التنعم بالرخص ومباشرة النساء لا يقعد المؤمنين عن الجهاد في سبيل الله، قال تعالى ﴿وَلاَ يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلاً إِلاَّ كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ﴾[2].

وقد وقعت معركة بدر في شهر رمضان في السنة الثانية للهجرة وهي ذات السنة التي نزلت فيها فريضة الصيام.

السادس : إرادة صيام اليوم التالي من شهر رمضان، فإن قلت إنما كتب الصيام على المسلمين وليس كتب لهم، بدليل قوله تعالى(كتب عليكم الصيام).

والجواب إن إثبات شيء لشيء لا يدل على نفيه عن غيره، فهو فرض على المسلمين، وفرض لهم ولنفعهم في الدنيا والآخرة، وهذا النفع متعدد ومتشعب، فيصوم المسلم فيترشح الثواب على الجماعة، وتصوم الجماعة فينعكس نفعه على الفرد منهم ومن

---

(١)سورة آل عمران ١١٠.

(٢)سورة التوبة ١٢٠.

غيرهم من المسلمين وذراريهم وآبائهم، فتضاعف حسنات الآباء وإن كانوا قد فارقوا الدنيا، لأنهم تركوا الصيام إرثاً عقائدياً لأبنائهم، ولأن الأبناء إمتثلوا لأمر الله بأداء الصيام.□

السابع : الإستعداد لصيام اليوم التالي بتثبيت نية الصيام من الليل(وعن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال : لا صيام لمن لم يفرضه من الليل).□

الثامن : جاء قوله تعالى﴿وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ بين مباشرة النساء والأكل والشرب وكلاهما رخصة بخصوص ليالي شهر رمضان ليكون الإبتغاء هنا طلب أسباب الكسب والمعيشة ومقدماتها، والسعي في سبيل الله ونشر معالم الدين، والإحتراز من القوم الكافرين، لتأكيد حقيقة وهي أن الرخصة في ليالي رمضان لا تفي القعود، وتعطيل الأعمال الخاصة والعامة.□

الصلة بين أول وآخر الآية

لم تبدأ الآية بحرف العطف(الواو) ولا يعني هذا عدم عطفها على الآيات السابقة لأن وحدة موضوع الآيات وتعلقها بفريضة الصوم من مصاديق العطف فإذ ذكرت الآيات السابقة الصيام بقوله تعالى﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ الصِّيَامُ﴾[1]، ﴿فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمْ الشَّهْرَ

(١)الآية ١٨٣.

﴿فَلْيَصُمْهُ﴾[1] ، جاءت هذه الآية بخصوص ليلة الصيام وما فيها من الحلية للفصل بين ليوم من شهر رمضان وليلته. □

وهل يشمل الحكم القضاء في أيام أخرى للمريض والمسافر.□

الجواب نعم لوحدة الموضوع في تنقيح المقال، لذا فمن إعجاز الآية أنها جاءت بصيغة الإطلاق(ليلة الصيام)لتشمل الصيام الواجب بالذات وهو صوم رمضان والبدل عنه، والواجب بالعرض كصوم النذر والكفارة.□

لقد إبتدأت الآية بقوله تعالى(أحل لكم) وما يفيد العموم الإستغراقي ليشمل الصائم والمريض والمسافر، وجاء العموم بما هية الفعل وهو الرفث(عن ابن عباس قال : الدخول، والتغشي ، والإفضاء ، والمباشرة، والرفث، واللمس، والمس، والمسيس : الجما ، والرفث في الصيام : الجماع، والرفث في الحج : الإغراء به)[2]، ليجتمع في أمران: □

الأول : منع الحرج عن المسلمون في مباشرة أزواجهم.□

الثاني : التنعم بالنكاح، وإنتفاء الحسرة عليه نهار الصيام.□

وجاء لفظ(الرفث) آية في التأديب وإرشاد المسلمين إلى حسن المنطق، واللجوء إلى الكتاب المفهمة وإجتناب التصريح بفاحش القول إلا عند الحاجة والبيان، فيكنى عن الوطئ بالإفضاء والدخول والمعاشرة والملامسة، قال تعالى﴿أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ﴾[3].□

---

(١)الآية ١٨٥.

(٢)الدر المنثور ١/٣٩٧.

(٣)سورة النساء ٤٣.

ويكنى عن البول والتغوط بالخلاء وقضاء الحاجة، وفيه إقرار من الإنسان بأنه لا يستطيع حبس البول والغائط وأن خروجها نعمة(عن رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وآله وسلم : لَيْسَ الْمُؤْمِنُ بِالطَّعَّانِ وَلاَ اللَّعَّانِ وَلاَ الْفَاحِشِ وَلاَ الْبَذِيءِ)[1]، ويزيد الحياء الإنسان بهاء، ويفطم منزلته عند الناس بخلاف الفحّاش.□

وجاء لفظ(الرفث) في الآية عنوناً جامعاً لما يريده الزوج من الزوجة، ويدل الأذ بالرفث في الليل على حرمته في نهار رمضان، ومن خالف ففيه الكفارة والقضاء، وقيل(أحل لكم ليلة الصيام أي الليلة التي انتهى صومكم إليها لا الليلة التي تصبحون فيها صائمين فهي صفة تصحبكم إلى ليلة عيد الفطر ولو كانت إضافة ليلة الصيام إلى المستقبل لم تكن ليلة عيد الفطر فيها فإنك لا تصبح يوم العيد صائماً ولو صمت فيه لكنت عاصياً ولا يلزم هذا في أول ليلة من رمضان فإن الأكل وأمثاله كان حلالاً قبل ذلك فمازال مستصحب الحكم فلهذا جعلناه للصوم الماضي)[2].□

ولكن الآية أعم والمراد من للة الصيام الليلة السابقة له واللاحقة والليلة السابقة هي الأرجح والأكثر تأكيداً، والمشهور في اللغة أن الليلة السابقة هي ليلة اليوم التالي ويكتب التأريخ بالليالي التي هي مؤمنة دون الأيام لأن الأسبق من الشهر ليلته فيقال أمضينا سبعاً من بين يوم وليلة.□

---

(١)سنن الترمذي ٤٧١/٧.

(٢)الفتوحات المكية ٢٨١/٢.

ثـم ذكـرت الآيـة العلقـة الزوجيـة وأنهـا أسمـى وأرفـع صـلة للآخـر لباسـاً وعرضـاً ومـرآة، ولـيس مـن عنايـة ووصـية بالحيـاة الزوجيـة مثـل هـذه الآيـة، وفيهـا شـاهد علـى نـزول القـرآن بمكـارم الأخـلاق، ودعوتـه للأسـرة المثاليـة، وملازمـة الصـلاح في الزوجيـة للإيمـان والتقـوى، وهـو مـن عمومـات قولـه تعـالى ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾[1]، فـإن قلـت هنـاك غضاضـات ومشـاكل تحدث داخـل الأسـر المسلمة، والجواب إنهـا بسبب حالـة سـلوك شخصـي وربـما إبتعـاد عـن قواعد الصلة الزوجية وفق الكتاب والسنة.□

ومـن خصـائص هـذه الآيـة أنهـا تؤكـد حسـن الصـلات الزوجيـة مـع الأمـر بالفريضـة ووجـوب الصـيام ليكـون قولـه تعـالى ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ﴾، أعـم مـن موضـوع الإذن بـالوطئ ليلـة الصـيام، فليس من لباس دائم يرتديه الإنسان ذكراً أو أنثى إلا عقد الزوجية.□

وهـل وصـف اللبـاس في الآيـة ومـا فيـه مـن دلالات السـتر خـاص بالمسلمين أم أنـه عـام يشـمل كـل عقـد زواج في الملـل الأخـرى لا سـيما وأن الله عـز وجـل أنعـم الله وجعـل في كـل أمـة كيفيـة وصـيغة لعقـد الـزواج وحرمـة المـرأة علـى غـير زوجهـا كمـا في آل فرعـون ومـع أنهـم قـوم مشـركون فـإن الإنكـار حصـل عنـد نسـاء المدينـة عنـدما سمعـن بمـا تفعلـه امـرأة العزيـز مـع يوسـف عليـه السـلام لقولـه تعـالى ﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي

---

(١)سورة آل عمران ١١٠.

ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾[1]، الجواب إنه عام للناس جميعاً مع خصوصية زائدة فيه للمسلمين.□

لقد أنعم الله عز وجل على الناس بنعمة الزواج إبتداء من آدم لأنه يلف الزوج والزوجة كاللباس الذي يغطي الجسد، وفيه سكينة وزاجر عن الحرام والتعدي على الغير.□

وقد ورد وصف اللباس عليها بقوله تعالى﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ اللَّيْلَ لِبَاسًا﴾[2]، لأن الليل يستر الناس ويلفهم بظلمته، ومن إعجاز القرآن أنه لباس عام للناس لأنه يغشى الناس والأشياء، وتبقى النجوم والكواكب تدل على عظيم قدرة الله، وقربه من الناس، وكذا ذات الظلمة آية بذاتها ووقوعها بين نهارين والإنتشار فيهما للمعاش، وكان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إذ أصبح قال(الحمد لله الذي أحيانا من بعد ما أماتنا وإليه النشور)[3].□

وجاءت آية البحث لتكون ليلة الصيام ذاتها حياة ومتعة ولذة، أن الرفث أعم من الوطئ والجماعة فيشمل الكلام الفاحش بين الزوجين والقبلة والضم وما يكون بين الرجل وإمرأته من أسباب الغريزة والشهوة، لتكون في ليلة الصيام ذات نكهة خاصة، وينبعث إليها المؤمن وزوجته بشوق ورغبة لأنها فرع العبادة وإمتثال لأمر

(١)سورة يوسف ٣٠.
(٢)سورة الفرقان ٤٧.
(٣)البحار ٢١٩/٧٣.

الله عز وجل، وهو من الجزاء العاجل في الدنيا على التوفيق لأداء فريضة.□

ويبين قوله تعالى﴿عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ﴾ ومجيؤه بعد صفة اللباس، على أن اللباس أعم من الوطئ والجماع وأنه شامل لأمور الحياة، والستر والإعانة، والتدبير في المعيشة، وفيه أشارة إلى لزوم التعاون والتعاضد بين الزوجين في أداء الواجبات والفرائض، وحسن تربية الأولاد ونشأتهم على لباس جميل وساتر وسبب للعفة والوقار يظهر به الأبوان أمامهم وأمام الناس، وفي الزوجية ونعتها باللباس دلالة على إستحباب الزواج، وقد يكو واجباً بالعرض، لما فيه من الإستتار عن الفاحشة، والتنزه عن الهتك. □

ولم تقل الآية(تخونون) بل نسبت الخيانة إلى ذات النفوس لأن الضرر يعود على النفس، وبلفظ(تختانو) للإشارة إلى الفعل أدنى مرتبة من الخيانة، والخيانة إنتقاص حق الغير على نحو الخفاء والستر، فجاءت الآية بإعجاز وهو الإخبار وعن علم الله عز وجل بما يجري في البيوت وأنه سبحانه حاضر مع الناس في الليل والنهار، وفيه دعوة للتقوى والصلاح، وبعث لإتيان الفرائض، ودعوة للجهاد في سبيل الله.□

وتبين الآية عظيم فضل الله على المسلمين، فليس من فترة أو تعليق بين أمور ثلاثة: □

الأول : الإخبار عن علم الله بخيانة المسلمين لأنفسهم في الوطئ والجماع في الليل.□

الثاني : التوبة من الله على المسلمين.☐

الثالث : الإباحة والرخصة في الأكل والشرب والوطئ في ليل رمضان قبل الرقاد وبعده، (وأخرج عن مجاهد قال : كان أصحاب محمد يصوم الصائم في شهر رمضان، فإذا أمسى أكل وشرب وجامع النساء، فإذا رقد حرم ذلك عليه حتى مثلها من القابلة، وكان منهم رجال يختانون أنفسهم في ذلك، فعفا الله عنهم، أحل لهم ذلك بعد الرقاد وقبله في الليل كله)[1].☐

الرابع : مباشرة النساء بقوله تعالى(فالآن باشروهن) لرفع الحرج والتخفيف عن النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم والمسلمين، فلا يأتي أحد الصحابة بعد نزول الآية لسؤال النبي محمد عن صحة الإباحة وأوان إبتدائها والعمل بها.☐

وهل هو في ذات سنة النزول أم فيما بعد، وهل وهي خاصة بأسباب النزول والذين أخبروا النبي محمداً صلى الله عليه وآله وسلم وطأهم لأزواجهم أم أنها عامة، وتلك آية في إعجاز القرآن الذاتي والغيري.☐

أما الذاتي فمن وجوه: ☐

الأول : لغة البيان والوضوح في الآية.☐

الثاني : فورية العفو والرحمة الإلهية.☐

الثالث : إكرام الله عز وجل للصائمين بالتخفيف عنهم في الحا.☐

وأما الغيري فمن وجوه: ☐

---

(١)الدر المنثور ٣٩٧/١.

الأول : معرفة المسلمين لأحكام الآية من غير طلب التفسير والتأويل.

الثاني : تفقه المسلمين في الدين، وتفضل الله بمخاطبتهم بما فيه نفعهم ودفع الحرج والضرر عنهم، وهو من عمومات قوله تعالى﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾[1].

الثالث : تلقي المسلمين الرخصة بالقبول والأخذ بها في الحال.

الرابع : تعاهد المسلمينلآيات القرآن بما فيه سلامته من التحريف، وهم محتاجون إليه في أمور الدين والدنيا.

ومع الإذن والرخصة في الوطئ ليلة الصيام فإن الآية نقلت المسلمين إلى إبتغاء الولد، وإتخاذ الوطئ مناسبة لكثرة الصائمين، وإنتشارهم في الأرض بالفرائض والعبادات.

ولم تقل الآية(باشروهن لتبتغوا) بل ذكرت إبتغاء وطلب الولد بحرف العطف الواو بقوله تعالى﴿فَالآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا﴾، ليكون الوطئ نعمة مستقلة ومطلوبة بذاتها إلى جانب أنها مقدمة وعلة مادية لإنجاب الولد، وعن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : تناكحوا تكثروا فاني أُباهي بكم الأمم يوم القيامة حتّى بالسقط)[2]، خصوصاً وأن الرخصة بالوطئ شاملة لمن تحيض ومن لا تحيض، وللتي صالحة للإنجاب حال الوطئ أو غير صالحة له.

(١)سورة آل عمران ١١٠.

(٢)الكشف والبيان ٣٤٨/١.

وجاءت الآية بلفظ الكتابة فهل يدل على الوجوب كم في قوله تعالى ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ﴾(١)،الجواب لا، لأنه لم يتعد بحرف الإستعلاء(على) بل جاء بلام الإختصاص(كتب الله لكم) وأن طلب الولد والنعمة والرخصة هي من أمر الله في الأصل، وهي نعمة مدخرة نزلت هذه الآي للبشارة والعمل بأحكامها وإن كان المسلمون يظنون أنها محرمة عليهم، ولا أصل لهذا الظن وعن النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم : فصل ما بين صيامنا وصيام أهل الكتاب أكلة السحر)(٢)، وفيه وجوه: □

الأول : عن ابن عباس: "وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ"، قَالَ : الْوَلَدُ"، وَرُوِيَ عَنْ أَنسٍ، وَشُرَيْحٍ، وَالْحَسَنِ، وَمُجَاهِدٍ، وَعَطَاءٍ، وَالضَّحَّاكِ، وَسَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ، وَعِكْرِمَةَ، وَالسُّدِّيِّ، وَالرَّبِيعِ بْنِ أَنَسٍ، وَالْحَكَمِ بْنِ عُتْبَةَ، وَقَتَادَةَ، وَزَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ، وَمُقَاتِلِ بْنِ حَيَّانَ)(٣). □

الثاني : وأخرج البخاري في تاريخه عن أنس في قوله {وابتغوا ما كتب الله لكم} قال : ليلة القدر، ونسب هذا القول إلى معاذ ابن جبل)(٤).

الثالث : أخرج عن قتادة : وإبتغوا الرخصة التي كتب الله لكم. □

الرابع : قال ابن زيد : وابتغوا ما أحل الله لكم من الجّماع)(٥).□

(١)الآية ١٨٣.
(٢)الدر المنثور ١/٣٩٧.
(٣)تفسير ابن أبي حاتم ١/٤٨١.
(٤)الدر المنثور ١/٣٩٨.
(٥)الكشف والبيان١/٣٤٧.

والمشهور هو الأول، لوجود القرنية المقالية، وإردة المعنى الأعم من المباشرة وأنها ليست للشهوة وحدها، وتضيف له وجهاً آخر ما كتب الله عزوجل للمسلمين من أداء فرائض وصيام شهر رمضان، وظهور الإسلام وقوة شوكته والغلبة على الكفار.□

وقد ورد لفظ(كتب الله لكم) مرتين في القرآن، إحداهما في آية البحث والأخرى في قوله تعالى﴿يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾(١).□

وفي الآية أعلاه عن السدي : قال : أمركم الله بها وأخرج عبد بن حميد عن قتادة في الآية قال : أمر القوم كما أمروا بالصلاة والزكاة والحج والعمرة)(٢)، لقد كتب الله عز وجل نصر رسله وأوليائه والمؤمنين، وهذا النصر نعمة عليهم وهو رحمة بهم وبالناس جميعاً لما فيه من أسباب الهداية والصلاح، قال تعالى﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾(٣).□

وجاءت في الآية الكريمة أوامر متعددة هي: □

<u>الأول :</u> مباشرة الزوج لزوجته ليلة الصيام بقوله تعالى(فالآن باشروهن) وهو خطاب إنحلالي ينحل بعدد عدد المسلمين.□

<u>الثاني :</u> طلب النعم والفضل الذي قسمه لله عز وجل للمسلمين.□

---

(١)سورة المائدة ٢١.

(٢)الدر المنثور ٣/٣٥٠.

(٣)سورة الأنعام ٥٤.

الثالث : الأكل في ليلة الصيام، وعدم جواز صوم الوصال.□

الرابع : شرب الماء ونحوه قال تعالى(كلوا وأشربوا) مع بيان حد الإبتلاء والإنتهاء إذ ينتهي الأكل عند طلوع الفجر. □

الخامس : الإمتناع عن الأكل والشرب عند طلوع الفجر.□

السادس : إتمام الصيام إلى الليل وبإستثناء الأمر الأخير الذي جاء بخصوص نهار الصيام فإن الأوامر الأخرى خاصة بليلة الصيام مما يدل على أنها زاخرة بالأحكام الشرعية، وأنها وعاد ومناسبة للعبادة والصلاح والتقوى، وتضمنت الآية نهيين: □

الأول : النهي عن مباشرة النساء حال الإعتكاف.□

الثاني : الزجر عن مخالفة حدود الله وأحكامه، ومصاديق طاعته (وعن قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : إنّ لكل ملك حمى، وحمى الله محارمه فمن رتع حول الحمى يوشك أن يقع فيه)[1].□

وإذ إبتدأت الآية بصيغة الخطاب للمسلمين(أحل لكم) فأنها أختتمت ببيان قانون سماوي عام، فيه حجة بالغة وهو تفضل الله عز وجل ببيان الآيات والأحكام للناس جميعاً لتكون مجتمعة ومتفرقة دعوة للناس للإيمان، وبلوغ مراتب التقوى والخشية من الله، ومن أهم مصاديق التقوى أداء فريضة الصيام في شهر رمضان والتنعم بالرخص الواردة في آية البحث.□

من غايات الآية

(١)الكشاف ١٦٧/١.

في الآية مسائل: □

الأولى : لما جاءت آية(شهر رمضان) بقوله تعالى ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾[1]، جاءت هذه الآية ببيان مصاديق من اليسر والتخفيف عن المسلمين لتبقى مصاحبة لهم إلى القيامة.□

الثانية : نزول الرخصة من الله لوطئ الزوج لزوجته في ليلة الصيام، وفيه قطع للتشديد على النفس في المقام لأن التنزيل وبصيغة القطع والبيان حجة وبرهان، قال تعالى ﴿فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ﴾[2].□

الثالثة : تدعو الآية في مفهومه إلى الإحتراز من المفطرات في نهار الصوم، لأن الرخصة جاءت بخصوص الليل وبعد أن تاب الله عز وجل على المسلمين، (وأخرج عن أبي بكرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : لايقولن أحدكم إني قمت رمضان كله وصمته فلا أدري أكره التزكية أو قال : لا بد من نومة أو رقدة)[3].□

الرابعة : بيان وظائف الزوجية والإشارة إلى إستحباب الزواج والإستمرار في وطئ الزوجة بوصف كل من الزوجين بأنه لباس للآخر لما فيه من سترة عما يهتكه ويخزيه من المعاصي والفواحش، وفيه دلالة على عدم وجود حواجز بين الزوج وزوجته للعشرة والمخالطة المستديمة بينهما، قال أمرئ القيس: □

وإن تك قد ساءتك منّي خليفةٌ

(١)الآية ١٨٥.

(٢)سورة الأنعام ١٤٩.

(٣)الدر المنثور ٤٠٢/١.

فسُلِّي ثِيابي مِن ثيابك تَنْسُل[1]. □

وهل من صلة بين آية البحث وقوله تعالى﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾[2]، التي ورد فيها معنيان أحدهما حقيقة وعلى الظاهر والمراد الثياب الملبوسة، والآخر على المجاز والمراد تطهير النفس والعفة كما يقال : نقي الثوب عفيف الذيل.□

الجواب تبين آية البحث منزلة كل من الزوج والزوجة في حياة الآخر، وجاءت الرخصة في الوطئ في ليلة الصيام للتطهر والإستعداد لفريضة الصيام عند الصيام، والإمتناع عن الرفث في النهار.□

الخامسة : تأديب المسلمين على لغة الكفاية إذا كانت تغني عن التصريح سواء بذاتها أو بكثرة إستعمالها في إرادة المعنى وكأنها من المنقول.□

وكان الأشراف والوجهاء لا يذكرون حرائرهم بأسمائهن أمام الملأ وفي المجالس، فيكنون عن الزوجة بالعيال والفرش، ولما حصل الإفتراء على مريم بنت عمران ذكرها الله بالاسم إحدى عشرة مرة، إلى جانب ذكرها بصفتها أم عيسى ثلاثاً وعشرين مرة.□

وكثيرة هي الموارد والآيات التي كنى فيها الله عز وجل، وهو من مصاديق نزول القرآن من عند الله، وبيان كرمه ولطفه وإصلاحه المسلمين للإمامة العامة بين الناس، منها قوله تعالى﴿نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ

---

(١)العقد الفريد ٢/٣٣٤.

(٢)سورة المدثر ٤.

لَكُمْ﴾[1]، فصفة الحرث جاءت خاصة بالمرأة لأنها وعاء الولد، أما اللباس في آية البحث فجاء عاماً للزوج والزوجة، إلى جانب في الكتابة من البلاغة والمبالغة وفيه شاهد على إرتقاء المسلمين في المعارف وتفقههم في الدين، وتلقيهم الكناية وكأنها تصريح بليغ.□

السادسة : بشارة قرب الفوز بالعفو من الله عز وجل، وأنه يأتي تارة إبتداء من عند الله كما في الآية الكريمة وأخرى بالدعاء والإستغفار، قال تعالى﴿وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[2].□

ومن إعجاز الآية إنفرادها بإجتماع التوبة والعفو في ذات الموضوع(فتاب عليكم وعفا عنكم) للدلالة على أن موضوع التوبة أعم من خيانة الأنفس في الأكل والشرب والوطئ بعد التوبة الأولى من الليل، وكأن حرف العطف في الآية أعلاه(الواو) من عطف الخاص على العام.□

وتكرر في قوله تعالى﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ فَالآنَ بَاشِرُوهُنَّ﴾ حرف العطف الفاء الذي يفيد التعقيب والتوالي من غير فترة أو مدة بخلاف(ثم) الذي يفيد التراخي، فمع التوبة والعفو يأتي الأمر الإلهي بالوطئ والجماع في ليلة الصيام من أوله إلى آخره، ومن جامع زوجته آخر الليل وإتفق فراغه من الجماع عند طلوع الفجر فأنه سيصبح جنباً(وَرَوَتْ عَائِشَةُ وَأُمُّ سَلَمَةَ : أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى

(١)سورة البقرة ٢٢٣.
(٢)سورة المزمل ٢٠.

اللَّهُ عَلَيْهِ وآله وَسَلَّمَ كَانَ يُصْبِحُ جُنُبًا مِنْ غَيْرِ احْتِلَامٍ ثُمَّ يَصُومُ يَوْمَهُ ذَلِكَ)[1].□

وإستدل على صحة الصوم الإصباح جنباً في الكتاب أعلاه بقوله تعالى﴿ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ﴾ ولا تدل الآية عليه، خصوصاً وأنها واردة لخصوص الإذن بالأكل والشرب عند الفجر، فالعمدة في المقام النص.□

وورد بالإسناد عن أبي هريرة عن الفضل بن عباس عن النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم، أنه قال : إذ نودي للصلاة□صلاة الصبح□ وأحدكم جنب فلا يصم يومئذ) وتعدد أقوال العلماء في الجمع بين الأمرين. □

<u>السابعة :</u> لم يرد لفظ(الخيط الأبيض)و(الخيط الأسود) في القرآن إلا في هذه الآية، وموضوعهما هو الفجر وقيل(الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ) : الخيط الأبيض : هو الصبح المصدّق، والخيط الأسود هو الليل، والخيط هو اللون)[2].□

ولكن الآية أخص، فالمراد ليس الصبح والليل إنما وقت قليل، ولحظة من الزمان تتداخل فيها تباشير الفجر مع ظلمة الليل على نحو أفقي طويل، وليس من خيط أطول منه في الكون، جعله الله آية للمسلمين، وسخره لهم في عباداتهم وهو من عمومات قوله تعالى﴿سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾[3].□

---

(١)أحكام القرآن/ الجصاص ٤٨٣/١.

(٢)مجاز القرآن ١٤/١.

(٣)سورة لقمان ٢٠.

وجاء البيان بالإسناد عن عدي بن حاتم قال : أتيت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فعلمني الإِسلام، ونعت لي الصلوات الخمس كيف أصلي كل صلاة لوقتها، ثم قال : إذا جاء رمضان فكل واشرب حتى يتبين لك الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر، ثم أتم الصيام إلى الليل، ولم أدر ما هو! .

ففتلت خيطين من أبيض وأسود، فنظرت فيهما عند الفجر فرأيتهما سواء، فأتيت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقلت : يا رسول الله كل شيء أوصيتني قد حفظت غير الخيط الأبيض من الخيط الأسود، قال : وما منعك يا ابن حاتم؟ وتبسم كأنه قد علم ما فعلت، قلت : فتلت خيطين من أبيض وأسود، فنظرت فيهما من الليل فوجدتهما سواء، فضحك رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حتى رؤي نواجذه، ثم قال : ألم أقل لك من الفجر؟ إنما هو ضوء النهار من ظلمة الليل)[1].□

والفجر فجران: □

الأول : وهو كذنب السرحان يصعد في السماء طولاً، ويسمى الفجر الكاذب، وعن رسول صلى الله عليه وآله وسلم : "لا يغرنكم أذان بلال ولا هذا البياض، تعمدوا الصبح حين يستطير")[2].□

الثاني : ضياء الفجر الذي يأخذ بالإتساع والإستفاضة، والإنتشار على رؤوس الجبال، ويسمى الفجر الصادق، وبه يبدأ أوان الإمساك وصلاة الفجر ومن الإعجاز في لفظ(الخيط الأبيض) أنه لم يحصل بعد نور أو حمرة أو ضياء الفجر.□

---

(١)الدر المنثور ٣٩٩/١.

(٢)تفسير ابن كثير ٥١٥/١.

وعن قيس بن طَلْق، عن أبيه : أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال : "ليس الفجرُ المستطيل في الأفق ولكنه المعترض الأحمر")[1]، (ورواه الترمذي ولفظهما : أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وآله وسلم قَالَ : كُلُوا وَاشْرَبُوا وَلاَ يَهِيدَنَّكُمُ السَّاطِعُ الْمُصْعِدُ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَعْتَرِضَ لَكُمُ الأَحْمَرُ)[2].□

وفيه تخفيف عن المسلمين لأن تبيان المائز بين ضياء الفجر وظلمة الليل تدريجي في آنات الزمان، ووقت الفجر، فتكون فيه سعة للمسلمين متى أيغن حصول الفجر أمسك لإستصحاب الليل، وقد يقال أن الإحتياط في المقام لا يترك.□

الثامنة : مع مجيء الآية بخصوص الرخصة في ليالي شهر رمضان بالأكل والشرب والجماع فيها، فأنها تضمنت بيان أوان الصيام إبتداء وإستدامة وإنتهاء بآيات كونية لا تقبل التبديل والتغيير وأن كانت بذاتها متغيرة بحسب طول النهار في الصيف وتعده في الشتاء.□

وضبط أوان الصوم دعوة لتعاهد آيات القرآن، وحفظ المسلمين لآيات القرآن طريق ودعوة لضبط أوان بداية الصيام ولحظة الإفطار.□

التاسعة : بيان أحكام الإعتكاف، وفيه تأكيد له، ولزوم التقيد بآدابه عند المشروع به(أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- قَالَ □ كُلُوا وَاشْرَبُوا وَلاَ يَهِيدَنَّكُمُ السَّاطِعُ الْمُصْعِدُ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَعْتَرِضَ لَكُمُ الأَحْمَرُ)[3]، وقد جاءت النصوص عن النبي محمد

(١)تفسير ابن كثير ١/٥١٥.

(٢)سنن الترمذي ٣/٢٠٠.

(٣)الدر المنثور ١/٤٠٣.

صلى الله عليه وآله وسلم بإستحباب الإعتكاف وإنه لا يتعارض مع قضاء حاجة المؤمن والسعي فيها.□

(عن ابن عباس أنه كان معتكفاً في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأتاه رجل في حاجة فقام معه، وقال : سمعت صاحب هذا القبر صلى الله عليه وآله وسلم يقول من مشى في حاجة أخيه وبلغ فيها كان خيراً من اعتكاف عشر سنين، ومن اعتكف يوماً ابتغاء وجه الله جعل الله بينه وبين النار ثلاث خنادق أبعد مما بين الخافقين)[1].□

العاشرة : بيان موضوعية الأحكام الواردة في هذه الآية، بقوله تعالى(تلك حدود الله) والتحذير والإنذار من التجاو، والتعدي فيها، وبيان حقيقة وهي لزوم تعاهد المسلمين للأحكام والسنن الوارة في القرآن، وعدم التفريط فيها.□

الحادية عشرة : الإخبار بأن كل حكم والأحكام الواردة في هذه الآية الكريمة هو دلالة بينة وحجة ودعوة للناس لعبادة الله عز وجل لقوله تعالى﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ﴾.□

وفيه أن آيات الأحكام في القرآن توليدية، تتفرع عنها مصاديق إعجازية متجددة في كل زمان، وتكون مناسبة للتسليم بالربوبية المطلقة لله عز وجل، والخشية منه في السر والعلانية ومن أفراد هذه الخشية صيام شهر رمضان لأنه عبادة تنبسط على جميع آنات النهار، فيكون فيه المسلم متقيداً بسنن وآداب الصيام والإمساك عن

(١)الدر المنثور ٤٠٤/١.

المفطرات بين الناس، وفي حال الخلوة حيث لا يراه إلا الله عز وجل لذا ورد في الحديث القدسي : الصوم لي و أنا أجزي به) [1]. □

التفسير

تفسير قوله تعالى ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ﴾

الأولى : الآية رحمة اضافية وتخفيف جديد باباحة مباشرة الزوجة والترخيص بالجماع في ساعات الليل من شهر رمضان.

الثانية : هل يشمل الرفث في المقام غير الجماع ومقدماته؟

الجواب : نعم، لمفاهيم اللغة وباب الأولوية ثم ذكر سبحانه وتعالى نعمة الزواج ورحمته في الخلق بما يتضمن صيغة التعليل وحضور الحكمة والرأفة خلال التكليف.

الثالثة : في الآية بيان شأن واهمية الزوجية في الستر والحجب عن الوقوع في هاوية الحرام ومستنقع القبيح من الذنوب والفواحش.

الرابعة : الآية جزء من عناية متصلة بالعلاقة الجنسية بين الزوجين ورعاية لحاجتهما الغريزية في هذا الباب، ومنفعة كل من الزوجين ووظيفته التكليفية والتشريعية في العشرة وحسن المخالطة وتهيئة جانب وسبب مناسب لأداء الفريضة والمساهمة بتخفيفها بما حكم الله به سنن الزواج واقرته الشريعة من احكامه.

الخامسة : في الآية اخبار عن احاطته تعالى علماً بما يفعل اهل الأرض واقتران ذلك برحمة تتغشى المؤمنين لتشمل جميع جوانب حياتهم واحوال من يتعلق بهم كل بحسب حاله وصلته.

السادسة : لا تخلو الآية من اشارة وتنبيه الى منزلة المرأة

(١)مجمع البيان ٣/ ٢٢٢.

والتوصية بالزوجة لأهميتها ومنفعة وجودها في حياة الإنسان والمجتمع واداء التكاليف الشرعية.

السابعة : قال بعضهم ان الآية تقتضي الترخيص بالوطء في ليالي شهر رمضان مطلقاً أي في جميع ساعاتها ويدخل في ضمنه الوقت القريب من طلوع الفجر اذ يفتقر الى السعة في الوقت للغسل فيكون سبباً لإباحة الإصباح جنباً، ولكن الدقائق الأخيرة من الليل المتصلة بالفجر تخرج بالتخصيص ويكون خروجها دليلاً حاكماً مفاده التضييق تعبداً لا واقعاً وهو ما يسمى في علم الأصول بالحكومة.

الثامنة : لخطاب موجه للمسلمين وفي المقصود منه وجوه:

الأول : انهم المسلمون المكلفون باداء الصيام المتلبسون بادائه.

الثاني : المسلمون المكلفون بالصيام سواء قاموا بالأداء ام قصروا وعصوا.

الثالث : عامة المسلمين سواء المكلفين به ام ذوي الأعذار وغيرهم.

وهذا المبحث صغروي لأن الآية وردت بالإباحة والحلية فاما ان تكون خاصة بالصائمين ام عامة بالإصالة، او انها خاصة بالإصالة وعامة بالإلحاق أي ان ذوي الأعذار ونحوهم يلحقون بالصائمين من باب الأولوية الظاهر ان الخطاب للمسلمين وبحسب الوجه الأخير اعلاه.

التاسعة : من خلال تتمة الآية ﴿كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ﴾ يظهر ان الخطاب موجه للصائمين.

العاشرة : هذا لا يمنع من شمول الخطاب للمؤمنات الصائمات بالتبعية والإلحاق ووحدة الموضوع من دون اسقاط حقيقة تتضمنها الآية في مفهومها وهي تحمل الزوج للعبأ الأكبر من مسؤولية تحصين

الفعل العبادي واداء التكاليف.

الحادية عشرة : هل تفيد الآية ان الرجال اكثر التفاتاً وحرصاً على اداء التكاليف من النساء لذا جاء لهم الأمر بالذات ليس من دليل على ذلك خصوصاً وان الأمر في حقيقته عبارة عن اذن وترخيص وامضاء لإباحة الوطئ ليلة الصيام، وان الخطاب في الآية من مصاديق قاعدة الإشتراك في الأحكام التكليفية بين الرجل والمرأة مع الترجيح فيه للرجال للقيمومة والمبادرة وامتلاك حق الوطىء.

الثانيةعشرة : ستقراء حقيقة حكمية من الآية وهي ان موضوع الوطئ وكيفية الصلات الزوجية تكون بالدرجة الأولى بيد الزوج.

الثالثة عشرة : يمكن ان يكون الخطاب في قوله تعالى ﴿ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ ﴾ اعم من الخطاب الأول ويشمل المسلمين والمسلمات لأن نقص الثواب يصيب الطرفين معاً.

الرابعة عشرة : الكناية بلفظ الفاحش من القول للإشارة الى الجماع والظاهر ان ورودها مركب لإرادة المعنى الحقيقي والمعنى المجازي فالمعنى الحقيقي عليه الإجماع ودلالة اسباب النزول والنص اما المجازي فيمكن استقراءه من اللغة وفي الحديث : يكره للصائم الرفث.

وفي اختيار هذا لفظ الرفث اعجاز مركب:

الأول : انه يدل على النهي عن الجماع ومقدماته، فالمقدمات هي المعنية بالمعنى الحقيقي للفظ وهو الكلام الفاحش الذي يعتبر جائزاً بين الزوج وزوجته باعتبار ان المقدمة نوع طريق لتحقق الفعل، والحكم يترشح على المقدمة من ذي المقدمة.

الثاني : جاء هذا اللفظ في القرآن مرتين فكما ذكر في فريضة الصيام فانه ذكر في فريضة الحج بقوله تعالى ﴿ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ

فِي الْحَجِّ﴾ مما يعني ان ساعات نهار الصيام عبادة لا تنحصر بموضوع الإمساك عن الأكل والشرب وان ليالي رمضان فيها تخفيف ورحمة.

الخامسة عشرة : المراد من ليلة الصيام الجنس والجمع وليس ليلة واحدة وهل هي الليلة السابقة ليوم الصيام ام المتأخرة عنه، الجواب هو الأول وعليه اللغة والعرف.

وقال الآلوسي(أن الأعمش زعم أن أول النهار الشرعي طلوع الشمس كالنهار العرفي وجوز فعل المحظورات بعد طلوع الفجر وكذا الإمامية وحمل(من الفجر) من التبعيض وإرادة الجزء الأخير منه) [1].

وفي التسعينيات من القرن الماضي وكنا مع سماحة السيد آية الله السيد السيستاني أنا وسماحة السيد حسين أبو سعيدة وسماحة الشيخ علي الجواهري ، وتعرضنا لقول الألوسي هذا ، فذكر سماحة أية الله ترجمة شخصية عن الألوسي ، ثم قال بخصوص قول الألوسي هذا : أكتبها وحقق بها .

ويحتمل قوله وكذا الإمامية وجهين:

الأول : إرادة الشبه بخصوص بداية النهار الشرعي، لورود رواية عن الإمام الباقر بأن الساعة التي بين طلوع الشمس ليس من الليل ولا من النهار).

الثاني : أن الإمامية يجوزون فعل محظورات الصيام إلى حين طلوع الشمس، ولكن هذا الوجه خلاف ظاهر الآية الكريمة وسنة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وفقه أهل البيت عليه السلام وكان الآلوسي[2] في بغداد وأكثر أهلها من الإمامية ويراهم في

---

(١)أنظر روح المعاني في تفسير القرآن والسبع المثاني ٢/١٣٦.

(٢)شهاب الدين السيد محمود بن عبد الله الحسيني الآلوسي البغدادي أبو الثناء(١٢١٧- ١٢٧٠)هجرية، له كتاب زاخر في التفسير من ثلاثين جزء هو(روح

مناسكهم وعباداتهم وكيف أنهم يمسكون عند طلوع الفجر، وقد يقصد الآلوسي الوجه الأول بقرينة أنه حينما قال وكذا الإمامية عاد إلى الكلام عن الأعمش ، ولم يقل وحملوا بصيغة الجمع .

تفسيرقوله تعالى ﴿ هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ ﴾

الأولى : اعجاز بلاغي تتفرع عنه عدة مسائل عقائدية وتكليفية ووضعية.

الثانية : هذا الوصف اشبه بالتعليل والبيان لحكم السماء بحلية الرفث والجماع ليلة الصيام لأن الإنسان لا يستطيع التجرد من لباسه.

الثالثة : كل من الزوجين يستر صاحبه، لذا فان وطئ الزوجة فيه حسنة واجر وان كان مباحاً لما يمثله من حائل دون الوقوع في الحرام.

الرابعة : تتعدى الآية موضوع الوصف والإرتقاء البلاغي، وتخبر عن حقيقة كونية ومشيئة الهية وهي الستر واللبس وعدم استغناء احد الزوجين عن الآخر.

الخامسة : هذه الآية مصداق وتفسير لقوله تعالى ﴿ وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً ﴾

السادسة : وصف الزوج والزوجة باللباس دعوة لكل منهما للعناية الدائمة بصاحبه وطهارته وتعاهده لأداء ما عليه من الواجبات ومن ذلك الحرص على ادائه لفريضة الصوم واعانته عليها فكما يهتم الإنسان بلباسه وطهارته ويحرص عليه لأنه يحتاجه كذلك الزوجية.

المعاني في تفسير القرآن والسبع المثاني) تقلد الإفتاء في بغداد سنة ١٢٤٨ وعزل فأنقطع للتأليف.

السابعة : الآية مدرسة في علم الإجتماع ونظرة الإسلام للحياة الزوجية وكأنها ضرورة لكل من الذكر والانثى.

الثامنة : اللباس يعني الصحبة الدائمة المتصلة غير المنقطعة والملازمة والاقتران المبارك ضمن ميثاق الزوجية.

التاسعة : ورود الآية بصيغة الجمع اعم من المشاكلة والجري بل للدلالة على اطلاق المشيئة الإلهية في الحكم بالصلة بين الزوجين في الإسلام.

العاشرة : لو اجريت دراسة مقارنة لبان وظهر التباين في العلاقة بين الزوجين في الاسلام وبين غيرهم من الملل الأخرى الذين يعانون من الإبتلاء والخلل والنقص، وظهور بعض الحالات النادرة المشابهة عندنا مما لا يعتد به خصوصاً وانها تحصل بسبب الابتعاد عن قيّم الاسلام.

الحادية عشرة : الآية رحمة الهية في حصول الوئام والوفاق في الأسرة المسلمة وما هو اعم من العلاقة بين الزوجين.

الثانية عشرة : في الآية اكرام للمرأة لأنها جاءت بعرض واحد مع الرجل فكل منهما لباس للآخر، وهو امر مترشح من وحدة خطاب التكليف في الصيام وتوجهه الى المرأة والرجل بمستوى واحد.

الثالثة عشرة : الآية ترغيب بالزواج لما تظهره من الحاجة اليه التي تشبه الحاجة الى الثياب واللباس، وقد وردت نصوص مستفيضة بالحث على الزواج منها النبوي : "النكاح سنتي فمن رغب عن سنتي فليس مني".

الرابعةعشرة : في الآية ثناء على المسلمين والمسلمات لادائهم لفريضة الصوم، والإمتناع والإمساك والكف لا ينحصر بالإمتناع عن الأكل والشرب فقط بل ان الجماع محرم ايضاً

حال الصيام.

الخامسة عشرة : كأن في الآية اشارة الى الحكمة في جواز ملامسة الزوجة ليلة الصيام وهو تعلق الزوجين بعضهما ببعض، وقلة الصبر عن الإختلاط والملابسة.

السادسة عشرة : الآية منع للشك والوسواس والتشديد على النفس، وتنزه بعضهم بالإمتناع عن الجماع ليالي شهر رمضان بحجة الإنقطاع للعبادة مثلاً.

تفسير قوله تعالى ﴿عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ﴾

الأولى : في الآية توكيد لعلمه تعالى بخفايا الأمور.

الثانية : فيها تذكير للمسلمين باحاطته تعالى علماً بما يفعلون مما لا يطلع عليه احد من البشر مما يعني بالأولوية علمه تعالى بالإلتزام باحكام الصوم والإمساك عن الأكل والشرب.

الثالثة : الخيانة عدم الأمانة والنصح خلاف الحال المرجو، والإتيان بغير المتوقع من الجود والإحسان ويقال : السيف اخوك وربما خانك، والإختيان فيه نوع اكتساب أي ان الفعل يؤتى به مع القصد، ونسبته الى الأنفس لما فيه من الأضرار بالنفس والزوجة والجماعة.

الرابعة : الإختيان عنوان جامع وعلى مراتب متفاوتة منه المحرم حرمة تكليفية، او تكليفية ووضعية، ومنه المكروه، والمكروه كراهة شديدة.

وظاهر الآية انه من المكروه لعمومات تنزيه المسلمين ولثبوت التزامهم باداء الفرائض وتقيدهم بالأحكام والتفريق النوعي بين الواجب والمندوب.

الخامسة : في الآية تنبيه ولوم وعتاب، ومن اعجازها ان لوم المسلم يتعقبه مباشرة التخفيف والعفو والتيسير والباس الفعل

لباس الجواز الشرعي والإمضاء، اما الكافر فان توجيه اللوم له يتفرع عنه التوبيخ والإنذار والتشديد والوعيد.

السادسة : الآية وان وردت بلغة الجمع والخطاب العام الا انه ينصرف انطباقاً وواقعاً الى البعض والأفراد كما هو ظاهر في النصوص المتقدمة المتعلقة باسباب النزول ويدل عليه جمع القلة (الأنفس).

السابعة : تطرد الآية الخيانة عن النفوس ، وهذا من اللطف الإلهي وكأن موضوعها النفس والنقص الطارئ على ما اعد لها من الثواب، وليس هو من خيانة احكام الشريعة وما فيها من عدم الطاعة لله عز وجل.

الثامنة : ورود الآية بجمع القلة (أنفسكم) ولم يرد بلفظ (نفوسكم)، عنوان مدح وثناء على المسلمين، لأن الآية شاهد على تقيد أكثرية المسلمين باحكام شهر رمضان وقدسية لياليه قبل اباحة الوطىء ليلاً، كما ان القلة بلحاظ انحصار الاختيان بمدة محدودة من ايام التنزيل.

التاسعة : لم تذكر الآية بالنص الصريح الموضوع الذي صدق عليه عنوان التقصير مع النفس مع اهميته وخطورته لكنه يعرف بالقرائن وبما تقدم وما تأخر، وبالأخبار التي هي تفسير وبيان للآية الكريمة وكلها مجتمعة تدل على ان المراد هو الجماع وعليه الإجماع.

العاشرة : قد ورد ذات اللفظ في آية اخرى ﴿ وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ﴾[1] ، وفيها نهي عن الدفاع عن اهل الخيانة الذين ذكروا بضمير الغائب والفعل المضارع الذي يعني التلبس بالخيانة، اما هذه الآية فجاءت بلغة الخطاب وصيغة

---

(1) سورة النساء ١٠٧.

الماضـي، وعلـى نحـو الإخبـار ضـمن الإذن العـام وبشـارة التوبـة عليهم والعفو.

الحاديـة عشـرة : الآيـة مدرسـة في العقيـدة الإسـلامية وفي احكـام التوحيد.

الثانيــة عشــرة : نســخ التكليــف في عــدم وطـئ الزوجـة ليلـة الصيام عند حصول النوم جاء فضلاً منه تعالى، ولا يعني انه لـو استمر الحكـم لأستمرت الخيانـة فهـو لـيس تصحيحاً، ولـو ظـل الحكـم سـارياً مـن غـير نسـخ فـان المسـلمين يلتزمـون بـه ولا عـبرة بالنـادر، خصوصـاً اذا كـان في بـدايات التكليـف وحـدث بحكـم العـادة وعـدم التهـيء للإنتقـال للحكـم الجديـد ولكـن العفـو جـاء موضوعاً مستقلاً بذاته فضلاً منه تعالى.

الثالثـة عشـرة : ورود الفعـل بصـيغة الماضـي ﴿كُنتُمْ تَخْتَانُونَ﴾ يـدل في ظـاهره علـى حصـول خيانـة الـنفس والـبعض الآخـر تم فيمـا مضـى وفيـه لطـف ويـدل بالدلالـة التضـمنية ان المسـلمين استطاعوا الإرتقـاء واجتنـاب هـذه الخيانـة فجـاء العفـو منـه تعـالى، وبـذا تظهـر لنـا آيـات مـن اللطـف الإلهـي لم تبلـغ العقـول درك كنهه ومعانيه السامية.

وقـال الطبرسـي : و روي عـن أبـي جعفـر و أبـي عبـد الله كراهيـة الجمـاع في أول ليلـة مـن كـل شـهر إلا أول ليلـة مـن شـهر رمضـان فإنـه يسـتحب ذلـك لمكـان الآيـة و الأشـبه أن يكـون المـراد بـه ليـالي الشـهر كلـه)[1]، ولكـن كلامهمـا لا يعـني حصـر إباحـة الجمـع بخصـوص أول ليلـة مـن شـهر رمضـان، ولكـن لإرادة خـروج أول ليلـة مـن شـهر رمضـان بالتخصـص مـن كراهيـة في الجمـاع الليلـة الأولى مـن الشـهر القمـري، لأن القـرآن لـه الحكومـة، ولبيـان خصوصـية وإكـرام وقدسـية

(١)مجمع البيان ١/ ٢٨٠.

خاصة لشهر رمضان ولياليه وفيه دعوة للإستعداد لصيام النهار الإمتناع عن المفطرات فيه، والإكتفاء من ملذات الدنيا الحلال في الليل، لذا ورد عن النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم : النهي عن صيام الوصال.

وأنفس على وزن أفعل وهو من جموع القلة، وورد في القرآن نحو مائة وإثنتين وخمسين مرة، وجمع الكثرة نفوس على وزن قعود والذي ورد مرتين في القرآن[1]، قال تعالى﴿وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ﴾[2].

ويدل هذا التقسيم على أن القاعدة النحوية في تقسيم الأوزان إلى جمع قلة وجمع كثرة ليست بتامة، لأنهم قالوا بأن المخاطبين بجمع القلة هو أقل من عشرة، وقال تعالى﴿وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ﴾[3]، والجمع بالألف والتاء للقلة، وليس من حصر لأعداد غرف الجنة.

وقالوا في معناه بجواز وضع جمع القلة محل جمع الكثرة لقاعدة وهي جواز وضع الجموع بعضها بدل بعض، ولكن النقاش في الكبرى وهو ثبوت هذه القاعدة وعموم التقسيم إلى جمع قلة وكثرة، فليس من قاعدة كلية في المقا وتنخرم كثيراً بلحاظ القرائن.

وهل يمكن القول بأن إستعمال جمع القلة في الآية بلحاظ أمور:

الأول : أسباب النزول وقلة عدد الصحابة الذين بخسوا حظ أنفسهم.

الثاني : قلة عدد المسلمين الذين إمتنعوا عن الأكل في الليل بسبب النوم أثناءه.

---

(١)أنظر سورة الإسراء الآية ٢٥.

(٢)سورة التكوير ٧.

(٣)سورة سبأ ٣٧.

الثالث : قلة عدد المسلمين الذين وطأ، كل منهم زوجته مع نومها بعد الإفطار.

الرابع : النقص والقلة في عدد المسلمين الذين يختانون أنفسهم ليلة الصيامة، وفيه آية إعجازية بالشهادة من الله عز وجل للمسلمين بالتقوى والتقيد بأحكام الصيام وعفوه عنه.

تفسير قوله تعالى ﴿ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ ﴾

الأول : في الآية نكتة عقائدية وهي انفراد المؤمن بنيل التوبة والمغفرة والتجاوز عن ذنبه وهو لا يزال في الحياة الدنيا ولعل ظاهره يدل على رحمته تعالى بالتجاوز عن الذنب عند الندم على فعله ولو لم يقترن هذا الندم بتوبة نصوح.

الثاني : وردت توبته تعالى علينا مع عفوه في آن واحد فهل يتعلقان بذات المسألة بالتداخل والإشتراك على نحو جهتي وكل بما يلائمه من الحيثية.

الثالث : ان كل واحد من التوبة والعفو يتعلق بموضوع غير الذي يتعلق به الآخر.

الرابع : اختلف في جواز التوبة على البعض من الأفعال دون البعض الآخر، والمشهور على الجواز وخالف جماعة منهم ابو هاشم من المعتزلة، وهل هي العفو يتعلق بخيانة النفس ام ما هو اعم، الأرجح هو الأخير لقاعدة "المعنى الأعم" والقواعد الأخرى في سعة رحمته تعالى فتحمل الآية على المعنى الأخير ولا يبعد ان يكون لفريضة الصيام اثر كبير في نيل المسلمين هذه الدرجة والفضل الإلهي بالتوبة عليهم والتجاوز عن ذنوبهم.

الخامس : تشمل التوبة ما جاء به بعض المسلمين في ليالي الصيام مما كان منهياً عنه، والعفو يشمل التشريع باباحة الأكل والشرب والجماع في عامة الليل.

السادس : التوبة اسقاط العقاب، وعليه اجماع المسلمين سواء كان على قول المعتزلة بوجوبها على الله او انها فضل ولطف وكرم منه تعالى كما ذهب اليه الأشاعرة وبه قال الشيخ الطوسي والعلامة الحلي وهو المختار، فالآية رحمة للأمة.

السابع : لم تنحصر التوبة بالذين اعلنوا ما فعلوه من الأكل او الجماع وما اقترفوه من مخالفة الأمر بالإمتناع عنه ليلاً اذ جاءت على نحو الإطلاق الشمولي والعموم الإستغراقي خصوصاً وان الآية القرآنية لا ينحصر موضوعها باسباب النزول.

الثامن : تحث الآية على الإلتزام والتقيد بفريضة الصيام لأن التوبة في المقام من الحظر والمنع الى الإباحة، وقد تكون التوبة من التشديد الى التخفيف كما في قوله تعالى ﴿عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾.

التاسع : التوبة من الله يجب ان تقابلها توبة من العبد بالرجوع الى العبادة والتقيد باحكامها أي ان التجاوز عن الإختيان في ليلة الصيام والتخفيف فيها يستلزم التقيد التام باحكام فريضة الصوم والإمساك عن المفطرات.

العاشرة : الإخبار عن علمه تعالى بالإختيان في الليل يعني بالضرورة علمه تعالى بكيفية اداء المسلمين لفريضة الصيام واعمال نهار شهر رمضان، وفيه موعظة وحث على الإلتزام باداء الصيام فمتى ما ادرك العبد ان مولاه يراه كيف يعمل فانه يجتهد في العمل وحسن الأداء وفيه دعوة لإكتناز الصالحات واتمام العبادة خصوصاً على القول بان أصل الخيانة النقص.

تفسير قوله تعالى ﴿فَالآنَ بَاشِرُوهُنَّ﴾

الأولى : الآن اسم لأوان الحال من آن الشيء ايناً أي حان.

الثانيـة : بعـد ان انعـم الله علـى المسـلمين بـالمغفرة وقبـول التوبـة تغشاهم بعفوه ورحمته ولم يشدد عليهم في الاحكام.

الثالثـة : في الآيـة تفضـيل وامتيـاز للمسـلمين علـى غيرهـم فقـد شـدد الله علـى بـني اسـرائيل حينمـا شـددوا علـى انفسـهم كمـا في موضـوع البقـرة وذبحهـا، وفي كتابـة مـا ابتدعـه النصـارى مـن الرهبانية.

الرابعـة : لقـد خفـف الله تعـالى عـن المسـلمين وزال تحـريم مباشـرة النسـاء في ليـالي شـهر رمضـان بالتضـرع والدعـاء والتطلتـع الى التخفيـف بـنفس الوقـت الـذي يجاهـدون بـه الـنفس للإلتزام بالحكم الشرعي العام.

الخامسـة : امـر المباشـرة هنـا بمعنـى الإباحـة، وفيـه اشـارة الى انعـدام المـانع ووجـود المقتضـي، وهـو ابتغـاء الولـد وطلبـه باعتبـار ان الجمـاع علـة ماديـة يحتـاج اليهـا تكـون المولـود وتحقيـق وجـوده اذ يبـدأ نشـوؤه بـزرع النطفـة في رحـم المـرأة، وهـو مـن مصـاديق ما يسمى في المنطق (ما فيه الوجود).

السادسـة : لمـا جعـل الله عـز وجـل عنـد الـزوجين مـن حـال انجـذاب بعضـهما الى الـبعض الاخـر، وطلـب الجمـاع بذاتـه مـن الـنفس الشـهوانية، جـاء الأمـر بالمباشـرة بشـارة، واباحـة، وتثبيتـاً للأحكـام، والقـاء للسكينة في نفـوس المسـلمين، بمـا يبعثـه التخفيـف والتيسير من العزم على اداء الفرائض.

السـابعة : تنحصـر اباحـة المباشـرة بمعنـى الجمـاع في ليلـة الصـيام دون يومـه كمـا هـو صـدر الآيـة، ومـع مـا فيهـا مـن البيـان والوضـوح بـرزخ دون الاخـتلاف او الاشـتباه في التأويـل ممـا يـدل على لزوم الضبط والدقة في احكام الصيام.

الثامنة : تتضـمن اباحـة الـوطئ مـا هـو دونـه مـن التقبيـل والتفخيـذ ونحوهما لعموم الإذن والرخصة والأولوية.

التاسعة : تظهر الآية نفاذ الإرادة الإلهية في عمل المسلم اليومي من اداء الفرائض والسعي اليها وتهيئة مقدماتها واتيان المستحبات والسعي في ميادين العمل العبادي.

البقاء على الجنابة

ان تفضله تعالى باباحة الجماع في ليالي شهر رمضان يجب ان يقابل بالشكر، ومن وجوه الشكر الحرص على استقبال يوم الصيام بالطهارة والنية والجوارح والأفعال والمواظبة على اتباع الجنابة بغسلها، وكم من مؤمن يحرص على تهيئة مستلزمات الغسل ومقدماته خصوصاً مع النعم المستحدثة باسباب التسخين واجهزة التدفئة وتوفر الماء في معظم البيوت وبالخصوص بيوت المدن في الأمصار الإسلامية، ان رخصة الجماع في ليلة الصيام تجعل ليالي شهر رمضان عرساً متجدداً وسكناً ذا حلاوة مستحدثة مجللة تفيض بالإيمان ليستولي على اركان البدن بعد ان لبست رداء الجهاد ومقاومة النفس البهيمية في النهار.

اما اذا كان المجنب ممن يتعذر عليه الغسل مع ضيق الوقت فيجب عليه المبادرة الى التيمم وهي رحمة اضافية تظهر فيها السعة في موارد التخفيف والإنتفاع الأعم من الطهارة الترابية وعدم حصرها بالبدلية عن الوضوء ومقدمة لصلاة وللجمع بين الصيام والإنتفاع الأتم من الرخصة في وطئ الزوجة في ليلة الصيام لأن نعمه تعالى غير محدودة وليست مقيدة فالتراب طهور متيسر لكل الناس.

وقد ورد تفصيل ابن ابي يعفور قال : "قلت لأبي عبد الله الصادق عليه السلام الرجل يجنب في شهر رمضان ثم يستيقظ ثم ينام ثم يستيقظ ثم ينام حتى يصبح؟ قال : يتم صومه ويقضي يوماً آخر، وان لم يستيقظ حتى يصبح اتم صومه وجاز له".

ومذهب الأئمة الأربعة انه يجوز للصائم ان يصبح جنباً ولا قضاء عليه سواء كانت الجنابة من جماع او غيره، وسواء كان الصوم فرضاً ام نفلاً، ولو كان الصائم يؤخر غسله الى ما بعد طلوع الفجر مستدلين على ذلك باحاديث وردت في الصحاح عن النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

وعن عائشة وام سلمة زوجي النبي صلى الله عليه وآله وسلم : "ان النبي صلى الله عليه وآله وسلم كان يدركه الفجر وهو جنب من اهله ثم يغتسل فيصوم"، ونسب ابو عيسى الى قوم من التابعين : اذا اصبح جُنباً يقضي ذلك اليوم ولكنه جعل القول بصحة الصوم هو الأصح[1].

دوران الأمر بين الأقل والأكثر

كثيراً ما يتردد المؤمن في تحديد ما فاته من الصيام ويصعب عليه تحديد مدته وعدد ايامه بالضبط لطول المدة وتقادم الأيام او لحرصه البالغ على تبرئة ذمته واتمام واجبه العبادي او للشك في حدوث الإفطار وهو سبب القضاء وموجبه كما لو انه يعلم بافطاره عدداً من الأيام في شبابه لا يستطيع تحديدها الا بوصف تقريبي مردد بين الأقل والأكثر، او في تحديد المانع في بعض منها نحو المرض والسفر، وفي هذه الحالة يجوز له الإكتفاء بالأقل، لأن المرجع هو اصالة عدم الإفطار باعتباره اصلاً موضوعياً والنظر الى المقدار المتيقن.

كما يمكن الرجوع الى الأصل الحكمي وهو اصل البراءة في الزائد من العدد المعلوم باعتباره واجباً غير ارتباطي دائراً بين الأقل والأكثر؛ والأحوط استحباباً قضاء الأكثر لأن الإحتياط سبيل

---

(1) سنن الترمذي ١٤٩/٣.

النجاة.

تفسير قوله تعالى ﴿ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ ﴾

ذكرت اقوال:

الأولى : يعني طلب الولد، عن الحسن.

الثانية : الحلال الذي بينه الله في الكتاب[1]، عن قتادة.

الثالثة : قال بعض المفسرين مؤيداً ان الحلال في المباشرة هو الأخذ برخصة الله، ولكن المعنى أعم لأن حصره بذات المباشرة ونفس الفعل يكون تحصيلاً لما هو حاصل، ويمكن ايضاً تأويل قوله تعالى ﴿ مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ ﴾ بالرجوع الى آيات الصيام واستحضار قوله تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ... ﴾ الآية، أي اسعوا لصوم اليوم التالي بعد الإستمتاع بالنساء في الليل وفيه اشارة الى ان مباشرة النساء اجنبية عن فريضة الصيام واحكامه النهارية.

الرابعة : في الآية تفكيك بين احكام ليلة الصيام واحكام نهاره وما فيه من الإمساك عن المفطرات، فكأن الآية اخبار بان التوبة والعفو متعلق باحكام ليلة الصيام، اما احكام نهار الصيام فانها تخرج بالتخصص، والتوبة والتخفيف مناسبة كريمة للإلتزام باحكام الصيام الذي كتبه الله عز وجل لنا تشريفاً واكراماً.

الخامسة : ان الأخذ برخص الله عز وجل ايسر على المسلمين لأنه تعالى آلى على نفسه ان يتفضل على المسلمين بتيسير صومهم، كما يساهم الأخذ بها في التخفيف عن المسلمين بالتوفيق لأداء فريضة الصوم وتعاهد احكامها والحرص والإندفاع الجاد في صدق ادائها، وعدم البحث عن اسباب العذر لذا ترى نفوس المسلمين تشتاق الى شهر رمضان وتنجذب لما فيه من الأحكام.

---

(1) التبيان في تفسير القرآن ٢/١٣٣-١٣٤.

السادسة : تعتبر الآية صفحة وبابا من أبواب كرمه تعالى ولفتاً للانظار الى ميادين رخصه وتوكيداً للالتزام بقبول هباته وازالة لعناصر التشديد من مضامين التكاليف العبادية، واستدامة التنعم والتمتع بالنساء، ليكون تجديداً لشوق المسلمين وتحملهم صيام النهار بعد انقضاء ليل جميل تخللته لذة في مرضاة الله خصوصاً وان مباشرة الرجل لأمرأته حسنة وفعل يثاب عليه.

السابعة : ان الإنتفاع من رخص الله عز وجل واتيان ما اذن به من غير تشديد على النفس رحمة وملكة هدى وارتقاء في التفقه في الدين، وتوكيد للحث على الأخذ بها وورود الآيات القرآنية بمفاهيم التخفيف جزء من رحمته ورأفته تعالى خص بها المؤمنين بعد ان وعد بذلك بقوله تعالى ﴿ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴾ (١).

الثامنة : لعل الولد الصالح مما كتب الله للمؤمن بمباشرته زوجته في ليالي رمضان ليكون ريحانة وقرة عين وفرعا تتشعب من نسله فروع متوالية متعددة قال تعالى ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِي الصَّالِحُونَ... ﴾ (٢).

التاسعة : مباشرة المرأة وسيلة وعلة لإنجاب الأولاد وهو ما يسمى بالعلة الغائية او ماله الوجود، وتحتل الغاية في البرهان اهمية خاصة فاذا سئل شخص : لم انشأت داراً؟ يجيب : لكي اسكنه، ومما يعد من البديهيات هو ان ليالي شهر رمضان مباركة وذات قدسية خاصة، فتكون الآية دعوة وتنبيهاً لإستثمار هذه الليالي لإنجاب الولد الصالح ليكون عوناً وعضداً لأبيه.

العاشرة : عن الفضل بن ابي قرة عن الإمام جعفر الصادق

(١) سورة الأعراف ١٥٦.

(٢) سورة الأنبياء ١٠٥.

عليه السلامقال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مرّ عيسى بن مريم بقبر يعذب صاحبه ثم مرّ به من قابل فاذا هو لا يعذب فقال : يا رب مررت بهذا القبر عام اول وهو يعذب، ومررت به العام فاذا هو ليس يعذب، فاوحى الله اليه ان ادرك له ولد صالح فاصلح طريقاً وآوى يتيماً فلهذا غفرت له بما عمل ابنه، ثم قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ميراث الله عز وجل من عبده المؤمن ولد يعبده من بعده ثم تلا آية زكريا : ﴿ فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا * يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴾ (١).

الحادية عشرة : نسب الى معاذ بن جبل وابن عباس ان معنى الآية : اطلبوا العبادة ليلة القدر واحرصوا على قيامها بالعبادة أي السعي لمعرفة وتحديد ليلة القدر ثم الإجتهاد فيها بالعبادة، ومال اليه الرازي بتقريب عقلي بان الفراغ من طلب الشهوة بتحقق مباشرة الزوجة يجعل الإنسان يتفرغ للعبادة والطاعة، الأقرب ان ابتغاء ما كتب الله انما هو في ذات اليوم وما يتفرع وينتج عنه، نعم لا بأس ان يكون هذا المعنى احد المصاديق الثانوية التي تتفرع عن الصيام وما في شهر رمضان من الإفاضة في عموم لياليه وفي بعض الليالي منه خاصة كليلة القدر.

الثانية عشرة : الواو في ﴿وَابْتَغُوا﴾ تفيد المغايرة والتعدد أي ان موضوع الإبتغاء غير المباشرة سواء كان متفرعاً عنها او انه مستقل وكلا الأمرين ممكن، فالآية تفيد الإطلاق والسعة وعدم التقييد، وعطف الأكل والشرب عليه لا يعني بالضرورة حصر موضوع الإبتغاء بذات الليلة والظلمة التي تكتنف الناس ساعتها.

---

(١) الوسائل٣/١٦٥ طبعة حجرية.

ليلة القدر

من الافاضات في شهر رمضان انه يضم بين لياليه أشرف الليالي تلك التي يكون فيها العبد أقرب الى عالم الملكوت، ويبتعد عنه قهراً وانطباقاً الشيطان، ولقد نالت هذه الليلة اعظم الشرف وعنوان الأفضلية، اذ ورد ذكرها في القرآن وجاءت احدى سوره في خصوصها وهي سورة القدر، وتلك آية من اعجاز القرآن لبيان عظمة الليلة واهميتها في حياة المسلمين وما لها من شأن في التأريخ الإسلامي، وجاء القرآن بتعظيم وتشريف الليلة التي انزل فيها اذ جعلها الله عز وجل افضل واعظم من الف شهر، ويدخل في ذلك التشريف موارد العبادة فيها وثوابها.

ان جعل هذه الليلة ضمن شهر رمضان وخلاله ذو مدلولات متشعبة يظهر بعضها قدسية هذا الشهر ويشير الى افضليته هو الآخر على باقي شهور السنة وايامها، وقد انعم الله على المسلمين فدلهم على اكرام هذا الشهر بوجوب صيامه واخبرت السنة الشريفة والروايات المتواترة والثابتة بان ليلة القدر في شهر رمضان.

ان وضوح وترتيب آيات سورة القدر وما فيها من بيان يظهر دقائق واسراراً ملكوتية ويهدي الى علوم كونية ويرشد الى ضرورة الإهتمام الجاد من قبل المسلمين بمفاهيم هذه الليلة واستثمار اطلالتها في كل عام في ميادين العبادة وسؤال الحاجات وابتغاء الرغائب باعتبارها ليلة الإتصال الدائم لأهل الأرض بالملكوت الأعلى من خلال النور النازل والحبل الذي يعتبر سر غبطة الخلائق للمسلمين.

انها ليلة التقدير واحكام التدبير وهي أيضاً صلة الربط بين العبادة ورسوخ الإيمان في النفوس، وليصبح الإندفاع والسلوك مبنياً على اسس علمية سليمة، ولقد بين النبي صلى الله عليه وآله وسلم

معاني العبادة والقيام في هذه الليلة بان يكون "ايماناً واحتساباً"، لما فيها من المنافع وهي مناسبة لتلقي العناية الإلهية بالتقوى اذ يتفضل سبحانه وتعالى ويجعل رحمته تتغشى من اقبل اليه من اهل الأرض وليصرف عنهم السوء ونزغ الشياطين.

عن حمران عن الإمام الباقر عليه السلام عن قوله عز وجل ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ﴾ قال: نعم ليلة القدر وهي في كل سنة في شهر رمضان في العشر الأواخر، فلم ينزل القرآن الا في ليلة القدر قال الله عز وجل ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ قال: يقدر في ليلة القدر كل شيء يكون في تلك السنة الى مثلها من قابل: خير وشر، وطاعة ومعصية، ومولود واجل ورزق فما قدر في تلك الليلة وقضي فهو المحتوم ولله عز وجل المشيئة، قلت، ﴿لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾ أي شيء عني بذلك؟

فقال: العمل الصالح فيها من الصلاة والزكاة وانواع الخير خير من العمل في الف شهر ليس فيها ليلة القدر، ولولا ما يضاعف الله تبارك وتعالى للمؤمنين ما بلغوا، ولكن الله يضاعف لهم الحسنات[1].

ان توكيد النبي صلى الله عليه وآله وسلم على بقاء ليلة القدر الى يوم القيامة كما في رواية ابي ذر بشارة لما فيها من الدلالة على بقاء شعائر الإسلام قائمة في الأرض فالحديث ينبض بالحياة ويدعو المسلمين في كل جيل للإنتفاع من ليلة القدر وهي مع عظمتها تكون جزء وفرداً من افراد ومصاديق بركات شهر رمضان وتدل على شرفه وكرامته واهميته في تحديد مسار الأمة والأشخاص والأمور الكونية والتكوينية.

---

(١) البرهان في تفسير القرآن ١٥٩/٣ عن الكافي.

ان الأخبار الواردة في حق ليلة القدر كثيرة وتحث في اغلبها على العبادة فيها وهناك اوراد واعمال وصلاة خاصة بهذه الليلة، وفي كتاب وسائل الشيعة عن فضائل شهر رمضان بالإسناد عن ابي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من قام ليلة القدر ايماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه، وكان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يحييه ولا يختمه[1].

ان الإخفاء الإجمالي لليلة القدر بين ليالي شهر رمضان يتجلى انطباقاً بالحرص على القيام والعبادة والتسبيح في عامة ليالي رمضان، كما يتولد عنه قهراً الشعور النفسي العام ببركة وقدسية ليالي رمضان فكما يكون شهر رمضان وعاء زمانياً لليلة القدر فانها تفيض على من حولها من ليالي شهر رمضان بالبركة.

ان الإجتهاد في الصلاة في ليلة القدر سبيل الى المغفرة وسبب الى سعة العيش وطريق لإبتغاء السلامة والأمن، واتفق علماء الإسلام على ان ليلة القدر في العشر الأواخر من شهر رمضان واختلفوا في تحديدها.

وقد حثت النصوص على طلبها باكثر من ليلة وبلغة الأمل والرجاء، عن حسان بن مهران قال سألت الإمام جعفر الصادق عليه السلام عن ليلة القدر؟ فقال : التمسها في ليلة احدى وعشرين او ليلة ثلاث وعشرين[2].

وقال الشافعي : "واقوى الروايات عندي فيها، ليلة احدى وعشرين"[3] وفي رواية انها ليلة سبع وعشرين، والأخبار الواردة عن الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم بالإجمال والترديد

---

(1) الوسائل ٢٦٢/٧.
(2) الوسائل٢٥٩/٧.
(3) سنن الترمذي ١٥٩/١.

بين ليالي العشر الأواخر اكثر من الأخبار والواردة بحصرها بليلة معينة.

ان عدم تحديد ليلة القدر له مدلولات واسرار عديدة منها الحث على العبادة في الليالي التي يظن ان كل واحدة منها هي ليلة القدر لما في العبادة فيها من عظيم الفوز وارتقاء المنازل ولأضفاء القدسية الخاصة بها عليها وعلى الليالي المتصلة بها استعداداً وتوديعاً بروح الإجلال والإكبار ولسان الثناء لذلك (روي ابو بصير عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام قال : كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم اذا دخل العشر الأواخر شد الميزر واجتنب النساء واحيى الليل وتفرغ العبادة[1]).

وبذا تضفي ليلة القدر والإستعداد لها اهمية خاصة على الليالي العشرة الأخيرة من شهر رمضان، ولعل هذه الليالي تطلب بذاتها وتكون لها مجتمعة او متفرقة خصوصية ومنزلة تستلزم استثمارها وعدم تفويت ما فيها من المنافع.

ولليلة القدر علامات كونية تعرف بها وهي لطافة نسيمها وان كان الوقت بارداً او حاراً فريحها تكون طيبة، والشمس في صبيحتها تكون مشرقة وتبعث شعاعاً هادئاً، ووردت الرواية بان يوم ليلة القدر كليلتها من حيث الثواب وعظيم الشرف، وعلى من فاته الإجتهاد في الدعاء ليلة القدر ان يستثمر اشراقة يومها بالدعاء والعبادة والصدقة الى جانب منفعة صيامه وكون الدعاء فيه عن صيام ليكون كالعبادة المركبة والمتداخلة في آن واحد.

وفي ليلة القدر تفتح ابواب السماء وتقبل الأعمال والصالحات وتزكو الطاعات ويستجاب الدعاء وتنال الرغائب.

---

(١) الوسائل ٢٥٧/٧.

وعن مجاهد انه كان في بني اسرائيل رجل يقوم الليل حتى يصبح ثم يجاهد النهار حتى يمسي فعل ذلك الف شهر، فتعجب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم والمؤمنون من ذلك فانزل الله تعالى سورة ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ...﴾ فاعطوا ليلة هي خير من مدة ذلك الغازي ويؤيده ما روي عن مالك بن انس ان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أُري اعمار الناس فاستقصرها وخاف ان يبلغوا من الأعمار مثل ما بلغه سائر الأمم فاعطاه الله ليلة هي خير من الف شهر لسائر الأمم، لذا يمكن اعتبار ليلة القدر هبة خاصة للمسلمين وعنوان اكرام وتفضيل لهم ومناسبة كريمة لمضاعفة الأجر والثواب.

وقيل ان الرجل فيما سبق من الأمم لا يستحق اسم العابد حتى يعبد الله الف شهر، فانعم الله على المسلمين باضفاء هذه الصفة على من يشتغل بعبادته في ليلة القدر، واذا كانت الليلة الواحدة من شهر رمضان لها هذه الأهمية في تأريخ العقائد فلابد ان لشهر رمضان خصوصية واهمية ومنزلة عظيمة وان كانت ليلة القدر تمتاز عن باقي ليالي شهر رمضان، فالنسبة بين ليلة القدر وليالي شهر رمضان الأخرى ليست هي التنافي والتباين او العموم والخصوص المطلق بل العموم والخصوص من وجه، فكل ليلة من ليالي شهر رمضان بما فيها ليلة القدر هي ليلة ليوم صيام ومن هذا الشهر الكريم وضياء اداء الصوم لا يختفي في الليل كما يغيب شعاع الشمس ويلفه ظلام الليل الحالك، بل هو باق ينير القلوب ويضيء البصائر، ويساهم في تجدد الإيمان في النفوس، وتستمر الملائكة معه بالتسبيح والتهليل وكتابة الحسنات.

وروي عن الإمام علي بن الحسين عليه السلام قال : هي خير من الف شهر لأنها تنزل الملائكة والروح فيها باذن ربهم من كل امر،

والـروح فيـه وجـوه فيـأتي بمعنـى الـوحي كمـا قـال تعـالى ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾[1] أي تتنـزل الملائكـة ومعهـم الـوحي بالمقـادير وبمعنـى روح القـدس وهـو جبرائيـل، وورد عـن الأئمـة ان الـروح غـير الملائـكة وهـو خلـق عظـيم قـال تعـالى ﴿يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ﴾[2]، أي ان الروح غير الملائكة.

وليلـة القـدر سـلام وامـان ومناسـبة لصـرف الـبلاء وطـرد الشـر، وخاليـة مـن الصـواعق والـزلازل وهبـوب الريـاح الشـديدة ونحوهـا، وقـال بعضـهم انهـا سـلام عـن تسلط الشيطان ولكـن الشياطين جميعها مصفدة اثناء ايام شهر رمضان ومدته.

والـلام في الملائكـة هـل هـي للعهـد ام للجنس؟ الظـاهر انهـا للعهـد وان الـذي ينـزل بعـض الملائكـة ولـيس الجميـع، ومكـان نـزولهم هـو الأرض علـى الأرجـح والظـاهر، ولـيس السـماء الـدنيا، وهـذا لا يمنـع مـن اعتبـار ليلـة القـدر مناسـبة كونيـة يشـترك اهـل السـماء واهـل الأرض في تقديسـها واجلالهـا، اذ ان تشـريف الملائكـة لهـا واسـتثمار مـا فيهـا مـن البركـات والإفاضـات اعـم مـن ان ينحصـر بـالنزول الى الأرض وقـد يكـون النـزول مـن الكلـي المشـكك أي علـى مراتـب ومنـازل متفاوتـة، وقيـل سميـت ليلـة القـدر لمـا تكتبـه الملائكـة ممـا قـدر علـى النـاس ولابـد ان النـزول يقـترن برحمـة اضـافية مـن عنـده تعـالى تتغشى اهل الأرض.

لقـد اخفـى الله عـز وجـل ليلـة القـدر ولم يـتم تحديـدها بشـكل واضـح ودائـم وفي ذلـك حكمـة ومنـافع، ولكـي يحـرص المسـلمون علـى الإجتهـاد في العبـادة في جميـع الليـالي الـتي يمكـن ان تكـون

---

(1) سورة الشورى ٥٢.

(2) سورة النحل ٢.

موافقة لها، ولا تنحصر عبادتهم في ليلة واحدة ويفرطوا في باقي الليالي وان يكون ادراكها عن سعي تستحقه لعظيم منزلتها وما فيها من منافع ومنازل للشرف.

واجماع علماء الاسلام على انها في شهر رمضان، وهناك قول بان تقديرها في مجموع السنة وقيل هو مختار ابي حنيفة، وروي عن عكرمة انها ليلة النصف من شعبان، وهو ضعيف دلالة ومعنى.

لقد اختلف في تعيين ليلة القدر من شهر رمضان على ثلاثة واربعين قولاً.

ووعاؤها المحصور على الأرجح هو الليالي الفرد من العشر الأواخر، ونطرح قولاً وهو هل يحتمل ان تكون ليلة القدر مختلفة في هذه الليالي خلال السنين المتعاقبة لحكمة الهية، أي انها تأتي في سنة ليلة احدى وعشرين وفي سنة ليلة ثلاث وعشرين وفي سنة اخرى ليلة سبع وعشرين، الأقوى بخلافه.

"وروي عن ابي قِلابة ان ليلة القدر تنتقل في العشر الأواخر"[1].

ان ورود تلك الليالي خاصة في الروايات ضمن البيان الإجمالي لها امر يدعو الى التأمل والبحث الجاد بصيغ مباركة بعيدة عن حال الترديد.

ان الإجمال في ليلة القدر وعدم تعيينها ودوران أوانها بين ليال معدودات باب لعظيم فضله تعالى ومناسبة لإحسانه بكتابة ثوابها للمؤمنين في أعمالهم لأكثر من ليلة، فقد يتفضل سبحانه ليكتب للمسلم ثواب ليلة القدر في الليلة التي ظنها انها ليلة القدر واجتهد فيها بالعبادة وان لم تكن هي ليلة القدر.

---

(1) سنن الترمذي ٣/١٥٩.

وهـذا القـول منـا تـدل عليـه عمومـات احاديـث مـن بلـغ، أي مـن بلغـه ثـواب عمـل مـا وجـاء بـه رجـاء نيـل ثوابـه فـان الله عـز وجـل لا يخيب أمله ورجاءه.

وقـد ورد عـن عكرمـة عـن ابـن عبـاس ان رسـول الله صـلى الله عليـه وآلـه وسـلم قـال في ليلـة القـدر ليلـة سمحـة طلقـاء لا حـارة ولا بادرة وتصبح الشمس صبيحتها ضعيفة حمراء.

ان عـدم الإخبـار الـدقيق عـن ليلـة القـدر وبيـان امرهـا لا يختلـف عـن عـدم تحديـد الصـلاة الوسـطى بالدقـة بـين الصـلوات اليوميـة الخمسـة، وكـذلك اسـم الله الأعظـم في اسمـاء الله الحسـنى، وفيـه دعـوة وحـث كـريم علـى الإجتهـاد في العبـادة والـدعاء واستقصـاء مظـان فضـله تعـالى، والإعتيـاد على السعي في دروب الإمتثال.

□

تفسير قوله تعالى ﴿ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمْ الْخَيْطُ الأَبْيَضُ مِنْ الْخَيْطِ الأَسْوَدِ مِنْ الْفَجْرِ ﴾

اكل الشيء في الأصل افناؤه، وهو في المقام ادخال الطعام الى الجوف من الحلق، والشراب ادخال المائعات من الحلق، والأكل : الرزق.

وتبين الشيء : ظهر وتجلى.

والخيط : السلك، والخيط الأبيض : تباشير الفجر المعترض في الإفق وبداياته، والخيط الأسود : استعارة لبقايا غبش الليل.

والفجر : شق عمود الصبح يظهره الله عز وجل لأهل الأرض منتشراً في افق المشرق ليعلن ادبار الليل وظلمته واطلالة يوم جديد، وسمي فجراً لإنشقاق الظلمة عن الضياء، واصله المفارقة.

الأولى : الآية الكريمة اذن وأمر ارشادي لتناول الطعام والشراب في ليالي رمضان.

الثانية : فيها اعطاء لموضوعية وخصوصية ليالي شهر رمضان، فكل ليلة يحيط بها من جانبيها الغروب وطلوع الفجر، لتكون بشرى وسعادة وتوفيق لأداء الفريضة باستثناء الليلة الأولى والأخيرة يحدها الصيام من طرف واحد ولكن السعادة تبقى من الجانبين.

الثالثة : لقد حددت الآية ساعات الصوم ومدته وحصرته في ساعات النهار.

الرابعة : جعلت الآية ليل شهر رمضان لا يختلف عن بقية الليالي اضافة لما فيه من عذوبة ونشوة التوفيق لأداء فريضة الصيام وتلمس الرحمة عن قرب.

الخامسة : لم تترك الآية أي مجال للبس او التردد، كما منعت اتساع الإختلاف في اوان الإمساك وبداية الصوم بما وضعته من

علامة في الوقت موجودة في كل بقعة من بقاع الأرض وفي كل زمان وهي الهلال ويكون في ميسور كل مكلف معرفتها والعمل اهتداء بها.

السادسة : ذكرت اقوال في انتماء الفجر الى الليل او النهار او استقلال ساعته.

السابعة : الآية دليل ارتكازي لقول الفقهاء بان ساعة الفجر من اليوم وفي الحديث : ما بين طلوع الفجر الى طلوع الشمس من ساعات الجنة، والفجر أعم من ان ينطبق عليه عنوان النهار او الليل على الفجر لما ينفرد به وما يجمعه من صفاتهما، ولكن الخلاف لفظي بعد اجماع علماء المسلمين عامة على ابتداء يوم الصوم من طلوع الفجر.

الثامنة : سئل الإمام محمد الباقر عليه السلام عن ساعة لا من ساعات الليل ولا من ساعات النهار اجاب : (انها ما بين طلوع الفجر الى طلوع الشمس)[1]، وقيل ان السائل نصراني وبعض اهل الملل من يعتقد ذلك.

التاسعة : اغنت الآية المسلمين وفقهاءهم فيما يتعلق بالمقام، فكانت بينة واضحة تأمر المكلف بالإمتناع عن الأكل والشرب مع التباشير الأولى للفجر وخطوطه المرتسمة في الإفق من جهة المشرق.

العاشرة : وردت (من) في قوله تعالى ﴿مِنَ الْفَجْرِ﴾ للتبعيض والبيان والتفسير، لتوضيح الإستعارة ومفهوم الخيط وان المراد بعض الفجر وأول اجزائه.

الحادية عشرة : جاءت السنة الشريفة مفسرة للآية اعلاناً للإلتزام دقيقاً بمنطوقها وأحكامها.

الثانية عشرة : أذان الصبح عون وسبيل هداية للمسلمين في

---

(1) مجمع البحرين ٣٥٧ طبعة حجرية.

المقام ومناسبة كريمة للإمتثال الأحسن.

الثالثة عشرة : صيغة الأمر في الآية ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا﴾ دعوة سماوية للتزود من الطيبات والإستعداد لصيام اليوم التالي وعدم الإلتفات اثناءه الى الزاد والشرب، وفيه احتراز من غلبة النفس الشهوية في يوم الصيام الذي يسبق الليل او اليوم التالي.

الرابعة عشرة : روي عن عدي بن حاتم الطائي انه قال : عمدت الى عقالين ابيض واسود فجعلتهما تحت وسادتي، فكنت اقوم من الليل فانظر اليهما فلا يتبين لي الأبيض من الأسود، فلما اصبحت غدوت الى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فاخبرته فضحك وقال : ان كان وسادك لعريضاً، انما ذلك بياض النهار وسواد الليل[1]، وربما كان موضوع الحديث واوانه ذا صلة بما ذكر من تأخر نزول قوله تعالى ﴿مِنَ الْفَجْرِ﴾ وما فيه من بيان واحتمال وترديد فهم موضوع الحكم بعدم ظهور دلالة الإستعارة والقرينة الصارفة عن ارادة المعنى الأصلي، فقد روي عن سهل بن سعد الساعدي انها نزلت ولم ينزل ﴿مِنَ الْفَجْرِ﴾ فكان رجال اذا ارادوا الصوم ربط احدهم في رجله الخيط الأبيض والخيط الأسود فلا يزال يأكل ويشرب حتى يتبينا له فنزل بعد ذلك ﴿مِنَ الْفَجْرِ﴾ فعلموا انما يعني بذلك الليل والنهار[2].

ان التدرج في الحكم في المقام نوع تخفيف وجزء من التيسير الذي يتغشى الأحكام التكليفية وظهور القرينة مع بعض الصحابة ليأتي حديث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بخصوص طلوع

(1) الزمخشري/ الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل ٣٣٩/١.

(2) الآلوسي/ روح المعاني في تفسير القرآن والسبع المثاني ٣٧٦/١.

الفجر للبيان قبل نزول تتمة الآية، وكأنها اصبحت حاجة بيانية والفجر فجران، فالأول الذي يصعد طولاً ولا حكم له في الشرع لتبدده، اما الثاني فهو الفجر الصادق والمعترض في الأفق آخذاً بالإنتشار والظهور، وهو الذي يحرم عنده على الصائم الأكل والشرب.

عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال : "الفجر فجران، فاما الذي كأنه ذنب السرحان فانه لا يحل شيئاً ولا يحرمه، واما المستطيل الذي يأخذ بالأفق فانه يحل الصلاة ويحرم الطعام"، وهذا الحديث بيان للتفسير والوصف الوارد في الآية وضياء في المعرفة النوعية العامة للفجر الصادق.

بحث بلاغي

من وجوه البلاغة اللف والنشر وهو علم بديع يتعلق بالجمع والتفريق، فيؤتى بموضوع متعدد، ومحمول متعدد ايضاً ثم يرد كل محمول الى موضوعه وكل عرض الى الذات، وهذا الرجوع استقرائي.

يقوم به القارئ والسامع باستحضار علة الجمع والفصل والتمييز فهل جاء موضوع الشراء جامعاً للعهد والإيمان ولكن هل يمكن التفصيل في وجوه العقاب الخمسة الواردة في الآية.

على وجوه:

الأول : شطر منها عقوبة على نقض عهد ﷲ، وشطر على حنث الإيمان.

الثاني : العدد الأكثر على نقض العهد لأنه الأهم والأولى بالحفظ والعناية، والأقل على حنث الإيمان لأنها تأتي بالعرض.

الثالث : كلها بسبب نقض العهد، وحنث اليمين امر لاحق

للنقض.

الرابـع : يكـون الإجمـال في النشـر ولـيس في اللـف، فـالوجوه الخمسة من العقوبة يستحقها جميعاً.

الخـامس : اشـتراط الجمـع فلـو كـان الـذنب نقـض العهـد وحـده مع المحافظة على الإيمان لا يستحق وجوه العقوبة المذكورة في الآية.

السـادس : اللـف والنشـر التفصـيلي بـان تكـون الوجـوه الأولى من العوبة لنقض العهد، والوجوه الأخيرة لحنث الإيمان.

السـابع : الملازمـة الموضـوعية بـين نقـض العهـود وحنـث الـيمين، من وجهين:

الأول : اتحـاد الموضـوع، فمـن يـنقض العهـد يـأتي بـيمين كاذبـة لتأكيد نقضه.

الثـاني : وحـدة سـنخية الـنقض والحنـث، فمـن يقـوم يقـوم يـنقض العهـد يتجـرأ علـى الـيمين، كمـا ان الله ﷻ اخـذ علـى النـاس موثقـاً والزمهم الوفاء بعهده.

والصــحيح هــو الســابع خصوصــاً بلحــاظ موضــوع الــنقض وكتمـان مـا ورد في التـوراة مـن البشـارات بـالنبي محمـد صـلى الله عليـه وآله وسلم.

افطار الصائم

ان الحــث علــى دعــوة الصــائم للإفطــار تعــني الى جانــب مــا تتضـمنه مـن ابـواب الأجـر والثـواب نشـر روح الإلفـة وحـب الجماعـة وفـتح طـرق الشـهية والتـنعم بفضـل الله تعـالى بعـد اجتيـاز اختبـار الصـيام في مـورد الطاعـة والعبـادة ممـا يسـبب انشـراح الـنفس عنـد الإفطـار الأمـر الـذي يـؤدي الى الإقبـال علـى الطعـام بشـوق ورغبـة تضــاف الى حاجــة البــدن اليــه بعــد ســاعات الإمســاك عــن الأكــل والشرب خلال النهار وليكون سبيلاً الى الصدقة والإطعام.

وعن الإمام جعفر الصادق عليه السلام قال : "كان علي بن الحسين عليه السلام اذا كان اليوم الذي يصوم فيه امر بشاة فتذبح وتقطع اعضاؤها وتطبخ فاذا كان عند المساء اكب على القدر حتى يجد ريح المرق وهو صائم، ثم يقول هاتوا القصاع اغرفوا لآل فلان، اغرفوا لآل فلان ثم يؤتى بخبز وتمر فيكون عشاءه"(١).

وفي الرواية دلالة على اهمية اطعام الصائم وان افطاره اعم من دعوته الى الطعام ويدخل فيه ارسال الطعام اليه وافضلية الجيد والمطبوخ من الطعام على الردئ والنيء منه ولكن هذا لا يمنع من اهداء ما هو ادنى لقاعدة الميسور ولصدق عنوان الإطعام، والأولى ان يكون من المتوسط والمتعارف عند الناس وليس من الخبيث.

ان قبول الصائم دعوة اخيه للإفطار امر مستحب وفيه ادخال السرور عليه واكرامه وباب رزق لصاحب البيت وزيادة في الثواب ومضاعفة في اجر الإحسان ويدخل فيه الصدقة على الصائم اذا كانت بعنوان الإفطار او انها توظف في افطاره.

والإفطار مناسبة كريمة لغفران الذنوب ومحو السيئات وكأنه من النعم الثانوية لشهر رمضان لذا جاءت النصوص بتيسير استثماره والإنتفاع منه لكل من يرجو الثواب، وفيها حث على إفطارالصائم شربة من ماء عذب او تمرات او قليل من اللبن اذا انحصرت القدرة بها.

هذا بالإضافة الى استحباب اكرام الضيف واطعام الطعام مطلقاً وما في ذلك من البركة والزيادة في الرزق وهو سبيل للمغفرة ومحو الذنوب.

وفي الصيام اقتصاد في النفقات وتوفير لوجبة اكل، ومدرسة في التدبير المنزلي وتنظيم شؤون الأسرة.

---

(١) الوسائل١٤٦/٢ طبعة حجرية.

للصائم فرحتان

حديث مبارك يخترق شغاف القلوب ويدرك حقيقته الصائم وغيره ولكن الصائم يحس ويتلمس الفرحتين اذ تغمره السعادة ساعة الإفطار ابتهاجاً بالفوز بالطاعة والتوفيق لأداء الفريضة، والإنتفاع من اباحة الطعام ساعتها والإقبال عليه بشوق وشهية اعتزاز بارادة الصبر والثبات على فرائض الإيمان، ويرجو الصائم بما يرزقه الله من بصيرة ما ينتظره من الثواب وما اعده الله للصائمين من منازل ومقام كريم في الآخرة وحالة اليسر في الحساب واجتياز الصراط، وقد ورد في الرواية عن النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم (ان باباً من ابواب الجنة يسمى الريان؟؟ يدخل منه الصائمون يوم القيامة)[1].

كما ورد عنه صلى الله عليه وآله وسلم : "للصائم فرحتان فرحة عند افطاره، وفرحة يوم يلقى ربه"[2].

ان كلتا الفرحتين تظهران عظيم الرحمة وكبير الرأفة التي خص الله بها المسلمين في فرض الصيام وتوفيقهم لتعاهده والحفاظ عليه، وبينما يزول ما في الصيام من جهد ومشقة بمجرد الإفطار فان نعمة التوفيق لأداء الفريضة وتحسس بركتها يبقى ملازماً للمؤمن طيلة ايام حياته وليكون حبل اتصال بين الفرحتين.

فكل من الفرحتين مركبة وتتضمن عدة حالات من الغبطة والسعادة فالفرحة هنا قضية طبيعية وليست شخصية، وما اوان الإفطار الا بداية فرحة الدنيا وان كانت في الحقيقة تبدأ منذ لحظة الصيام الأولى لذا ترى السعادة تغمر المؤمنين بقدوم شهر رمضان باعتبار انه نهر من الحسنات.

---

(١) الوسائل٢/١٧٩طبعة حجرية، صحيح البخاري ٣٢٤/١.

(٢) الوسائل٢/١٧٩طبعة حجرية.

ان ساعة الإفطار مناسبة للدعاء وفرصة للشكر والأمل، بالإسناد عن الإمام الصادق عليه السلام عن آبائه عليهم السلام ان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كان اذا افطر قال : "اللهم لك صمنا وعلى رزقك افطرنا فتقبله منا، ذهب الضمأ وابتلت العروق وبقي الأجر"[1].

السحور واهميته

السحور على وزن رسول وهو ما يتناوله الصائم من طعام وشراب في وقت السحر وهو الثلث الأخير من الليل وما قبيل طلوع الفجر، ووجبة السحور رحمة اختص بها المسلمون، ففي الأمم السابقة يحرم الأكل والشرب على من ينام بعد صلاة العشاء وقد تقدمت الرواية على ان المسلمين في بداية تشريع الصوم كانوا في صومهم على هذا المعنى والحكم حتى نسخه قوله تعالى﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ...﴾.

والسحور مستحب استحباباً مؤكداً وقد حث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على المبادرة اليه وتعاهده وعدم تركه او اهماله لما فيه من منافع شخصية وعبادية حيث يعين الصائم ويقويه على تحمل مشاق الإمساك عن الأكل والشرب بما يتزوده منهما عند السحور ولقرب وقته من بداية الصوم وقد يكون سبباً لأداء صلاة الفجر في اول اوقاتها.

وفي الخبر عن الإمام جعفر الصادق عن آبائه عليهم السلام قال : "قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم السحور بركة؛ قال : وقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لا تدع امتي السحور

---

(١) الوسائل١٤٧/٢ طبعة حجرية.

ولو على حشفة"[١]، (وروي عن انس بن مالك قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم : تسحروا فان في السحور بركة)[٢].

والبركة تعني النماء والزيادة والخير فالسحور قوة للبدن ومناسبة للدعاء وطلب الحوائج خاصة وانه وقت مظنة واستجابة، وفيه اجر وثواب واحياء للسنة وامتثال لأمر النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم واستعداد للصيام كفريضة عبادية (وروي عن امير المؤمنين علي عليه السلام ان النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم قال : ان الله تبارك وتعالى وملائكته يصلون على المتسحرين والمستغفرين بالأسحار فليتسحر احدكم ولو بشربة من ماء[٣].

ولعل اوان السحور ووظيفته تتطلب نوعاً خاصاً من الطعام والشراب يوفر للبدن طاقة ويبعث فيه النشاط ولا يجعل شوقه الى الماء ونحوه اثناء النهار كثيراً وقد روي عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام انه قال : افضل سحوركم السويق[٤] والتمر وروي ان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كان يتسحر بهما، ويتحقق عنوان السحور ولو بشربة ماء وروي عن النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم انه قال : ان فصل ما بين صيامنا وصيام اهل الكتاب اكلة السحور[٥].

واتماماً لوظيفة السحور يستحب تأخيره وان يتم الفراغ منه قبل اذان الصبح بوقت مناسب وان كان وجوب الإمساك يتحقق عند طلوع الفجر الثاني او حال سماع اذان الصبح.

---

(١) الحشفة – بالتحريك : التمرة الضعيفة الرديئة الخالية من النواة وهي عديمة الحلاوة والطعم، قال الجوهري : اردأ التمر.

(٢) صحيح البخاري ٣٢٩/١.

(٣) الوسائل١٤٧/٢ طبعة حجرية.

(٤) السويق : دقيق مقلو يعمل من الحنطة او الشعير.

(٥) سنن النسائي ١٤٦/٤.

وقد روى البخاري عن انس عن زيد بن ثابت قال : تسحرنا مع النبي صلى الله عليه وآله وسلم ثم قام الى الصلاة قلت : كم كان بين الأذان والسحور .

قال : قدر خمسين آية[١].

واطلاقهما يفيد في معناه ان الآيات متوسطة وليست بالطويلة ولا بالقصيرة وبقراءة ليست سريعة ولا بطيئة، فيكون الوقت عشر دقائق او ربع ساعة ونحوه.

تفسير قوله تعالى ﴿ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ﴾

الأولى : أمر مولوي وحكم تكليفي ووضعي بوجوب انبساط احكام الصيام على جميع آنات النهار ومنها النية والقصد.

الثانية : ان الصوم لا ينقطع ولا يعتبر صحيحاً تاماً الا عند دخول الليل.

الثالثة : اتمام الصوم اكماله والإتيان به جامعاً للشرائط.

الرابعة : ليس من مانع من الأخذ بالمعاني العقائدية الأخرى للتمام، كما في الدعاء اعيذ نفسي بكلمات الله التامات، والتمام في الدعاء انتفاع المتعوذ ووقايته وكفايته بها لتكون حرزاً له، وفيه : "اللهم رب هذه الدعوة التامة" نعتت بالتمام لأنها ذكر لله تعالى ولا يصيبها تغيير الى يوم القيامة كذلك الصيام فان تمامه يعني حسن الإنتفاع وبلوغ مراتب الفلاح واستحقاق اجابة الدعوة.

الخامسة : تظهر الآية تقسيماً لليوم والليلة بلحاظ الصيام ويمكن ان يكون اساساً معتبراً في افعال عبادية، ودنيوية ومعاشية عديدة اخرى فهي تبين مدة الصوم بلحاظ الظواهر الكونية المنبسطة على جميع الأرض والتي لا تقبل الترديد والإجمال وتجعل المائز بين الصيام والإفطار كالضدين فالصيام ما بين طلوع الفجر الى

(١) صحيح البخاري ٣٢٩/١.

غروب الشمس، وتحدد ليلته من غروب الشمس الى طلوع الفجر لتؤكد عدم الواسطة بينهما، واسقاط ما كان ممنوعاً على المسلمين في شطر من الليل من الأكل والشرب والجماع كما تقدم في اسباب النزول.

السادسة : وردت الآية بلفظ التمام ولم ترد بلفظ الكمال، لأن الصيام فعل عبادي بسيط يأتي به المكلف بحسب القدرة والإستطاعة بالإمساك عن المفطرات، وقد لا يبلغ صوم الخواص او خواص الخواص، فجاء الأمر بالإتمام وهو اعلى مراتب التكليف الحسية والمدركة وليكون بفضله تعالى كاملاً تاماً.

السابعة : بعد الرخصة في مباشرة النساء ليلاً والتخفيف عن المسلمين في عباداتهم وتزيين نهار الصوم بالشوق الى نعم الإفطار في الليل، فان الآية جاءت لإتمام الحجة ولزوم التقيد باحكام الفريضة وضبط النفس اثناء نهار الصوم.

الثامنة : حصول النسخ النسبي في ليلة الصيام دون يومها، يعني في دلالته التضمنية امضاء فريضة الصوم وثبوتها الى يوم القيامة.

التاسعة : (الى) حرف له سبعة معان منها انتهاء الغاية الزمانية كما في المقام وانتهاء الغاية المكانية كما في قوله تعالى ﴿مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى﴾(١).

وظاهر الآية وبقرينة اولها وما فيه من حلية مباشرة النساء فان مدة الصوم تنتهي مع انتهاء النهار الذي لا يعرف الا بدخول الليل اذ لا واسطة ولا برزخ بينهما الا دقائق معدودة بعد سقوط القرص تحمل على الإحتياط في الإفطار عند شطر من المسلمين والليل لا يدخل في الصوم لأنه من غير جنس النهار.

---

(١) سورة الاسراء ١.

العاشرة : (ثم) حرف عطف يفيد الترتيب والتراخي، جاء في الآية لتبين التوالي والتعاقب بين آنات الصوم وتعددها، ففي كل لحظة منها يكون الصائم ملتزماً بالإمساك عن المفطرات، وفي مجيء هذا الحرف فضل منه تعالى لإحتساب الثواب وعظيم الأجر على الصيام باعتبار انه مركب زماني وليس بسيطاً فيتكون النهار من آنات كثيرة لا تقبل القسمة لقصرها وكل واحد منها لا ينشطر الى الماضي والمستقبل ويدل على ما نذهب اليه قوله تعالى ﴿أَتِمُّوا﴾ من دقائق النهار بجهاد وسعي دؤوب وصبر عن الطيبات وصبر على الطاعة الى ان يدخل الليل.

الحادية عشرة : التمام في الإصطلاح هو الجامع لخصائصه وشرائطه ولا يوجد خارجاً عنه ما يكون جزء منه ومن مقوماته، وبالرغم ان التمام في الصيام جاء بلحاظ الزمان ومقدار من حركة الفلك المحصورة بساعات النهار فان التمام هنا بشارة القبول تتجلى مضامينها وتفسير الآية بالحديث القدسي "الصيام لي وأنا اجزي به".

الثانية عشرة : وردت مادة (تم) في عدة آيات من القرآن اكثرها في اتمام نعمته سبحانه على المسلمين أيام البعثة النبوية المباركة وقبلها وبعدها وعلى الأنبياء خاصة، وجاءت باتمام الحج والصيام والرضاعة والعهد، فهل من من ملازمة بينهما وان اتمام العبادات سبيل لإتمام النعمة ام لا؟ الأقرب هو الأول.

الثالثة عشرة : بالإسناد عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام قال : ان الصيام ليس من الطعام والشراب وحده انما للصوم شرط يحتاج ان يحفظ حتى يتم الصوم وهو الصمت الداخل اما تسمع قول مريم بنت عمران ﴿ إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ

إِنسِيًّا﴾[١].

يعني صمتاً فاذا صمتم فاحفظوا السنتكم عن الكذب وغضوا ابصاركم ولا تنازعوا، ولا تحاسدوا، ولا تغتابوا، ولا تماروا، ولا تكذبوا، ولا تباشروا، ولا تخالفوا، ولا تغضبوا، ولا تسابوا، ولا تشاتموا، ولا تنابزوا، ولا تجادلوا، ولا تباذوا، ولا تظلموا، ولا تسافهوا، ولا تزاجروا.

ولا تغفلوا عن ذكر الله، وعن الصلاة، والزموا الصمت، والسكوت والحلم والصبر والصدق ومجانبة اهل الشر واجتنبوا قول الزور والكذب والخصومة وظن السوء والغيبة والنميمة.

وكونوا مشرفين على الآخرة، منتظرين لأيامكم لما وعدكم الله متزودين للقاء الله وعليكم بالسكينة والوقار والخشوع والخضوع وذل العبد الخائف من مولاه راجين خائفين راغبين راهبين قد طهرتم القلوب من العيوب وتقدست سرائركم من الخبث[٢].

صوم الوصال

وهو صوم يومين متتابعين مع الليلة التي بينهما او ثلاثة ايام مع الليلتين اللتين بينهما او اكثر، فملاكه وصل يوم الصيام باليوم الآخر وان ذكر انه يعني جعل عشاء الصائم سحوره، كما في الخبر، أي لا يتناول في ليلة الصيام الا وجبة واحدة، والظاهر انه من مصاديقه.

وصوم الوصال من مختصات الرسول الإكرم صلى الله عليه وآله وسلم ومما شرفه الله تعالى به، اذ ان مختصاته على قسمين، فاما ان تكون نعمة تفوق ما يؤذن بها للآخرين كما في تعدد زوجاته صلى الله عليه وآله وسلم وزيادتهن على الأربع، واما ان تكون

---

(١) سورة مريم ٢٦.

(٢) الوسائل٢/١٥٠ طبعة حجرية.

عبادية تكليفية ومنها صوم الوصال.

فـان الـنبي صـلى الله عليـه وآلـه وسـلم يصـومه ولكنـه نهـى عنـه، لـذا فـان اجماع علمـاء الاسـلام علـى النهـي عـن صـوم الوصـال وان اختلفـوا هـل هـو نهـي تحـريم او نهـي تنبيـه والأول اقـوى، (وبالإسـناد انه قيـل للنبي صـلى الله عليه وآله وسـلم في نهيه عـن صـوم الوصـال يـا رسـول الله تواصـل؟ فقـال : انـي لسـت مـثلكم انـي ابيـت عنـد ربـي يطعمـني ويسـقيني)، وحكـى الطـبري عـن ابـن الـزبير ان الـنبي صـلى الله عليه وآله وسـلم كـان يواصـل سـبعة ايـام، فلمـا كبر جعلـها خمسـاً فلما كبر جعلها ثلاثاً، وفي اطعامه من عنده تعالى ذكر وجهان:

الأول : ان الـنبي صـلى الله عليـه وآلـه وسـلم يسـتطيع ان ينـال الطعـام والشـراب مـن عنـده تعـالى اذا احتـاج اليـه، ولكـن الكـلام العربـي يحمـل علـى ظـاهره وورد الإطعـام هنـا علـى نحـو الإطـلاق مـن غير تقييـد بالحاجـة والسـؤال بالإضـافة الى قرينـة المبيـت عنـده تعالى.

الثـاني : انـه تعـالى كـان يطعـم اوان الإفطـار مـن ثمـار الجنـةن وفيـه انـه لـو كـان لبـان واتضـح كآيـة متعـددة ومتجـددة في شـهر رمضـان ولعلمه اهل البيت وازواج النبي كما في حديث الطائر.

وقـد يكـون طعـام الجنـة في المقـام مـن خصـائص واسـرار النبـوة كنـزول الملـك بـالوحي وعـدم رؤيـة النـاس لـه، او ان الطعـام مـن المجـردات الا انـه يفعـل في البـدن كفعـل واثـر الطعـام، وهـو امـر ممكـن وجـزء مـن المعنـى العـام للمبيـت والإطعـام وانـه صـلى الله عليـه وآلـه وسـلم مـا دام قـد ذكـر المبيـت عنـده تعـالى أي في ضـيافة الـرحمن مـن ليالي رمضان، والإطعام والإسقاء يتفرعان عن هذا المبيت المبارك.

وكمـا ان الملائكـة اجسـام لطيفـة تتشـكل بهيئـات كريمـة مختلفـة اذ انكـر اكثـر المـتكلمين انهـا جـواهر مجـردة، فـان الـنبي صـلى الله عليـه وآلـه وسـلم يطعـم مثلمـا يطعـم الملائكـة لأنـه مبيتـه عنـد الله عـز وجـل

وربما كان طعامه افضل لأفضليته صلى الله عليه وآله وسلم على الملائكة ولأن مبيته بعنوان الضيافة وفيها اعتبار زائد كما هو ظاهر ومعروف في الواقع والإعتبار والوجدان، وهذا القول لا يمنع من الوجهين اعلاه لانهما من مصاديق وافراد الاطعام وينظر لهما بلحاظ فضله تعالى على رسوله صلى الله عليه وآله وسلم.

ان انفراده صلى الله عليه وآله وسلم بصوم الوصال اثبات لموضوعه وحجة ودليل على سهولة الصيام ويسره، وانه ارتقاء في عالم الملكوت ومناسبة للمناجاة.

روي عن عاصم بن عمر عن عمر بن الخطاب قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم اذا اقبل الليل وادبر النهار وغابت الشمس فقد افطرت[1].

وفي رواية اذا اقبل الليل من ههنا- أي من جهة المشرق وادبر النهار من ههنا- جهة المغرب- وقد غربت الشمس فافطر الصائم.

الأكل سهواً

مما هو شائع وغير مستغرب اقدام لصائم على الشرب او الأكل سهواً وغفلة خصوصاً في الأيام الأولى لشهر رمضان، ولكن الشريعة لم تغفل عنه لأن احكامها جامعة مانعة بل شملته بعمومات السماحة والتيسير والتخفيف والقواعد الإمتنانية العديدة ومنها قاعدة نفي الحرج وقاعدة كل ما غلب الله عليه فالله اولى بالعذر وحديث رفع القلم، بالإضافة الى بركات الصيام واللطف في احكامه التكليفية والوضعية فمن اكل وشرب ناسياً في شهر رمضان فلا شيء عليه، وعن الحلبي ان الإمام جعفر الصادق عليه السلام سئل عن رجل نسي فاكل وشرب ثم ذكر قال : لا يفطر انما

---

(١) انظر سنن ابي داود ٢/٣٠٤.

هو شيء رزقه الله فليتم صومه[١].

وقال الحنفية والشافعية والإمام احمد بإباحة الأكل والشرب للصائم في حالة النسيان واستدلوا بحديث ابي هريرة الذي اورده البخاري عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال : "اذا نسي فأكل وشرب فليتم صومه، فانما اطعمه الله وسقاه"[٢].

وقال مالك بالقضاء دون الكفارة في المقام قياساً للصوم على الصلاة وهو قياس متروك لانه في مقابل النص، فان ترك الإمساك عن المفطر نسياناً لا يشبه ترك ركن من اركان الصلاة كالركوع عن سهو ونسيان وفسادها بسببه، لأن الركوع واجب ركني في الصلاة، وتركه عمداً او سهواً مبطل للصلاة، وهناك واجبات غير ركنية في الصلاة يوجب تركها سهواً بطلان الصلاة كالسجدة الواحدة، والتشهد الوسطي فلماذا لا نقيس الأكل والشرب في الصيام بهذه الواجبات غير الركنية.

الجواب : ان المدار على النص والحكم في الصوم خاصة ولا تصل النوبة الى القياس، فان احاديث الصوم قاعدة مستقلة في بابه والرخصة في النسيان نص ثابت كما وهو داخل ضمن حديث الرفع لقول النبي صلى الله عليه وآله وسلم : "ان الله وضع عن امتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه"، ولتعذر الإعادة ضمن وقت الأداء بعكس الصلاة.

و سبق الماء الى الجوف في حال المضمضة[٣] لوضوء الفريضة والصلاة الواجبة لا يكون مفطراً، وكذا ابتلاع بقايا الأكل التي تخرج من بين الأسنان نسياناً.

---

(١) الوسائل٢٦/٢ طبعة حجرية.

(٢) فتح الباري ٥٨/٥.

(٣) المضمضة : ادارة الماء بالفم وتحريكه الأصابع او بحركة ذاتية من قوة الفم وهي ليست من اجزاء الوضوء بل من كمالاته.

تفسيرقوله تعالى ﴿ وَلاَ تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ ﴾

الاعتكاف لغة هو الاحتباس اذ ان مادة العكوف تدل على الحبس واللزوم، يقال عكفه يعكفه عكفاً : حبسه. وقد يرد بمعنى اللبث المتطاول. وفي الاصطلاح هو اللبث في المسجد بقصد العبادة ويدل على رجحانه الأدلة الأربعة، فمن الكتاب الكريم قوله تعالى ﴿ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴾[١].

واما السنة فقد ورد عن النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم انه قال "اعتكاف عشر في شهر رمضان تعادل حجتين وعمرتين"[٢]، بالاضافة الى اجماع المسلمين في الفتوى والعمل.

والعقل يحكم بمحبوبية الالتجاء الى دار المحبوب وانتظار افاضاته، والأقوى كفاية قصد التعبد بنفس اللبث، وله مطلوبية في ذاته اذ ان الانقطاع عن الدنيا والكف عن مشاغلها بقصد التقرب الى الله عز وجل أمر وجودي ذو اعتبار، وعند الشك في الزائد فالمرجع أصالة البراءة.

وقيل : الأحوط ضم قصد عبادة اخرى اليه. وفي المنتهى قال : "هو لبث مخصوص للعبادة".

وكان الاعتكاف عبادة معروفة يقبل عليه المؤمنون والنساك، وهو وسيلة للتقرب واعلانٌ لصدق العبودية والاخلاص فيها والانقطاع الى الله، ومناسبة للتخلص من الكدورات الظلمانية وما يعلق في النفس من الحواجز بسبب هموم الدنيا، وان قلّ في هذا الزمان الالتفات اليه.

---

(١) سورة البقرة ١٢٥.

(٢) الوسائل باب : ١ من أبواب الاعتكاف حديث : ٢.

بحث اصولي

لا يصح الاعتكاف الا من مكلف مسلم لعدم توجه الامر بالعبادة لغير المكلف كفاقد العقل، أو شرط البلوغ، نعم اختلف في مشروعية عبادات الصبي.

ومن شرائطه النية وقصد القربة وعليه الاجماع، لأن العبادة لا تتقوم الا بالقصد والنية، فلو اعتكف لمصالح دنيوية او رياء ولو في يوم منه بطل، ومحل النية أول الفعل ووقتها قبل الفجر.

ومدته لا تقل عن ثلاثة ايام، وقال بعض الفقهاء يكون يوماً، وقال مالك لا يكون الإعتكاف اقل من يوم وليلة، وعند الشافعية لحظة.

ومن نذر إعتكافاً مطلقاً فعليه ان يأتي باقله وهو ثلاثة ايام لصدق الإعتكاف والوفاء بالنذر عليه ولإصالة البراءة عن الزائد.

يصح الإعتكاف في كل وقت يصح فيه الصوم وافضل اوقاته شهر رمضان وافضله العشر الأواخر منه.

والإعتكاف مستحب وقد يأتيه الوجوب بالعرض كما لو وجب بنذر او عهد او يمين او شرط في ضمن عقد او اجارة ونحوها، وهو مندوب وليس بواجب ويجوز قطعه في اليومين الأوليين منه ومع تمامهما يجب الثالث.

ومن شروط الإعتكاف ان يكون مكانه المسجد الجامع الذي يجتمع فيه معظم اهل البلد، ومنهم من قال بصحته في كل مسجد من مساجد الجماعات.

ولا ينحصر الإعتكاف بالرجل بل يستوي فيه الرجل والمرأة، لقاعدة الإشتراك ولأنه نوع عبادة وورد الخطاب بصيغة المذكر للتغليب في موضوع الإعتكاف وفي ارادة المباشرة، نعم لا يصح صوم الحائض والنفساء.

والآية اشارة الى وجوب استثناء المتلبس بالإعتكاف من عموم قوله تعالى ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ﴾ ولبيان نهيه تعالى عن الجماع في حالة الإعتكاف وفيها تنزيه بما تجسده من مضامين القرب الى الله سبحانه وتعالى، والإنقطاع اليه، وتفرغ النفس والبدن لعبادته بصورة متصلة ومن غير انقطاع.

وتبرز اهمية صيغة الإستحباب والندب للإعتكاف دون وجوبه لما في الإستحباب من التخفيف لأن الإعتكاف انقطاع تام الى العبادة والنهي فيه عن الجماع يستوعب الليل والنهار وليس نهار الصيام فقط، وكأن مجموع الآية الكريمة نسخ لحرمة الجماع في ليلة الصيام، ولكن حرمته بقت لمن يختار الإعتكاف كمسمى لعبادة منصوصة اصلاً، وفي هذا الربط بينهما والتداخل وابقاء صرف الطبيعة في المنسوخ وبعنوان الإستحباب وليس الوجوب آية اعجازية لم تستوف فلسفتها الدراسات في باب النسخ ويعتبر بقاء اصل الموضوع تذكيراً وموعظة.

تفسيرقوله تعالى ﴿وَلَا تُبَاشِرُوهُنَّ﴾

فيه قولان:

الأول : المراد في الآية هو الجماع.

الثاني : كل ما كان دونه من قبلة ونحوها.

ذهب الى الرأي الأول ابن عباس والضحاك والحسن وغيرهم، والى الثاني ابن زيد ومالك ، وسيأتي تفصيل ومزيد كلام في الجزء الثالث والثلاثين بعد المائتين من هذا السِفر (علم احصاء أحكام القرآن).

ومن فضل الله عز وجل أن يلتقي الجزء ٣٣ والجزء ٢٣٣ في

ذات الموضوع[١].

ومن الآيات ان موضوع مباشرة النساء لم يرد الا مرتين وفي هذه الآية دون غيرها، الأول يتضمن الرخصة المطلقة في مباشرة النساء ليلة الصيام، والثاني المنع منها لخصوص من تلبس بالاعتكاف واختاره.

ولا يفسد الإعتكاف الا بالجماع ويحرم الإستمتاع بالنساء لمساً وتقبيلاً ونظراً بشهوة ولكنها غير مفسدة للإعتكاف وهناك آداب خاصة للإعتكاف.

والإعتكاف سنة مؤكدة في العشر الأواخر من شهر رمضان بصورة خاصة فقد كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يعتكف العشر الأواخر من رمضان[٢]وفيه بيان وتفسيرعملي للآية الكريمة واسباب وجود موضوع الإعتكاف في آيات الصيام وليكون مناسبة لتحري ليلة القدر وطلب ما فيها من عظيم الثواب وبذلك يكون الإعتكاف صفة اضافية في تقديس شهر رمضان واجلاله، وبياناً لما له من شأن، واظهاراً لمنزلة وثواب العبادة فيه واستجابة الدعاء في لياليه وايامه، فلا غرابة اذن ان تأتي بين آيات الصيام آية الدعاء ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾[٣].

قوله تعالى ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلاَ تَقْرَبُوهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾

تلك : اسم اشارة للبعيد، جاء مبتدأ. حدود : بدل من تلك مرفوع وهو مضاف، واسم الجلالة : مضاف اليه.

فلا : الفاء للسببية لأن ما قبلها سبب لما بعدها، لا : ناهية تأتي

(١) وقد يتغير رقم الجزء بالإضافات في الأجزاء السابقة له.

(٢) انظر سنن الترمذي ١٥٧/٣، الوسائل ١٩٧/٢ طبعة حجرية.

(٣) سورة البقرة ١٨٦.

لطلب الترك وتختص بالدخول على المضارع وتقتضي جزمه، تقربوها : مضارع مجزوم بحذف النون لأنه من الأفعال الخمسة، والواو ضمير متصل في محل رفع فاعل، وها : ضمير متصل في محل مفعول به والجملة خبر، كذلك : اسم اشارة مركب يفيد التشبيه.

يبين الله : فعل وفاعل، آياته : مفعول به وهو مضاف، والهاء : مضاف اليه؛ للناس : جار ومجرور متعلق بيبين.

لعلهم : لعل حرف مشبه بالفعل، هم : ضمير في محل اسم لعل.

يتقون : فعل مضارع مرفوع بثبوت النون لأنه من الأفعال الخمسة، والواو : ضمير متصل في محل رفع فاعل، والجملة من الفعل والفاعل في محل رفع خبر لعل.

حدود الله : محارمه ونواهيه واحكام الشريعة، وفي الحديث : طان الله جعل لكل شيء حداً وجعل على من تعدى الحد حداً" أي عذاباً، والحدود جمع حد وهو لغة الحاجز بين الشيئين.

وتكرر ذكر حدود الله في القرآن اربع عشرة مرة في آيات تتضمن ابوابها وبيانها وعاقبة السوء التي تنتظر وتستقبل من يظلم نفسه بتعديها.

والآية حجة على الناس وموعظة وتذكرة لأهل الإيمان والذين جعلوا ما آتاهم الله من العقل والبصيرة سبيلاً لتدبر آياته وللتفكر في حقيقة الحياة الدنيا باعتبارها دار بلاء وامتحان وكيفية التعامل معها واستثمارها لأداء الصالحات واتيان الواجبات مع لزوم خشيته تعالى باطاعة اوامره واجتناب معاصيه اذ يعتبر الصوم فرعاً اساسياً من فروع الشريعة وصرحاً شامخاً في بناء العقيدة الإسلامية فجاءت الآية تفضلاً منه تعالى في التوكيد على وجوب ادائه والتنبيه الى التقيد باحكامه وتنزيه شهر رمضان والمساهمة الفعلية

بتعاهـد ايامـه ولياليـه بالنسـك ووجـوه العبـادة، وفيهـا تحـذير مـن الغفلـة والمعصـية وتـرك مـا في الصـيام مـن الواجبـات، وانـذار وتخويف من التفريط بامره ومستلزماته.

القضاء عن الميت

ان السعي لتخليص ذمة الميت من اعباء التقصير وتبعات ترك الصيام وآثاره بر به ووفاء واقرار بحقيقة الحياة بعد الموت وان الجنة حق والنار حق وان الله يبعث من في القبور، هذا بالإضافة الى الثواب العظيم الذي يلحق من يؤدي الصيام عن غيره نيابة في غير اوقات الصيام الواجبة في المكلف ذاته طوعاً او عن تبرع بالمستلزمات المادية للإستئجار في المقام.

ولكن الكلام في الأمر يستلزم التعرض لعدة وجوه منها ما يتعلق باصل الوجوب، وتعيين الولي وهو الولد الأكبر من ذرية الميت الذي تعلق القضاء بذمته لما فاته في حياته عن عذر كالمرض وما اشبه، وهل يختص هذا الوجوب بالأب او يشمل الأم ايضاً؟

الأقوى انحصاره بالأب وفي حال العذر والمرض، والأحوط استحباباً اطلاقه أي القضاء عن الأب في حال العمد ومن غير عذر ايضاً وكذا القضاء عن الأم.

وانكر جمع من الفقهاء القضاء عن الميت وقال بالتصدق عنه من ماله او من مال الولي، ونسب القول بالقضاء الى الشذوذ.

وقال بعض الفقهاء بعدم اثابة الإنسان بعمل غيره مستندين الى تفسيرهم لقوله تعالى ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَى ﴾[1] واستدل بها الإمام الشافعي على ان ثواب القراءة لا يلحق الأموات (وقال ابن الهمام ان مالكاً والشافعي لا يقولان بوصول العبادات البدنية المحضة كالصلاة والتلاوة بل غيرها كالصدقة

---

(1) سورة النجم ٣٩.

والحج؛ وقد ورد عن ابن عباس ان الآية منسوخة بقوله تعالى ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ ﴾ [1][2].

وقال احمد بن حنبل وجماعة من الشافعية بوصولها الى الأموات بالإهداء والهبة، و اخرج عن ابن عباس انه قال : جاءت امرأة الى النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقالت : ان اختي ماتت وعليها صوم شهرين متتابعين، قال : أرأيت لو كان على اختك دين اكنت تقضينه، قالت : نعم، قال : فحق الله احق" [3]، ومثله ورد في باب الحج[4].

ان مسألة القضاء عن الميت فيما فاته من العبادات في حياته ذات اهمية خاصة في حياة المسلمين ومنازلهم في الدار الآخرة فان جوازها باب للبر بالآباء ومساهمة في تخفيف كواهلهم وسعي لتخليصهم من اوزار التقصير وآلامه وسعي مبارك في خلق مجتمع بار محافظ على الأخلاق، ومؤمن بيوم الحساب ومجتنب للعقوق ومبتعد عن الجفاء، وفيه عون على اداء الواجبات واتقان العبادات كل بتكليفه.

فان الولد الصالح في الواقع وقانون العلة والمعلول من سعي الإنسان في الدنيا، وفي الحديث المشهور عن النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم : "اذا مات المؤمن انقطع عمله الا من ثلاث : صدقة جارية، او علم ينتفع به، او ولد صالح يدعو له".

والصلاة من ارقى موارد الدعاء كما انه من باب المثال والفرد الأقرب، والصيام عبادة.

---

(١) سورة الطور ٢١.

(٢) الآلوسي/ روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني ٢٦٥/٨.

(٣) سنن الترمذي ٩٦/٣.

(٤) انظر سنن النسائي ١١٦/٥.

لقد ورد في الكتاب والسنة ما يفيد تحقق النفع بعمل الغير وفي الجمع بين قوله تعالى ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴾ وقوله تعالى ﴿ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ... ﴾ قيل بانه ليس للإنسان في العدل الا سعيه وله بفضله تعالى ما شاء سبحانه، وفي الآية ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴾ قال عكرمة : كان هذا الحكم في قوم ابراهيم وموسى عليهما السلام واما هذه الأمة فللإنسان منها سعي غيره، ويدل عليه حديث سعد بن عبادة هل لأمي اذا تطوعت عنها؟

قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم : نعم.

لقد امضى الشارع الهبة والهدية في الأموال والمعاملات وقضاء الدين عن الميت وفيه تبرئة لذمته وان سعي الإنسان في العبادة المهداة والمستأجرة لابد وان يكتبه الله لأحدهما او لهما معاً، أي لمن اداها ومن اهدى ثوابها اليه، وهو الواسع الكريم الذي لا يضيع اجر من عمل صالحاً.

نعم يجب ان لا تكون هذه النظرية باباً للتهاون والتسويف في اداء الفرائض والواجبات العبادية ولا بأس بالبحث عن الفوارق الكبيرة بين ثواب الأداء الشخصي للواجبات العينية وقضاء الغير بل وقضاء المكلف نفسه.

وفي الخبر ان الإمام الصادق عليه السلام قال لمن ارسله ليحج نيابة عن احد ولده قال : اعلم ان له واحدة ولك تسع.

وداع شهر رمضان

ان المكانة العظيمة لشهر رمضان والصبغة العبادية والجهادية لأيامه وما فيه من تنقية القلوب وتخليص النفوس من الكدورات الظلمانية وابتعاد الشيطان وانزوائه قهراً في ايامه ولياليه، يجعل

الأمة تتحسس الم فراق نعمة هذا الشهر في الوقت نفسه الذي تدرك ما يدرك من عظيم الأجر والثواب، والمنافع المتعددة في صيامه وتتطلع الى عودته في قابل بحلة وهبات جديدة.

وما في هذا الشهر الكريم من الإفاضات والكرامات تجعله يستحق كنعمة مهداة الإكرام الذي يتجلى في بعض وجوهه بحسن وداعه.

ويعتبر وداع شهر رمضان نفسه عنواناً للشكر واقراراً وتسليماً بالنعمة واعلاناً عن تلمس ما ينفرد به من البركات الظاهرة والباطنة والعامة والخاصة.

ومما لا شك فيه ان شهر رمضان مملوء بالبركة ويعتبر مناسبة لنزول الرحمة ولإكتساب الصالحات ووسيلة لعظيم الثواب والمغفرة، وقد يسأل بعضهم كيف يودع شهر رمضان وليس هو ممن يمكن مخاطبته من صنف ذوي العقول واهل السمع، والجواب : ان مخاطبة الموجودات كالمساكن والرياض وكذلك ايام الشباب تأتي بلسان الحال ولغة المقال مما امضاه الناس وتعارفوا عليه، كما في قول الشاعر:

يا ليت الشباب يعود يوماً فاخبره بما فعل المشيب

وصحبة شهر رمضان نافعة للمسلم وهو احسن قرين وفيه فضل على الذات والغير، وذكرت اوقات مناسبة من آخر شهر رمضان لوداعه، قال بعضهم ان ساعة الدعاء لوداع شهر رمضان آخر ليلة من الشهر ومن الأفضل ان يكون في سحرها.

وقد روي عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم انه أمر بوداع شهر رمضان آخر جمعة منه بالإسناد عن جابر بن عبد الله الأنصاري قال : "دخلت على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في آخر جمعة من شهر رمضان فلما بصر بي قال لي يا جابر هذا آخر جمعة من شهر رمضان فودعه وقل اللهم لا تجعله آخر العهد

من صيامنا اياه فان جعلته فاجعلني مرحوماً ولا تجعلني محروماً فانه من قال ذلك ظفر باحدى الحسنيين اما ببلوغ شهر رمضان من قابل او بغفران الله ورحمته[1].

وفي الصحيفة السجادية دعاء خاص بوداع شهر رمضان يبدأ بالقول (اللهم يا من لا يرغب في الجزاء..ولا يندم على العطاء..) وهو زاخر بالموعظة والتضرع بلسان الشكر واظهار حب النفس لشهر رمضان وشوقها لعودته في قابل ومما ورد فيه : فنحن مودعوه وداع من عز فراقه علينا. وغمنا. واوحشنا انصرافه عنا. ولزمنا له الذمام المحفوظ والحرمة المرعية، والحق المقضى، فنحن قائلون السلام عليك يا شهر الله الأكبر ويا عيد اوليائه.

السلام عليك يا اكرم مصحوب من الأوقات ويا خير شهر في الأيام والساعات، السلام عليك من شهر قربت فيه الآمال ونشرت فيه من الأعمال.

السلام عليك من قرين جل قدره موجوداً، وافجع فقده مفقودا، ومرجوا الم فراقه.

◆◆◆◆◆◆◆◆◆◆◆◆◆

(١) الوسائل١٧٥/٢ طبعة حجرية

قوله تعالى ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ **الآية ١٨٨.**

الإعراب واللغة

ولا تـأكلوا : الـواو اسـتئنافية، لا : ناهيـة، تـأكلوا : فعـل مضـارع مجـزوم وعلامـة جزمـه حـذف النـون، والـواو : فاعـل، أمـوالكم : أمـوال : مفعـول بـه منصـوب بالفتحـة، وهـو مضـاف والكـاف مضـاف إليه،

بيـنكم : ظـرف متعلـق بحـذف حـال مـن أمـوالكم أي مـا بيـنكم، بالباطـل : جـار ومجـرور متعلقـان بتـأكلوا، وتـدلوا : الـواو، : حـرف عطف، ويمكن أن تكون حرف إستئناف.

تـدلوا : فعـل مضـارع معطـوف علـى تـأكلوا منصـوب بـأن مضـمرة بعد حرف العطف.

بهـا: جـار ومجـرور، متعلقـان بتـدلوا، إلى الحكـام : جـار ومجـرور كتعلقـان بمحـذوف حـال، لتـأكلوا : الـلام للتعليـل، تـأكلوا : فعـل مضـارع منصـوب بـأن مضـمرة بهـد لام التعليـل وعلامـة نصـبه حـذف النون لأنه من الأفعال الخمسة.

فريقـاً : مفعـول بـه منصـوب بالفتحـة، مـن أمـوال : جـار ومجـرور متعلقان بمحذوف صفة، وأموال : مضاف الناس : مضاف إليه،

بالإثم: جار ومجرور متعلقان بمحذوف حال.

وانـتم : الـواو حاليـة، انـتم : مبتـدأ، تعلمـون : جملـة فعليـة مـن فعل وفاعل في محل خبر، والجملة حالية.

والأمـوال : جمـع مـال وهـو مـا ملكتـه مـن النقـد والأعيـان، (وقـال

ابن الأثير، المال في الأصل ما يُملك من الذهب والفضة ثم أُطلِق على كل ما يُقْتَنَى ويملَك من الأعيان)[١].

ولكن العرب تطلق المال على الإبل لأنهم يعدونها ثروة ذات نماء، (وفي الحديث عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم : فليأكل منه غير متمول مالاً وغير متأثل مالاً)[٢] وفي قوله تعالى﴿مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ﴾[٣]،

قال الزهري : البأساء في الأموال وهو الفقر، والضراء في الأنفس وهو القتل.

ويقال : بطل الشيء يبطل بطلاناً وبطلاً ، فهو باطل أي ذهب وزال واصبح لا نفع فيه، والباطل ضد الحق ويجمع على أباطيل على غير قياس وهو مذهب سيبويه، وعن التهذيب : انه يجمع بواطل، والظاهر ان الجمع بلحاظ معنى الباطل فقد يراد منه:

الأول : إبليس وجنوده .

الثاني : الكسب الحرام.

الثالث : كسب الشعر بالمدح والذم في غير مرضاة الله، وقال لبيد :

ألاَ كُل شيءٍ ما خلا الله باطلُ
وكُل نَعيم لا محالةَ زائلُ[٤].

الرابع : الشرك.

وهو في الإصطلاح ما علم فساده ولا اعتبار لوجوده ولا يعتد

(١)لسان العرب ٦٣٥/١١.

(٢)أنظر صحيح ابن حبان ٣٢٧/٢٠.

(٣)سورة البقرة ٢١٤.

(٤)العقد الفريد ٣٠٧/٢.

به، ويقابله الحق وهو الحكم المطابق للواقع سواء كان في العقائد او المذاهب او الأقوال والأفعال، والباطل اعم من الكذب والفحش والمعصية، نعم ليس للباطل حسن في الشرع او عند العقل.

أدلى اليه بماله : دفعه اليه مأخوذة من أدلى الدلو.

أي أرسلها ليملأها ومنه أيضا أدلى بحجته أي أرسلها واتى بها وأقامها، (الفَرِيقُ من الناس وغيرهم فِرْقة منه والفَرِيقُ المُفارِقُ)[1]، ويطلق على الجماعة من الناس ويكون اكثر من الفرقة ويطلق على غير الناس أيضا.

في سياق الآيات

بعد ان جاءت الآيات السابقة بأحكام فريضة الصيام جاءت هذه الآية لتتضمن ما يتمم فريضة الصيام ويجعله من صوم خواص الخواص ولبيان التكامل في احكام الشريعة، وتقدم وسبق آيات الصيام لأنه عون على ضبط النفس وتخليها عن الطمع غير المشروع والسعي بغير الحق والإستحقاق.

صلة الآية بالآيات السابقة، وفيها وجوه:

الأول : صلة هذه الآية بقوله تعالى ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾[2]، وفيها مسائل:

الأولى : جاءت آية البحث خطاباً للمسلمين، أما آية السياق فأنها خطاب للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم لبيان عظيم منزلة النبي محمد والمسلمين عند الله.

الثانية : لقد أراد الله عز وجل للمسلمين قبول دعائهم فجاءت آية البحث ليتنزهوا عن أكل الباطل والمال الحرام، الذي قد يحجب

---

(١)لسان العرب ٢٩٩/١٠.

(٢)الآية ١٨٦.

الدعاء.

الثالثة : التوجه إلى الله عز وجل بالدعاء إقرار بالعبودية له سبحانه، وأن مقاليد الأمور بيده سبحانه، مما يبعث الخشية في النفس منها تعالى ويجعل المسلم حريصاً على طاعته وإجتناب معصيته، فجاءت آية البحث بالزجر عن أكل المال بالباطل.

الرابعة : يدرك المسلم حاجته إلى الدعاء في حال الرخاء والشدة وهذا الإدراك تنمية لملكة الإحتراز من أكل المال الحرام فحتى إذا حكم له القاضي بالحكم الظاهري وبالبينة والشهود بحكم يقتطع به من مال أخيه المسلم فأنه يتعفف عنه ويتجنب أكله لأن هذا الأكل برزخ دون الدعاء وإستجابته.

ليكون من إعجاز آية السياق البعث على التنزه عن أكل المال بالحرام، وأخرج أحمد عن أبي حميد الساعدي : أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال : لا يحل لامرىء أن يأخذ مال أخيه بغير حقه، وذلك لما حرم الله مال المسلم على المسلم)[1].

الخامسة : لما أخبرت آية السياق بأن الله عز وجل قريب يجيب دعوة الداع، فأنها تدل بالدلالة التضمنية على علمه بأكل المال بالباطل، وأضراره على الذات والغير، فجاءت آية البحث رحمة بالمسلمين، ودعوة لهم للصلاح، ونشر مفاهيم الإصلاح بين الناس.

السادسة : أمرت آية السياق العباد بالإستجابة لأمر الله، وفاز المسلمون بها بالتنزه عن أكل المال الحرام، لأن الإستجابة أعم من الإمتثال للأوامر، فتشمل الإمتناع عن النواهي.

السابعة : أختتمت آية السياق بقوله تعالى(لعلهم يرشدون) وإبتدأت آية البحث بأداة النهي(لا) للمنع من أكل المال الحرام،

(١)الدر المنثور ٤٠٦/١.

والإمتناع عنه من الرشد وأسباب الهداية، فإجتناب أكل المال بالباطل وسلب الناس حقوقهم رشد وصلاح بذاته، وهو مقدمة للرشد ورجاء عملي لقبول الدعاء.

الثانية : الصلة بين هذه الآية وقوله تعالى﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ﴾[1]، وفيها مسائل:

الأولى : لقد جعل الله لشهر رمضان قدسية خاصة وهي على قسمين:

الأول : نهارية بصيام أيام شهر رمضان والإمتناع فيها عن المفطرات.

الثاني : ليلية بإحياء ليالي شهر رمضان بالدعاء وقراءة القرآن، مع التنعم بالرخص التي وردت في الآية السابقة﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ﴾[2].

وتلك الرخص نعمة ولها لذة خاصة وهي باب للشكر لله على التوفيق لأداء فريضة الصوم، والتنعم بالرخص في ليالي رمضان وجاءت آية البحث للتنزه عن أكل المال الحرام في جميع أيام السنة، وخاصة في شهر رمضان، كما أن تعاهد فريضة الصيام وقدسية شهر رمضان ولياليه تنمية لملكة الوقاية من أكل المال بالباطل.

الثانية : ذكرت آية السياق أن نزول القرآن هدى للناس ومن مصاديق الهداية آية البحث لما فيها من الزجر عن الحرام والتعدي على أموال الغير فإن قلت جاءت الآية للمسلمين خاصة بدليل صيغة الخطاب، والتقييد بظرف المكان(بينكم).

الجواب من وجوه:

---

(١)الآية ١٨٥.

(٢)الآية ١٨٧.

الأول : الأصل هو توجه الدعوة إلى الإسلام للناس جميعاً.

الثاني : أكل المال الحرام قبيح ذاتاً وأثراً على النفس والغير، لذا جاءت الآية بوصف الأكل للإشارة إلى الضرر المترتب على أخذ أموال الاس قهراً وغيلة.

الثالث : لقد جعل الله عز وجل العقل عند الإنسان رسولاً باطنياً يحذره من التعدي على مال الآخرين، وآفات الحسد، والنفس الغضبية والشهوية.

الرابع : جاء في القرآن في ذم قوم ﴿وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ﴾(١).

الثالثة : من مصاديق الهدى في القرآن الفصل والتمييز بين الحق والباطل، والحلال والحرام.

لذا فمن أسماء القرآن الفرقان قال تعالى﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ﴾(٢)، لتفريق القرآن بين الحق والباطل، وبين المؤمن والكافر، وبين يوم الصيام ويوم الإفطار وحصر الصيام بشهر رمضان، وهو المفرق بين أهل الجنة والنار بأعمالهم في الدنيا فجاءت آية البحث لتقود المسلمين إلى الجنة بالتنزه عن أكل المال بالباطل.

الرابعة : ذكرت آية السياق أن الله عز وجل يريد اليسر بالمسلمين، ولا يريد العسر والتشديد على النفس وباليسر والتخفيف جاءت السنة النبوية قال صلى الله عليه وآله وسلم: يسروا ولا تعسروا)(٣).

ويشمل اليسر الأمر والنهي، فمن موارده في باب النهي

---

(١)سورة النساء ١٦١.

(٢)سورة الفرقان ١.

(٣)الكشاف ٢/٢٣٧.

الإمتناع عن أكل الباطل، والإدلاء بالأموال إلى الحكام.

الخامسة : ورد في آية السياق : ﴿وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ﴾ ومن أفراد الهداية السلامة من أكل المال بالباطل، والتعفف عن حقوق الآخرين، وترك الربا والمعاملات الباطلة.

السادسة : أختتمت آية السياق بقوله تعالى(ولعلكم تشكرون) ومن الشكر لله عز وجل على نعمة التوفيق لأداء فريضة الصيام التنزه عن الإستحواذ على أموال الآخرين، وضمها للمال الخاص.

السابعة : أداء الصوم باب للرزق الحلال الذي يكون كماً وكيفاً أكثر من المال الحرام الذي يأتي بالباطل.

الثامنة : في الصيام ثواب عظيم في الآخرة، ولبث دائم في الجنة بعد الدخول من باب خاص للصائمين إسمه(الريان) أما أكل المال بالباطل فهو سبب للحساب الشديد ومادة للعذاب في النار يوم القيامة.

التاسعة : لقد أراد الله عز وجل للمسلمين بالصيام وإجتناب أكل مال الغير بالباطل لتخلص من قيود وسلاسل الغريزة وحاجات البدن، والعصمة من إستحواذ شهوة البطن والفرج.

الثالث : صلة هذه الآية بقوله تعالى﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ.....﴾[1]، وفيها مسائل:

الأولى : تقدير الجمع بين الآيتين : كتب عليكم لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل.

الثانية : جاء الأمر بالوصية في آية السياق لما فيه من إبراء الذمة، ورد الأمانات، ودرأ المظالم، وإعادة الحقوق إلى أهلها، وهذه الإعادة أعم من رد الأمانات فتشمل من أخذ قهراً وغصباً، وغيلة،

---

(١)الآية ١٨٠.

ومكراً وسرقة.

الثالثة : بيان موضوعية التنزه عن الباطل عند دنو الأجل، وظهور أماراته وعلاماته، فيستحضر المسلم آية البحث، وهي وإن جاءت بصيغة المضارع(ولا تأكلوا) إلا أنها تبقى حاضرة في الوجود الذهني إلى حين الأجل، فيتذكر المسلم كيفية كسبه، وجمعه للمال وتحصيله له وأن كان قد أنفقه، لأن الوصية نوع تدارك.

الرابعة : سمت آية السياق التركة خيراً بقوله تعالى(أن ترك خيراً) وصحيح أن الخير في المقام هو المال إلا أن معاني اللفظ أعم ليفيد الجمع بين الآيتين الزجر عن المعصية بالمال الحرام، أو جعل الترك كلاً أو جزء من الباطل والكسب الحرام.

الخامسة : إن الله هو مقيل العثرة، وهو الذي يهيء أسباب التوبة والإنابة، وجاءت آية السياق مناسبة للتوبة والتوصية بحقوق وأموال الناس.

السادسة : صحيح أن آية السياق جاءت بخصوص الوصية إلا أن موضوعها أعم، إذ أنها تذكر بالموت، وتدعو للإستعداد له بالوصية والعمل الصالح.

ومن وجوه الإبتلاء في الدنيا أنه الإنسان لا يعلم أوان أجله، وليس ومن شرط لحضور الموت، ولا برزخ يحجب الإنسان دونه، ليكون موضوع آية السياق زاجراً عن أكل المال بالباطل.

فجاءت آية البحث بصيغة المضارع ليصاحب النهي عن أكل الباطل تذكر الموت، وما يترشح عنه إنطباقاً وقهراً الإستعداد لما بعده، فيجتنب المسلم أكل المال بالباطل وهو من عمومات التقوى التي يرتقي إليها المسلمون لتلاوة القرآن، وورد في الآية السابقة ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾(١).

(١)الآية ١٨٧.

الشعبة الثانية : صلة هذه الآية بالآيات التالية، وفيها وجوه:

الأول : صلة هذه الآية بقوله تعالى ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ﴾(١)، وفيها مسائل:

الأولى : جاءت آية البحث خطاباً للمسلمين ونهياً عن أكل الباطل، أما آية السياق فتضمنت الإخبار عن سؤال المسلمين واليهود للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم عن الهلال ودورته وخروجه كل شهر ضعيفاً ثم يأخذ بالإزدياد إلى أن يتم بدراً منتصف الشهر القمري فيبتلى بالنقصان إلى حين المحاق في آخر الشهر.

الثانية : السؤال عن الأهلة وبيان الحكمة الإلهية في خلقها، ودلالتها على بديع صنع الله عز وجل وعظيم قدرته تنمية لملكة التقوى عند المسلمين، والإحتراز من أكل المال بالباطل، لإدراك حقيقة وهي الرجوع إلى الله عز وجل والوقوف بين يديه للحساب.

الثالثة : لقد أمر الله عز وجل النبي محمداً صلى الله عليه وآله وسلم أن يجيب الذين سألوه عن الأهلة بصفتين لها وهما:

الأولى : الأهلة مواقيت للناس في ديونهم ومعاملاتهم ومنه معرفة الأشهر الحرام التي ليس فيها قتال، قال تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَلاَ الشَّهْرَ الْحَرَامَ﴾(٢).

الثانية : إنها ميقات للحج، إذ يعرض أوان الوقف على عرفة، والمبيت في مزدلفة ويوم الحج الأكبر وهو العاشر من ذي الحجة، قال تعالى ﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ﴾(٣)، وبين أشهر الحرم وأشهر الحجة

---

(١)الآية ١٨٩.

(٢)سورة المائدة ٢.

(٣)سورة البقرة ١٩٧.

عموم وخصوص من وجه، فمادة الإلتقاء هي شهراً ذو القعدة وذو الحجة.

ومادة الإفتراق من وجهين:

الأول : شهر شوال من أشهر الحج وليس من الأشهر الحرم، وشهر محرم ورجب من الأشهر الحرم وليس من أشهر الحج.

الثاني : أشهر الحج ثلاثة، والأشهر الحرمة أربعة.

الثالث : أشهر الحج سرد، والأشهر الحرام ثلاثة سرد هي ذو القعدة وذو الحجة والمحرم، وشهر منفرد هو شهر رجب الأصم.

الثالثة : جاءت آية السياق بتأكيد مصداق البر والصلاح وهو التقوى والخشية من الله عز وجل، ومن أفراد التقوى التنزه عن أكل المال بالباطل، والإمتناع عن دفعها إلى الحكام رشوة وتزلفاً.

وسئل الإمام (الصادق عليه السلام عن تفسير التقوى فقال: أن لا يفقدك الله حيث أمرك ولا يراك حيث نهاك[1].

الرابعة : أختتمت آية السياق وأسباب إرتقاء المسلمين في مراتب الفلاح، بقوله تعالى(لعلكم تفلحون) ومن وجوه الفلاح التفقه في الدين، ومعرفة أحكام الحلال والحرام، وإجتناب أكل مال الغير، وما فيه من الظلم للنفس والغير وعن قتادة في آية البحث قال : لا تدل بمال أخيك إلى الحكام وأنت تعلم أنك ظالم، فإن قضاءه لا يحل لك شيئاً كان حراماً عليك)[2].

الثاني : صلة هذه الآية بقوله تعالى﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُوا.......﴾[3]، وفيها مسائل:

---

(١) البحار ٢٨٥/٦٧ .

(٢)الدر المنثور ٤٠٦/١.

(٣)الآية ١٩٠.

الأولى : إبتدأت آية البحث بصيغة النهي والزجر(لا تأكلوا) بينما إبتدأت آية السياق بالأمر بالقتال في سبيل الله، وهو من مصاديق تسمية القرآن بالفرقان﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ﴾[(١)]، لأنه يفرق بين الحلال والحرام.

ويتضمن الأمر بالحلال والواجب، والنهي عن الحرام والباطل، مما يدل على أن تسمية القرآن بالفرقان أعم من أن تنحصر بالتمييز بينهما بل بالبعث لفعل الصالحات، والنهي عن السيئات.

الثانية : تضمنت آية السياق النهي عن التعدي على الغير مطلقاً سواء كان مسلماً أو غير مسلم، وفي الحديث عن النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم : الناس مسلطون على أموالهم)[(٢)].

والألف واللام في لفظ(الناس) الوارد في الحديث أعلاه يفيد الجنس الإستغراقي الشامل للمسلمين وغير المسلمين، فلا يصح التعدي على أموالهم بغير حق وهو من عمومات قوله تعالى﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾[(٣)]، لذا جاءت آية البحث بالزجر عن أكل المالَ بالباطل.

الثالثة : في قوله تعالى(لا تعتدوا) بصيغة النهي والجملة الإنشائية، وفي خاتمة آية السياق﴿إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ مدرسة للمسلمين لمعرفة موارد الحلالَ والحرام والحيطة والإحتراز من الحرام وأكل المال بالباطل.

لذا أختتمت آية البحث بقوله تعالى(وأنتم تعلمون) لما فيه من

(١)سورة الفرقان ١.

(٢)البحار ٢٧٢/٢.

(٣) سورة الأنبياء ١٠٧.

دلالة على بلوغ المسلمين بفضل الله مرتبة العلم بالحلال والحرام.

الثالث : صلة هذه الآية بقوله تعالى ﴿وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ﴾(1)، وفيها مسائل:

الأولى : تضمنت آية البحث النهي عن أكل المسلم لمال أخيه المسلم، ليكون الإنزجار عن هذا الأكل المحرم مقدمة للتعاضد والتعاون في قتال الكفار، إذ يولد النهب والتعدي والظلم الغضاضة وأسباب النفرة والخصومة وقد تكون برزخاً دون المناجاة لقتال الأعداء.

الثانية : ورد في آية السياق ﴿الْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنْ الْقَتْلِ﴾ ومن الفتنة أكل مال الغير بالباطل(وأصل الباطل الشيء الذاهب)(2).

ويفيد الجمع بين الآيتين أن أكل المال الحرام فتنة ومقدمة للفتنة، لذا جاءت آية البحث بالنهي عنه رحمة بالمسلمين، وجعلهم أمة متحدة متآخية، قال تعالى ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلاَ تَفَرَّقُوا﴾(3).

الثالثة : تضمنت آية البحث النهي بالإدلاء إلى الحكام بما هو باطل، والمخاصمة المغالطة في الحق مع العلم به، وجاءت آية السياقب بالأمر للمسلمين لقتال الكفار وتنزيه الأرض من الكفر والضلالة، مما يستلزم إصلاح النفوس ومجتمعات المسلمين من الباطل.

الرابعة : يرجو الذي يقاتل في سبيل الله فضل الله والثواب العظيم، فجاءت آية البحث لكي يتعاهد المسلمون هذا الثواب،

---

(1) سورة البقرة ١٩١.

(2)تفسير البغوي ٢١٠/١.

(3)سورة .

ويمتنعون عن خلط العمل الصالح بعنده.

إعجاز الآية

لغة الوعيد والتخويف من التعدي على أموال الآخرين والتصرف بغير الحق ومن غير نفع كما تدل على اعتبار العلم والمعرفة بالفعل، وفي الآية تنظيم وتوجيه وضبط للحياة الإجتماعية والإقتصادية والأخلاقية، وذيل الآية حجة وتنبيه وتوكيد.

إبتدأت الآية بأمرين:

الأول : حرف العطف(الواو) لبيان عطف موضوع الآية على الصيام، وهو من إعجاز نظم الآيات، وتأكيد للصلة بين الآيات المتجاورات وإن كان بينهما إختلاف في الموضوع والصيغة والحكم، فيعد الرخصة وإباحة وطئ النساء، والأكل والشرب في ليلة الصيام وجاءت هذه الآية بالنهي عن أكل المال بالباطل.

ومن أسرار العطف بينهما أمور:

الأول : الصيام إرتقاء في سلم الصلاح، ومرتبة في التقوى وصفاء النفس، ليتلقى المسلم الذي يؤدي فريضة الصيام النهي أكل الحرام بالقبول والرضا، وهل يخص هذا التلقي أوان الصوم أم أنه أعم.

الجواب هو الثاني، لأن منافع الصلاح، ومصاديق التقوى التي تترتب عليه تصاحب المسلم طيلة أيام السنة وإلى رمضان القادم لما في الصيام من العناء وتحمل الجوع والبطش في سبيل الله إلى جانب تلاوة المسلمين لآيات الصيام على مدار السنة وقضاء الصيام بالنسبة للمريض والمسافر.

والصيام الواجب بالعرض كالنذر والكفارة، والصيام المستحب بالإضافة إلى أسباب الصلاح وصوم الجوارح الذي يصاحب الإمساك عن المفطرات، (وأخرج ابن أبي شيبة عن أنس

قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : ما صام من ظل يأكل لحوم الناس)[(١)]، وفيه نهي عن الغيبة أيام شهر رمضان فقد وصف القرآن بأنها أكل للحم الغير، قال تعالى ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾[(٢)].

الثاني : في الصيام إستغناء عن الدنيا، وعصمة عن أكل الطيبات نهار رمضان، ليصبح فيه الغني وكأنه فقير في أكله وشربه، فيدرك حقيقة أن الإستحواذ على مال الغير.

الثالث : المسلم الذي يؤدي الواجبات والفرائض تنمو عنده ملكته الإمتناع عن المعاصي.

الرابع : جاءت الآية السابقة بالنهي عن المعاصي والسيئات وحذرت من التعدي على الحرمات بقوله تعالى ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا﴾[(٣)].

وجاءت آية البحث لتأكد تعدد الحرمات والنواهي والموارد التي يجب أن يجتنبها المسلمون، ومنها أكل المال الحرام.

الخامس : أختتمت الآية السابقة بأمرين وتتصل آية البحث بكل فرد منهما:

الأول : تفضل الله عز وجل ببيان الآيات للناس جميعاً، ومنها آية البحث وما فيها من نهي المسلمين عن أكل المال الحرام، ليكون هذا النهي تشريفاً للمسلمين، وشاهداً بأنهم ﴿خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ

(١)الدر المنثور ٤٠٢/١.

(٢)سورة الحجرات ١٢.

(٣)سورة البقرة ١٨٧.

﴿لِلنَّاسِ﴾[١]، بالتنزه عن الكسب الحرام، وصيرورتهم أسوة حسنة للناس.

الثاني : صيغة الرجاء(لعلكم تتقون)، والتقوى هي الخشية من الله ومنها ترك الإستيلاء على مال الغير بالقوة والغلبة أو غيلة ومكراً.

ومن إعجاز الآية الإخبار عن إحتمال حكم القاضي بخلاف الواقع من غير عمد أو تقصير منه في وظائف القضاء، ولكن بعض أطراف الدعوى يعتمد الحيلة مع إنعدام الدليل الإجتهادي الذي يجعل حجة الحكم ثابتة بالذات، فجاء التحذير في الآية لأطراف الدعوة، من أجل الإعانة على تهيئة مقدمات الحكم بالحق التأكد، (عن أم سلمة زوج النبي صلى الله عليه وآله وسلم أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال : إنما أنا بشر، وإنكم تختصمون إليّ، ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض، فأقضي له على نحو ما أسمع منه، فمن قضيت له بشيء من حق أخيه فلا يأخذنه، فإنما أقطع له قطعة من النار)[٢]، وألحن أي أغوص(والمراد أن بعضكم يكون أَعرفَ بالحجة وأَفْطَنَ لها من غيره)[٣]، ويقال ألحن في كلامه أي خطأ، ليكون اللحن من الأضداد(قال ابن ا لإعرابي : اللْحَن- بالسكون- الفطنة والخطأ سواء)[٤].

ومن إعجاز الآية أن أكل المال بالباطل طريق ووسيلة سوء لأكل المال بالإثم والحرام، فبعد حكم الحاكم يثبت المال بالباطل في حوزة غاصبة ، فجاءت الآية لتبين بأن حكم الحاكم بالحكم

(١)سورة آل عمران ١١٠.

(٢)الدر المنثور ٤٠٦/١.

(٣)لساب العرب ٣٧٩/١٣.

(٤)تاج العروس ٨١٦٣/١.

الظاهري ودليله الفقاهتي وغياب البينة في قول النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم البينة على من إدعى واليمين على من أنكر)(١).

فتبين الآية أن حكم الحاكم لا يحل حراماً، ولا يجعل الباطل حقاً، سواء كان عن رشوة أو بالحكم الظاهري، الذي يفيد إصابة القاضي في عمله ولكنه لا يغير من الحقيقة.

وتدل على المعنى أسباب نزول الآية، ولكن مضامين الآية لا تختص بها، لأن المدار على عموم الحكم وليس سبب النزول، فإذا كان لفظ(تدلوا بها إلى الحكام) بشمل إرادة رشوة الحكام فتشمله، وهو الظاهر لإفادة معنى وهو أن المال بالباطل يضيع شطر منه في المرافعة الدعوى ويبقى شطر ليس في بركة، ليبقى الحساب والعقاب عليه في الآخرة.

ويمكن تسمية هذه الآية آية(لا تأكلوا) وورد لفظ(تأكلوا) عشر مراتب في القرآن ورد مرتين في هذه الآية وفي قوله تعالى﴿وَلاَ عَلَى أَنفُسِكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ.......﴾(٢).

ولم يرد لفظ (الحاكم) أو(الحكام) في القرآن إلا في هذه الآية وبصيغة الجمع.

الآية سلاح

تساهم الآية في تحصين الأموال وتهذيب النفوس والردع عن إيذاء الآخرين والإضرار بهم وتساعد على إيجاد أسباب السعادة والرفاه في المجتمع الإسلامي وعند عامة الناس وهي مدرسة أخلاقية في منع الخصومة وأسباب الفتنة وفيها تهيئة وتوطئة للإقبال على العبادات.

---

(١)مجمع البيان ٣٠٩/٨.

(٢)سورة النور ٦١.

لقد تفضل الله عز وجل وجعل المسلمين ﴿خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾[١]، ليكونوا أئمة الهدى بين الناس، والدعاة إلى الإيمان، ومن ومن مصاديقه تنزههم عن أكل مال بعضهم بعضاً بغير حق، وعن النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم قال: لا يحل مال إمرىء مسلم إلا بطيبة نفس منه)[٢].

لتكون هذه الآية أمن وسلامة للمسلمين في أنفسهم وأموالهم، إذ أن الإستحواذ على مال الغير من دون حق يعز به وبالذي يستحوذ عليه، أما إضراره به فلأنه معصية وإثم وظلم للنفس قال تعالى ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾[٣]، وإما إضراره بالغير فلأنه خسارة له، ونقد لماله، وهو سبب للسر والأسى في نفسه فإن قلت جاءت الآية بخصوص الأول أعلاه الذي يستحوذ على مال غيره، ولم تذكر الثاني، الجواب من وجوه:

الأول: الخطاب في الآية إنلالي ينبسط على كل المسلمين والمسلمات، فإذا كان كل واحد منهم يتنزه عن الظلم والإستيلاء على مال أخيه المسلم فلا يحدث ظلم للذات والغير.

الثاني: جاءت الآية بخصوص الفاعل الذي يستوي على مال غيره، وليس الذي لا يستطيع الدفع عن ماله.

الثالث: هذه الآية من آيات الإنذار.

(وقال القرطبي: أجمع أهل السنة إلا بما دونه)، ويرد هذا القول من وجوه:

الأول: لا دليل على إجماع أهل السنة على هذا التفسيق،

---

(١)سورة آل عمران ١١٠.

(٢)مجمع البيان ٧/٢٤٥.

(٣)سورة النحل ١١٩.

وكثير من العلماء أو أكثرهم لم يتعرض لهذه المسألة، لأنه لا أصل لها.

الثاني : لا دليل من كتاب أو سنة على هذا التفصيل الذي ذكروه فلذا تراهم مختلفين في المقدار.

الثالث : لا ملازمة بين النهي عن الشيء والنعت بالفسوق، ولعل العقوبة فيه أشد من الرمي بالفسوق.

نعم في الآية تحذير للمسلمين والمسلمات من الغفلة والتفريط في أموالهم، وعن ابن عباس في قوله تعالى ﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا﴾ : لا تعمد إلى مالك الذي خوّلك الله تعالى وجعله لك معيشة فتعطيه امرأتك وبنيك،فيكونوا هم الذين يقومون عليك، ثم تنظر إلى ما في أيديهم، ولكن أمسك وأصلحه وكن أنت الذي تنفق عليهم في كسوتهم ورزقهم ومؤنتهم)[1]، ليكون من باب الأولوية حفظ الأموال من تعدي الغير عليها بالمكر والخديعة .

أسباب النزول

وورد عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام : كانت قريش تقامر الرجل بأهله وماله فنهاهم الله عن ذلك.

وهو من المصاديق والتطبيق لتوكيد قبح الميسر وحرمة استباحة اموال الناس بغير مبادلة وعرض مناسب شرعاً والآية اعم في موضوعها.

قال ابن حيان وابن السايب : نزلت هذه في أمرؤ القيس بن عابس الكندي وفي عبدان بن أشرح الحضرمي، وذلك إنهما إختصما إلى النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم في أرض فأراد أمرؤ

(١)الكشف والبيان/ الثعلبي ٣/٣٣٩.

القيس أن يحلف فأنزل الله {إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ} فقرأها النبيّ {صلى الله عليه وسلم} فأبى أن يحلف وحكم عبدان في أرضه ولا يخاصمه.

فقرأها النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم وكان أمرؤ القيس المطلوب وعبدان الطالب فأنزل الله عزّ وجلّ {وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ} الآية أيّ لا يأكل بعضكم مال بعض[1].

مفهوم الآية

ما في الآية من الزجر اصلاح للنفوس والأمة ووجه من وجوه المدرسة الأخلاقية في الإسلام وفيه منع من الفتنة والخصومة وهو حاجب دون ظهور الكدورات واسباب النفرة في المعاملات وما يترتب عليها من الأثر والضرر النوعي العام، وورد النهي في الآية مركباً من:

الأولى : عدم أكل المال بالباطل.

الثانية : دفعها الى الحكام.

الثالثة : اتخاذها وسيلة لأغراض ذميمة.

الرابعة : الأستحواذ على أموال الآخرين بصورة غير شرعية.

الخامسة : ولا يعني انحصار النهي بالتداخل والملازمة بين هذه الوجوه الأربعة بل ان كل وجه منها محرم على نحو مستقل او مجتمع مع غيره، وقدمت الآية اكل المال بالباطل لأنه اصل الوجوه الأخرى.

وقد تكون النسبة بين الوجوه اعلاه العموم والخصوص المطلق، فأكل اموال الناس اعم من اكل الأموال بين المسلمين ولفظ الناس

(١)الكشف والبيان ١/٣٥٥.

يـدخل فيـه المسـلم والكتـابي والـوثني، امـا قولـه تعـالى ﴿ امـوالكم ﴾ فهو خاص بالمسلمين.

والظـاهران النسـبة بـين الإثـم والباطـل عمـوم وخصـوص مطلـق، فكـل باطـل هـو اثـم وليس العكس، والباطـل خـلاف الحق، امـا الإثـم فهو البغي والفساد.

وتحـذر الآيـة الحكـام مـن الرشـوة والهديـة في الحكـم وتـدعوهم الى الإكتفـاء بمـا يجـري لهـم مـن بيـت المـال او مـواردهم الخاصـة، وعلـيهم ان يعملـوا بمـا يمنـع التعـدي والظلـم في المعـاملات وأكـل المـال بالباطـل أي ان الخطــاب في الآيــة الخلالــي فهــو موجــه الى عامــة المســلمين ينهــاهم فيــه عــن اكــل امــوال المســلمين بغــير حــق، ويــدعو الحكــام والفقهـاء للحيلولـة دون حدوثـه وشـيوعه بـين النـاس، كمـا انـه موجـه الى رجــال القــانون لوضــع القــوانين والضــوابط الإحترازيــة لحفــظ اموال الناس مسلمين او غير مسلمين.

والآيــة تمنــع مــن اتخــاذ القــانون الوضــعي وســيلة للتحايــل والأســتحواذ علــى الأمــوال، واســتغلال مــا فيــه مــن الثغــرات او التســامح او صــيغة العمــوم والإجمــال للتســويف في ارجــاع الحقــوق نقـوداً كانـت او اعيانـاً كمـا يظهـر في هـذا الزمـان في قـوانين المزارعـة والإيجـار ونحوهـا، فالآيـة اخبـار عـن ان المـدار هـو مـا بينـه الشـارع المقـدس في الكتـاب والسـنة بمعنـى انـه اذا صـار تعـارض بـين الحكـم الشـرعي وحكـم القـانون وان المـال يجـوز اخـذه او التسـويف في رده وفـق القــانون، ولكنــه غــير جــائز في الشــريعة فالمــدار علــى حكــم الشريعة.

والآيـة تحـذر مـن تقـديم القـانون اذا كـان مخالفـاً لحكـم الشـريعة، امـا اذا كـان مطابقـاً فـلا ضـير فيـه، وعلـى هـذا هـل يمكـن القـول بعـودة

الضمير (ها) في وتدلوا بها الى الحجة القانونية، أي انه يأكل مال غيره بالباطل وفق الشريعة ويدلي بحجته القانونية الى الحكام الذين يحكمون وفق القانون الوضعي الجواب لا، لعدة وجوه منها اللغة والتي تفيد عودة الضمير الى الأقرب، بينما الحجة القانونية لم تذكر اصلاً وذكرناها على سبيل الإحتمال لتعدد وجوه وتأويلات الآية القرآنية ولحجية الظواهر وحمل الكلام على ظاهره بالإضافة الى عمومات الآية فمن الحكام من يحكم بما انزل الله عز وجل وان كانت الآية في مفهومها انذارا وتحذيراً من الحكم بغير ما انزل الله عز وجل كما ان الحكم بالقانون والنظام والمادة التي تخالف حكم الشريعة يدخل ضمن مصاديق الباطل.

ومن معاني التدلي انه ارسال مع تعلق كتدلي الثمرة أي ان الأدلاء بالأموال الى الحكام يقترن به امل بنيل ما هو اكثر واكبر من المقاصد والأغراض.

وخاتمة الآية دليل وحجة وبرهان واخبار عن ترتب الحكم على الوصف بالعلم وان المسلمين بلغوا درجة المعرفة والإحاطة بالأحكام الشرعية والقدرة على التمييز بين الحلال والحرام، وامكان الإمتناع عن التعدي على حقوق الآخرين وقمع للنفس الشهوية والبهيمية.

إفاضات الآية

تأتي آيات القرآن بالأوامر وفيها التكليف الذي يتضمن في ذاته التخفيف بلحاظ أنه إكرام وتشريف للمسلمين، ورجاء لبلوغهم مراتب ﴿عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾[1]، بالإمتثال لتلك الأوامر .

---

(١)سورة الصافات ٤٠.

وتأتي بالنواهي وأسباب الزجر عن السيئات لإرتقاء المسلمين في سبل الصلاح، وتعاهد مقامات ﴿خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ (١)، وتتجدد الدعوة إلى الله عز وجل من بين الناس أنفسهم، ويكون المسلمون ورثة للأنبياء ومرآة للكتب التي نزلت من السماء.

وجاءت آية البحث بصيغة النهي عن أكل مال الآخرين، وبيان قبحه وضرره.

لقد جاءت آية البحث بحفظ الملكية الشخصية والذب عنها من غير قانون وضعي، وتبين الآية قصور الحاكم والقانون عن حفظ تلك الملكية لإحتمال غياب البينة، والسور المانع من التعدي عليها.

فجاءت هذه الآية لحفظها ببعث المسلمين على التنزه عن أكل مال الآخرين، ليكون فيه حفظ لماله، ومال ذريته من بعده، وشاهد على الإعجاز الغيري للقرآن بأن الآية منه تكون لها قوة القانون الوقائي وأسباب السلامة من الظلم والتعدي.

وتبين الآية أن حكم الحاكم لشخص لا يجعل الحرام له حلالاً، وإذا كان المال الذي حكم له هو في الأصل غصب وملك للغير، فان هذا الحكم لا ينقل ملكيته، ولا يمحو عنه صبغة الغصب، ليكون عناء وأذى المسلم بسبب هذا المال الذي إستحوذ عليه أشد مما كان قبل حكم الحاكم، لأن آية البحث تلاحقه وتبين له قبح الباطل والغيلة والسرقة، وان الجدال والمغالطة عند الحاكم في حقوق الآخرين سبب لزيادة الإثم لأنه من الإصرار على الباطل، والإفساد في الأرض بالكذب على القاضي، وشهادة الزور، وإتخاذ القضاء وسيلة لتثبيت الباطل ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ﴾ (٢).

---

(١)سورة آل عمران١١٠.

(٢)سورة البقرة/ ٢٠٥.

الآية لطف

يفوح عطر اللطف الإلهي من الآية القرآنية عند تلاوتها أو سماعها أو النظر إليها في المصحف، إذ أن مضامينها القدسية تنعكس على الوجود الذهني لتستولي على مساحة منه طوعاً وقهراً، وتبحث على التأمل والتدبر فيها، وتدعو لإقتباس الدروس والمسائل منها، فهي خطاب للعقول، على التباين في مراتبها.

لقد أدّب الله عز وجل المسلمين على النفرة من الباطل، والعزوف عن مصاديقه، وجاءت هذه الآية لدفع الباطل عن حياة المسلمين اليومية، وتطهير أموالهم من الحرام، قال تعالى ﴿يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ﴾ (١)، ليتصف المسلمون بخصوصية وهي التنزه عن الشهادة الزور وإدّعاء ما ليس بحق أمام الحاكم، وقبل أن تصل الدعوى إليه، وأحياناً يكون الغاصب وآكل الحرام هو الذي يبادر بالذهاب إلى الحاكم، لإمور:

الأول: إقامة الدعوى لتثبيت ما في يده.

الثاني: الشكاية على صاحب الحق الذي يطالبه بماله.

الثالث: طلب المزيد.

الرابع: سؤال النماء المترتب على المال المغصوب.

فجاءت هذه الآية لمنع تمادي الظالم في ظلمه وتنمية ملكة العدل والإنصاف عند المسلمين.

لقد أراد الله عز وجل للمسلمين الأخوة الدائمة في مرضاة الله، قال سبحانه ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ (٢).

---

(١) سورة الرعد/ ١٧.

(٢) سورة الحجرات/١٠.

وجاءت الآية أعلاه بصيغة الإيمان، للدلالة على نفي حصول الباطل والنهب والسلب بين المسلمين، للتضاد بينها وبين الإيمان.

الصلة بين أول وآخر الآية

بدأت الآية بأداة النهي(لا) وبصيغة الجمع الإستغراقي الشامل لكل المسلمين والمسلمات، والخطاب القرآني المتوجه للمسلمين هو أكثر الخطابات في الحياة الدنيا من جهة عدد المخاطبين به.

ومن الإعجاز فيه أن عددهم آخذ بالإزدياد مع تقادم الأيام، سواء بالتكاثر والنسل أو بدخول جماعات في الإسلام، قال﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ * وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا﴾ [1].

وجاء النهي في الآية عن أكل مال الغير ليتلوه المسلمون في صلاتهم وخارج الصلاة، ويمتثلوا لأحكامه، ويسحضروا هذه الآية قبل المثول أمام الحاكم في الإدعاء والشكوى أو عند الإدعاء عليهم.

ومن بركات هذا الإستحضار الإحتراز من قول غير الحق، ومن شهادة الزور، ومن ضم مال الغير للملكية الذاتية ظلماً.

وجاءت الآية بلفظ الأكل لإرادة وجوه:

الأول : المعنى المجازي، والكناية عن تملك مال الغير بدون حق، كما في قوله تعالى﴿لاَ تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً﴾[2].

الثاني: توظيف المال الحرام بالأكل والشرب والمؤونة حقيقة.

الثالث: الإستحواذ على مال الغير، واتلافه بالنفقة.

---

(١)سورة النصر/١-٢.

(٢)أنظر الأجزاء الأربعة من هذا التفسير التي جاءت خاصة بهذه الآية المباركة.

وجاء اللفظ (لاتأكلوا) بصيغة سور السالبة الكلية وفق إصطلاح المنطق لإرادة النكرة في سياق النهي، وسلب المحمول عن جميع أفراد الموضوع، من وجوه:

الأول : نهي المسلمين والمسلمات جميعاً.

الثاني: النهي عنه أكل الباطل مطلقاً.

الثالث: الزجر عن مطلق الإستحواذ على أموال الآخرين.

وجاءت نسبة الأموال إلى المسلمين آية أخرى من وجوه:

الأول: تأكيد أن ملك الآخرين لها صحيحاً، فلا يقول أحد أني أخذها من الغير لأنها ليست ملكه.

الثاني : التذكير بالأخوة الإيمانية، وأن ملك المسلم للمال كأنه ملك لأخيه، ولأن نفعه لا ينحصر بصاحبه، بل يشمل المسلمين الآخرين، فلا يجوز التعدي عليه، وكثرة مال المسلمين من عمومات قوله تعالى ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾[1].

الثالث: دعوة المسلمين للشكر لله عز وجل على ملكية الأموال، فقد كانوا فقراء لا يملكون شيئاً، سواء قبل دخولهم الإسلام، أو عند بدايات الدعوة الإسلامية والهجرة إلى المدينة، قال تعالى ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمْ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُمْ بِنَصْرِهِ﴾[2].

ومن مصاديق الشكر في المقام السعي لكسب الطيبات بالحلال وحيازة الرزق الكريم من الله، والتنزه عن أكل ما كتب الله عز وجل للغير.

وورد لفظ (بينكم) لبيان الإتحاد والتعدد في أكل المال بالباطل سواء بالنسبة للآكل أو المأكول منه، والغاصب أو المغصوب منه

---

(١)سورة المنافقون/٨.

(٢)سورة الانفال/٢٦.

لإتحاد الموضوع والحكم، فجاءت الآية لتحذير الجماعة من آكل مال الشخص الواحد، وتحذير الشخص الواحد من أكل مال الجماعة.

وهل يدخل فيه أكل مال اليتيم بغير حق، الجواب نعم، وكذا الولي للمال الذي يتولى عليه قال تعالى ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ﴾[1].

وبعد النهي جاء ذكر الذهاب إلى القضاة والرجوع إلى المحاكم للدعوى أو للدفاع والحصول على البراءة ودفع صاحب الحق عن حقه بالجدل والرشوة والمكر، والمغالطة التي هي إحضار وهميات وأمور غير محسوسة للظن بأنها مشهورة، والغاية منها تغليط وإسكات الخصم.

وبالإسناد عن ابن عباسٍ في الآية قال : فهذا في الرجل يكون عليه مالٌ، وليس عليه فيه بيِّنة، فيجحد المال، فيخاصمهم فيه إلى الحكام وهو يعرف أنّ الحق عليه، وهو يعلم أنه آثم : آكلٌ حراما[2].

ووردت في الآية بلفظ الحكام وبصيغة الجمع، وفي أسماء الله عز وجل الحكم والحكيم وهما بمعنى الحاكم[3]، وفي الحديث : وإليك حاكمت[4]، أي سلّمت بأنه لا حكم إلا لك ياالله، وبك خاصمت، ولك رجوت.

والحكام جمع حاكم، وهو منفّذ الحكم، وبين الحاكم والقاضي عموم وخصوص مطلق، لأن معنى أعم من الفعل في الدعاوى، لذا من إعجاز الآية جاءت بلفظ الحكام.

---

(١)سورة النساء٢.

(٢)تفسير الطبري٣/٥٥٠.

(٣)لسان العرب١٢/١٤٠.

(٤)الدر المنثور٧/٢٩٩.

ولم يرد لفظ (حاكم) بصيغة المفرد في القرآن،بينما ورد بصيغة جمع التكسير مرة واحدة في هذه الآية.

وورد بصيغة الجمع (الحاكمين) خمس مرات وكلها في الثناء على الله، وإنفراده بالقدرة المطلقة وإقتران العدل والرحمة بهذه القدرة، قال تعالى﴿وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾[1].

لم يرد في القرآن لفظ(القاضي) أو القضاة، نعم ورد قوله تعالى حكاية سماوية عن السحرة بعد إيمانهم إلى فرعون﴿فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ﴾[2] ، ولكنه ليس اسم فاعل بمعنى القضاء والفعل في الخصومات، بل إرادة إمضاء الفعل، في تحد من السحرة لفرعون، وإخبار عن أمور:

الأول: إختيارهم الإيمان على نحو القطع.

الثاني: إستعدادهم لتحمل الأذى والبلاء بسببه التصديق بنبوة موسى وهارون عليهما السلام.

الخامس: الشوق إلى لقاء المحبوب، والفوز بالنعيم الآخروي.

وجاء لفظ الحكام مطلقاً ويحتمل وجوهاً:

الأول : إرادة الحكام المسلمين على نحو الحصر والتعيين.

الثاني : المراد الحكام من غير المسلمين وأن الدعوى بالباطل.

الثالث : إرادة المعنى الأعم، وبصفة الحكام سواء كانوا مسلمين أو غير مسلمين.

والصحيح هو الثالث، وهو من إعجاز الآية، فقد تكون بعض الأنظمة والقوانين تأذن وتحكم بأخذ مال الغير على نحو غير شرعي

---

(١)سورة يونس١٠٩.

(٢)سورة طه٧٢.

لإبتنائها على قواعد وأسس تختلف عن القواعد الشرعية أو شيوع الرشوة عند بعض القضاة، فجاء النهي في الآية عاماً، وهي ناظرة إلى زمان العولمة ووجود المسلمين في أمصار ودول غير إسلامية، فيكون أكل المسلم لمال أخيه المسلم ظلماً وغيلة وعدواناً مثلبة على الإسلام نفسه عند بعض من شعوب تلك الدول وفيه إثم متعدد.

وهل في الآية إنذار من الإدلاء بالباطل إلى الحكام الجواب نعم، فقد ينكشف الأمر عنده، وتستبين له أدلة وحجج خافية على آكل المال بالباطل، وقد يتخذ الحاكم الفطنة والحكمة لإستظهار الحق، وفيه شواهد كثيرة في القضاء الإسلامي، وعن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : (اقضاكم علي) [1].

ومن نوادر القضاء ولي بعض العرب السعاية[2]، على أحياء من العرب والنظر في أمورهم فما جرى له مسائل:

الأولى: فاختصم إليه اثنان في غنم كل واحد منهما يدعيها، وليس هناك من يشهد لواحد منهما، فأمرهما أن يجعلا الغنم في موضع وكان فيها كلب لصاحب الغنم وأن يبيتا بالقرب منها، فلما كان الليل أتاهما فقال لأحدهما : قم فأتني برأس من الغنم.

فمضى لذلك فنبحه الكلب فعاد، فقال له : اثبت مكانك، ودعا الآخر وقال : اذهب فجئني برأس منها، فجاءه به ولم ينبحه الكلب، فحكم له بالغنم.

الثانية : اختصم إليه اثنان زعم أحدهما أن الآخر عبد له، والآخر ينكر. فقال لمدعي العبد : ما اسم العبد؟ قال : ميمون، وقال للآخر سراً : ما اسمك : قال : عبد الله[3]، فأجلسهما، ولها عنهما

(١)الخطابي/ غريب الحديث٢/٢٠١.

(٢)السعاية : هي العمل على الصدقات.

(٣)أي أن العبد إدعى أن اسمه(عبدالله) لبيان كذب دعوى المدعي، واختار

ساعة واشتغل بغيرهما، ثم قال : يا ميمون، فقال : لبيك، قال : اذهب مع مولاك.

الثالثة : اختصم إليه شيخ وشاب في امرأة معها صبي كل يدعي أنها زوجته، وأن الصبي ابنه منها، وليس مع واحد منهما بينة، والمرأة تعترف للشاب.

ففرق بينهم وأجلس الصبي بين يديه، وأخرج تمراً فأطعمه منه، ثم أعطاه منه.

وقال : اذهب به إلى أمك. فذهب إليها فأعطاها التمر وعاد إليه ليتأكد أنه صبي مميز، يفهم الكلام ويفرق بين الأشخاص، ويعرف صلته معهم.

فأعطاه تمراً وقال : اذهب بهذا إلى أبيك، فذهب فأعطاه الشيخ، وعاد فأعطاه منه وقال : اذهب به إلى أبيك فأعطاه الشيخ أيضاً. فحكم بالمرأة والولد للشيخ.

وتهدد الشاب حتى أقر بالقصة على حقيقتها[1]،ليقطع بالحكم لوجود شائبة ظنية وهي تقوم الحكم بفعل الصبي.

وعلى القول بأن (الواو) في (وتدعوا) حرف إستئناف يكون المعنى أن الأموال التي يتم الإستحواذ عليها بالباطل تتخذ وسيلة لرشوة الحكام ولإقامة الدعوى للإحتيال وأكل أموال أخرى من الناس بالظلم والتعدي.

وكأن الذي يأخذ الأموال بالباطل يعتاد على هذا الفعل ويتخذه كالصنعة، فجاءت الآية لإحتراز المسلمين من فعل أكل المال بالباطل ومن جعله مادة ووسيلة للنهب والسلب.

اسم(عبدالله) إحترازاً من الكذب فكل إنسان هو عبد الله طوعاً وقهراً.

(١)ابن حمدون/ التذكرة الحمدونية٩/٣.

وقد تكرر لفظ(تأكلوا) في الآية مرتين، وكل واحدة منهما بلغة النهي والزجر والذم عن هذا الأكل، وبينهما عموم وخصوص مطلق، فالثانية أعم من الأولى إذ جاءت الأولى بخصوص المسلمين بقوله تعالى ﴿لاَ تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ﴾ (١).

أما الثانية فجاءت بالمعنى الأعم الشامل للمسلمين وغيرهم(من أموال الناس) نعم جاءت الأولى بلغة الإطلاق في ذات الأموال، ولم تقيد بحرف التبعيض(من) مما يدل على أن أخذ المال القليل من المسلم كالكثير وفيه تغليظ في أخذ المال من المسلم، قال تعالى ﴿قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ (٢).

وأختتمت الآية بقوله تعالى(وانتم تعلمون) لإقامة الحجة على الذي يأكل المال الحرام، وفيه آية في بلوغ المسلمين مراتب الفقاهة، والتمييز بين الحق والباطل، والقدرة على إجتناب الكسب الحرام .

فالآية وإن جاءت بصيغة التحذير والتنبيه إلا أنها تدل بالدلالة التضمنية على الثناء على المسلمين لما بلغوه من مراتب من العلم يستطيعون معها معرفة الحلال والحرام، ويدركون أنهم ملاقوا الله، وأنهم واقفون بين يديه للحساب.

وفيه واقية لهم من أكل الحرام، وسبيل للتدارك، ومن خصائص أهل العلم المبادرة إلى إعادة الحقوق إلى أهلها، واللجوء إلى

---

(١) سورة النساء٢٨.

(٢) سورة الأنعام٩٧.

الإستغفار، قال تعالى ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ﴾[1].

من غايات الآية

في الآية مسائل:

الأولى : جاءت الآية لتهذيب نفوس المسلمين وتفقههم في الدين، ومعرفة أحكام الحلال والحرام.

الثانية : الحفاظ على الملكية الشخصية، وتنمية الأموال وإزدهار التجارات بسلامتها من الغيلة والظلم والإستحواذ.

الثالثة: نجاة المسلمين من شدة الحساب والعذاب الذي يترتب على أكل المال بالباطل.

الرابعة : البشارة للمسلمين بكثرة الأموال لنسبتها في الآية إليهم (أموالكم) فبعد العوز والفاقة والضعف جاءت الغنائم وحصلت الفتوحات، وإتسعت وتعددت أمصار المسلمين، قال تعالى ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ﴾[2].

الخامسة : تدل الآية في مفهومها على جواز الأكل من مال الغير بالحق كالهدية والهبة والضيافة ونحوها فالقدر الميتقن من النهي والحرمة أكل المال بالباطل، وأكله بالإثم والتعدي، وفيه منع للحرج من قبول هدية المسلم والتصرف فيها، قال تعالى ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا﴾ [3]، ويجوز قبول هدية الكافر.

---

(١) سورة البقرة٢٦.

(٢)سورة آل عمران١٢٣.

(٣)سورة النور٦١.

السادسة : تنزيه المحاكم والقضاء من الدعوى بالباطل ومن شهادة الزور، والإصرار على الإثم.

وتدعو الآية إلى عدم الوصول إلى الحكام في أمور الحق بأن يعطي المسلم أخاه حقه قبل لجوئه إلى القضاء، وفيه تخفيف عن دوائر القضاء، وأمارة على الصلات الأخوية السلمية بين المسلمين.

السابعة : تنزه المسلمين عن أكل المال بالباطل دعوة للناس لدخول الإسلام وإظهار للحسن الذاتي لحياة المسلمين،وأسباب إمتلاء النفوس بالسكينة والطمأنينةّ.

التفسير

يمكن اعتبار الآية مدرسة أخلاقية واجتماعية تساهم بصورة فعالة في بناء المجتمع الإسلامي وفق أسس شرعية سليمة وكما ان الصيام وآياته المتقدمة سبب لسيادة احكام الحلال والحرام وموازين الإنصاف بين الناس، فان التخلي عن التعدي على حقوق الناس توطئة ومقدمة للإتيان بفريضة الصوم وغيرها، بل ان عنوان الصوم يصدق على الموضوعين معاً بحسب اللحاظ، فالصوم هو الإمساك والإمتناع عن الطعام والشراب والجماع، وعدم أكل المال بالباطل امتناع عن الحرام وهو من صوم الخصوص، وعنوان وجودي لكف النفس وإخضاعها لضوابط الشريعة ومنعها من التعدي او التمادي.

ويمثل المال في الحياة الدنيا منزلة عظيمة وله موضوعية واعتبار في السعي والكسب وهو وسيلة لتحقيق الغايات والأهداف النبيلة او الدنية وما هو برزخ بينهما لذا فانه أهم أبواب الإفتتان والإبتلاء قال تعالى ﴿ أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ ﴾[1] وتقدم ذكر الأموال فيها على

---

[1] سورة الانفال ٢٨.

الأولاد، لأن الأموال قد تكون طريقاً وآلة الى الجنة كما في الذي يوظف امواله في مرضاة الله عز وجل وقد تسوق صاحبها الى النار كما في الذي يتعدى على الآخرين في أموالهم وحقوقهم ولإمكانية التصرف التام في المال بعكس الأولاد الذين يتصفون بالعقل والإختيار، لذا تجد بين القواعد الأصولية قاعدة لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق.

والمراد من الأموال في الآية اعم من النقد والذهب والفضة والدينار والدرهم بل تشمل ما يصح تملكه شرعاً وان كان عقاراً او نباتاً حازه الإنسان بالإختيار والسعي أم جاء بالإنطباق ومن غير اختيار كما في الأرث.

تفسيرقوله تعالى ﴿ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ ﴾

الأولى : الآية خطاب للمسلمين لوجوه:

الأول : لنظم الآيات السابقة وعطف عليها فالخطاب فيها جاء للمسلمين الذين آمنوا بالإسلام ودعوة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم كما في قوله تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمْ الصِّيَامُ ﴾[1] والصيام واجب على كل مسلم.

الثاني : لغة الخطاب النهي التنزيهي وظاهره في المسلمين الا ان ترد قرينة على الخلاف وهي معدومة في المقام.

الثالث : ورود آية اخرى مشابهة في القرآن تضمنت النص والتفصيل في الخطاب قال تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ ﴾[2].

الرابع : ذكر اموال الناس في ذيل الآية وهو قرينة على توجه

---

(1) سورة البقرة ١٨٣.

(2) سورة النساء ٢٩.

الخطاب للأخص، وبين المسلمين والناس عموم وخصوص مطلق فكل مسلم انسان وليس العكس.

الخامس : تظهر الآية وجهاً آخر للجهاد والفرائض في الأموال، ويمكن ان تقسم الى ثلاثة أقسام على نحو القسمة الإستقرائية العقلية وهي:

أولاً : فريضة بدنية وهي الصلاة والصيام.

ثانياً : فريضة مالية وهي الزكاة والخمس.

ثالثاً : فريضة بدنية مالية وهي الحج والعمرة.

الثانية : هذه الآية الكريمة تفتح لنا باباً جديداً وتجعل قسيماً للفرائض المالية البدنية ولكن على نحو سلبي أي يجب ان تسلب عن المؤمن فعليه ان لا يأكل أموال الناس بالباطل.

الثالثة : قد يكون الإمتحان بها اكثر ابتلاء لشدة الإفتتان ولأنها تكون أحيانا على نحو القضية الشخصية أي ان شخصاً يتعرض للإبتلاء بالمال دون غيره وقد تتغلب النفس الشهوانية وتقود الى اللذات الحسية، وتندفع وراء غرائزها البهيمية وربما يؤدي هذا الإندفاع الى تحكم النفس السبعية وتنامي الغضب واستعمال القهر والإستيلاء لما جبل الله عز وجل نفوس الناس عليه من الذب عن أموالهم وحقوقهم وممتلكاتهم.

الرابعة : ان ارادة أكل أموال الناس بالباطل لا تتم من غير موانع أصلية وعرضية.

الخامسة : موضوع الآية اعم من أكل الأموال بالباطل ففيها إصلاح للأمة وترسيخ لشرائع الإسلام ومنع للفتنة.

السادسة : تبين الآية فضله تعالى في اعانة الناس على الهداية واسباب الرشاد، فالقرآن لم يترك العقل يعمل باستقلاله وان كان حجة بل انه يقوم بتوجيهه وتعاهده ومنعه من الشطط

والزيغ.

السابعة : انها مناسبة لتهيئة مقدمات التوجه للعبادة واداء الفرائض بسكينة واطمئنان.

الثامنة : في الآية حث على العدالة الإجتماعية والتخفيف عن الحكام في كثرة الدعاوى.

التاسعة : الآية تعزيز للأمانة وتعاهد للقيم الحميدة.

العاشرة : ايجاد اسس ثابتة في ميدان تقويم المجتمعات واصلاحها بالأمر السماوي الثابت، وبذا تتجسد فلسفة "التعاهد الإلهي" أي حفظ الناس وعدم تركهم وشأنهم، واعراض غير المسلمين عن العمل بالقرآن واحكامه لا يخرجهم عن هذه القاعدة في الجملة لترشح افاضات القرآن على عموم الخليقة.

الحادية عشرة : دعوة للناس لدخول الإسلام، فكما ان جواز لبس الحرير في الحرب لإراءة الكفار ما عليه المسلمون من العز ولترغيبهم في الإسلام، فان شيوع الأمانة عند المسلمين وعدم تعديهم على أموال وحقوق الناس دعوة للجميع لدخول الإسلام.

الثانية عشرة : في الآية إظهار للعقيدة على انماط السلوك وكيفية التصرف مع الآخرين وتنمية للأخلاق الحميدة واجتناب الرذائل وفي الحديث : الدين المعاملة.

الثالثة عشرة : تنهى الآية عن (الرشوة الخفية) وهو اصطلاح نطلقه على ما يسمى بالهدية في انجاز المعاملات في المؤسسات الحكومية والدراسية ونحوها اذا كان على حساب حق الآخرين والمنافع العامة.

الرابعة عشرة : حضور العقيدة في جزئيات الحياة أناء الليل

والنهـار وعنـد الإنفـراد والإجتمـاع، فالآيـة تحـول دون الـتفكير في المكــر والكيــد بــالآخرين، وتــردع الإنســان في حــال العزلــة والإنفراد والتلبس بحديث النفس عن المخالفة والتعدي.

الخامسةعشـرة : الأكـل في الآيـة يشـمل الحقيقـة والمجـاز، ويفيـد الأخــذ والإســتيلاء والإســتحواذ علــى الشــيء وان كــان مــن الأعيــان الثابتــة والمركبــات، ويجعــل موضــوعها بــالمعنى الأعــم حصـانة ومنعـة عنـد المسـلم تؤهلـه للتنـزه مـن التعـدي عنـدما تتهيـأ أسبابه ومقدماتـه، وكأنهـا تـزرع ملكـة الصـلاح في الـنفس وتجعلـها سجية وعرضاً دائماً مرتكزاً على الإيمان واتباع القرآن.

السادسـة عشـرة : الآيـة تـدل بمفهـوم المخالفـة علـى الأمـر بالسـعي والكسـب وطلـب الـرزق الحـلال، فحينمـا يغلـق الإنسـان علـى نفسه أبواب الباطل والمال الحرام يتوجه الى طلب الحلال.

السـابعة عشـرة : في الآيـة حـث علـى الـدعاء لطلـب الـرزق، والتـدبير في المعيشـة لأن السـعي وبـذل الجهـد للكسـب الحـلال يجعل الإنسان يحرص على ما يأتيه من الرزق.

الثامنـة عشـرة : انهـا مناسـبة لقبـول الـدعاء وحسـن الإسـتجابة لأن ظلم الآخرين واكل الحرام يحول دون استجابة الدعاء.

التاسـعة عشـرة : الآيـة أمـن مـن دعـوة المظلـوم لانعـدام موضـوع الظلــم، وارشــاد لاجتنــاب الإنغمــاس في الحــرام، وارتكــاب الكذب، والزور والفحش ونحوه.

العشرون : تبين الآية فلسفة حفظ الملكية في الإسلام.

الحاديـة والعشـرون : أكـل المـال بـالحرام والباطـل مقدمـة علميـة ووجدانيـة للفتنـة والخصـومة، فجـاءت هـذه الآيـة الكريمـة لتكـون حــاجزاً اخلاقيــاً ومانعــاً مــن حصــول أســباب الشــر ومقــدمات النزاع.

الثانية والعشرون : في باب القضاء لا يجوز الجعل للقاضي ولا اخذ الإجرة والبدل من المتخاصمين.

الثالثة والعشرون : الآية وان تعلقت في ظاهرها بالأموال الا انها اعم وتشمل الحقوق الإعتبارية وما لا يجوز نقله من الحقوق.

الرابعة والعشرون : هل في الآية تنبيه وتحذير من الفضول في المعاملات كالبائع لملك غيره والذي يتوقف بيعه على إجازة غيره الجواب ان الفضول فيه تفصيل فقد يكون من وجوه الظلم وقد يراد منه الإحسان وبروزه الى الخارج صحيحاً مشروطاً برضا وامضاء المالك.

وعن النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم : إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام)[1]، والأصل لزوم حب المسلم لأخيه ما يحب لنفسه ويصونه وفق مفاهيم الأخوة الإيمانية، فجاءت هذه الآية للزجر عن التعدي عليها.

بحث روائي

في الخبر عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم انه قال : "من اقتطع حق امرئ مسلم بخصومته فانما اقتطع قطعة من النار"، مما يعني ان الأكل بالباطل قد يكون عن طريق القضاء أيضا، فالآية تمنع من جعله حجاباً يستر الحق ويمنع من ظهوره وتفضح الذي يتخذ القضاء واخفاء الحقائق عن القاضي سبباً في اطلاق يده في مال الغير.

ورد في خبر ابن فضال عن الإمام علي الهادي عليه السلام في تفسير الآية انه كتب بخط يده : الحكام القضاة ثم كتب تحته : هو ان يعلم الرجل انه ظالم عاصي غير معذور في أخذه ذلك الذي حكم له به

(١)تفسير القرطبي ٣٣٥/٢.

اذا كان قد علم انه ظالم.

عن سماعة قلت للإمام الصادق عليه السلام الرجل يكون عنده الشيء يتبلغ به وعليه الدين أيطعمه عياله حتى يأتيه الله بميسرة فيقضي دينه او يستقرض على ظهره.

فقال : يقضي بما عنده دينه ولا يأكل أموال الناس الا وعنده ما يؤدي اليهم حقوقهم ان الله يقول ﴿ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ ﴾.

تفسيرقوله تعالى ﴿ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ ﴾

وفي ذكر وصف الإدلاء في الآية قولان:

الأول : الرشوة، وجاء الادلاء لأنه بالدلو وجذب الرشاء من البئر ينال الإنسان الماء، كذلك بهذا المال وموضوعه يكون المرتشي قريباً من الراشي سواء القرب الجسماني والمكاني او القرب المعنوي الذي يتمثل بميل القاضي للراشي.

الثاني : ان الحاكم عند قبضه الرشوة لا يثبت على اصل الحكم ويندفع فيه كما يسترسل الدلو في البئر لإغتراف الماء، ولكن الإدلاء جاء فعلاً للمخاطبين وهم غير الحكام في الآية لذا نقول في الآية وجوه محتملة:

الأولى : أكل المال تكرر في الآية مرتين وبينهما عموم وخصوص من وجه فمادة الإلتقاء الأكل ومادة الإفتراق ان الأكل في الأول ذاتي فيما بين المسلمين، وجاء على نحو الإطلاق، وفي الثاني انه اعم ويتعلق باموال الناس ولكنه على نحو التبعيض، فالأول يتعلق في ظاهره بالأموال الخاصة بقوله تعالى ﴿ أَمْوَالَكُمْ ﴾ فنسب الأموال الى أنفسهم وانه أكل بالباطل.

أما الأكل الثاني فيتعلق بأموال الآخرين وهو أكل بالإثم.

الثانية : الأكل الأول علة وسبب وطريق للأكل الثاني فاللام في ﴿لِتَأْكُلُوا﴾ لام التعليل ويمكن ان تكون لام العاقبة، فالتجرأ على اكل اموال الأقرب يسبب بالأولوية اكل مال الأبعد.

الثالثة : النهي عن أكل المال بالباطل جاء مقيداً بالإدلاء بها الى الحكام وجعلها طريقاً ومقدمة لأكل شطر من أموال الآخرين فهل تنحصر الحرمة بهذين القيدين، الجواب انها اعم وتشمل أكل المال بالباطل بالحرمة النفسية وليس الغيرية فقط.

الرابعة : الظاهر ان الأموال المذكورة في الخطاب الذي في صدر الآية تعود للمسلمين، أما الثانية فتعود لهم ولغيرهم من أهل الكتاب ونحوهم ممن لم يكن حربياً، وهذا التفصيل يفتح الباب لدراسات عقائدية واخلاقية.

الخامسة : قيد بالباطل يخرج بالتخصص مما تجوز حيازته من المباحات من الماء والكلأ والأرض الميتة عند احيائها ونحوها.

السادسة : الآية لا تشمل الهبة والأرث والصدقات والزكاة والخمس والضيافة وما كان راجحاً شرعاً لترتب الكثير من احكام الثواب والأجر على الإنفاق في سبيله تعالى.

السابعة : قوله تعالى ﴿ أَمْوَالَكُمْ ﴾ اعم من ان يتعلق بالغير من الأخوان فتشمل المال الخاص الا ان يراد من قيد ﴿ بَيْنَكُمْ ﴾ إخراج المال الخاص والملكية الشخصية والظاهر انه لا يصلح قيداً فيه، بالإضافة الى أصالة الإطلاق عند عدم وجود قرينة على التقييد فمع عدم ثبوت القرينة القيدية تحمل عائدية الأموال على المعنى الأعم من الأموال الخاصة وأموال الغير والأموال العامة، و(بينكم) أي لا تأكلوها كائنة بينكم فالنهي يتعلق بالأموال الخاصة ايضاً، وأكلها بالباطل توظيفها في الظلم والإيذاء واستعمالها بما فيه الإضرار بالنفس أيضا.

الثامنة : هل يحتمل عودة الضمير (ها) في ﴿بِهَا﴾ الى غير الأموال المأكولة بالباطل، الظاهر بخلافه والضمير يتعلق عادة بالمذكور قبله الا مع القرينة الدالة على الخلاف.

التاسعة : في الآية نهي عن الإمتناع عن إخراج الحقوق الشرعية من الزكاة والخمس بل انها في مفهومها دعوة لأخراجها (ودَين الله أولى ان يؤدى) وحث على أداء الأفعال العبادية المالية كالزكاة او العبادية البدنية المالية كفريضة الحج، بمعنى أكلها حينئذ تصرف المكلف بالحق الشرعي وعدم اعطائه لمستحقيه.

وذكرت في الآية وجوه:

الأول : المراد من الأموال الودائع وما لا تقوم عليه بينة عن ابن عباس والحسن وقتادة.

الثاني : مال اليتيم في يد الأوصياء يدفعون بعضه الى الحاكم ليبقى عندهم بعضه.

الثالث : المراد شهادة الزور.

الرابع : ان يحلف ليذهب حقه.

الخامس : ان يدفع الى الحاكم رشوة وقال الرازي : "وهذا اقرب الى الظاهر"، ولكن شهادة الزور تدخل بالحكم بالتبعية وهي من موجباته، وقد نسب الطبري الى الإمام الباقر انه قال : "يعني بالباطل اليمين الكاذبة يقتطع بها الأموال".

والوجوه الأخرى من مصاديق الآية الموضوعية والآية اعم منها فتشمل أيضا المال الشخصي وتوظيفه للشر والأذى والأضرار واستخدامه في غير ما أمر الله عز وجل به، فتدخل في الافراد التي تنهى عنها الآية الأموال التي تنفق على أعمال الفسوق والفحشاء كالزنا وشرب الخمر ولعب القمار واتخاذها أسبابا لتوريط الآخرين فيها، فالآية تحذير وانذار من سوء التصرف

بالنعمة والرزق الكريم كما في قوله تعالى ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَةَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ ﴾[1].

كما يدخل فيها ايضاً مستحدثات المسائل مما هو ابتلاء متعلق بالزمان او المكان او بلحاظ التباين بين الأشخاص مثل:

الأولى : شراء آلة للباطل واللهو للإسرة والأبناء.

الثانية : تصرف الزوجة في مال الزوج.

الثالثة : اخذ الابن من مال أبيه من غير رضاه.

الرابعة : الإكثار من النفقة مع عدم وجود المسوغ الشرعي.

الخامسة : الإجحاف في الديات.

السادسة : بخس المرأة مهرها وحقها.

السابعة : أكل الأب او الزوج نفسه لمهرها.

الثامنة : اقتطاع الأخ من مال أخيه.

التاسعة : التعدي في الإذن والفحوى في مال الغير.

العاشرة : من مصاديقها أيضا قوله تعالى ﴿ وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلًا لَمًّا ﴾[2].

الحادية عشرة : تضييع حقوق بعض الورثة.

الثانية عشرة : اخراج الوصي او كبير الاسرة او العم اوالابن الأكبر لثلث التركة من الأصل، والميت لم يوص به، ومقتضى الأصل ان الثلث لا يخرج من التركة الا مع وصية الميت باخراجه ومع عدمها فان جميع التركة تعود للورثة.

الثالثة عشرة : اخراج نفقات مجلس الفاتحة من التركة

---

(١) سورة ابراهيم ٢٨.

(٢) سورة الفجر ١٩.

واحتساب شطر منها من نفقات القاصرين والبنات، ممن لم يرض بذلك خصوصاً وان بعض النفقات تكون باهظة.

ومن الإعجاز ان تأتي اضافة الأموال للمخاطبين والمكلفين لأنها تفتح ابواباً من الدراسة والتحقيق، وتكون اكثر شمولاً للموضوعات واحكام المعاملات ومستوعبة لما فيها من المسائل العامة والخاصة.

فقوله تعالى ﴿ أَمْوَالَكُمْ ﴾ جاء بصيغة الجمع وهو ينحل الى الاموال الخاصة والاموال والممتلكات العامة، وفيها تحذير للمسلمين وأن لا يكونوا آلة للظالم للاستحواذ على ثروات الأمة التي أرادها الله عوناً للمسلمين في عباداتهم.

فالآية دعوة للمحافظة على الثروات العامة للأمة وموارد بيت المال وخزينة الدولة وعدم الإسراف فيها.

ومن يأكل مال الغير ويستحوذ عليها ويسلب منهم حقوقهم او يضيع عليهم الفرص والإستحقاق قد يبتلى هو او ذريته قال تعالى ﴿ وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلاً سَدِيدًا ﴾[1].

أما بالنسبة للواو في ﴿ وَتُدْلُوا ﴾، فقد اختلف النحاة هل الواو مطلقاً تفيد الترتيب والمعية أم انها لا تفيد الا مطلق الجمع كما عليه الأكثر، والظاهر ان الواو هنا عاطفة وتفيد المعية وتنصب الفعل المضارع بعدها بان مضمرة.

وذكر الآية للإدلاء الى الحكام يدل بالدلالة التضمنية على الذم والنهي عن اخذ الرشوة، والنص والإجماع على حرمة اخذ الحاكم للرشوة على الحكم والارشاد الى بعض وجوهه، وعلى

(١) سورة النساء ٩.

قول وان كان الحكم لباذل الرشوة بالحق وليس بالباطل.

وفي النبوي المروي في غوالي اللآلي : لعن الله الراشي والمرتشي ومن بينهما يمشي.

وفي خبر سماعة عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام : "الرشا في الحكم هو الكفر بالله"، والآية لا تدل على عدم انحصار الحرمة بالمرتشي بل تشمل الراشي أيضا لأن فعله من الإعانة على الإثم والظلم، لذا جاءت الآية خطاباً عاماً للنهي عن الرشوة وأكل المال بالباطل، أما لو كان انتزاع الحق متوقفاً على الرشوة فتحرم حينئذ على المرتشي وحده.

واكل المال بالباطل غير الإدلاء به الى الحكام ولكن اجتماعهما علة لأكل شطر من أموال الناس ظلماً وجوراً وعدواناً وبغير حق، ومن اعجاز الآية ورود لفظ ﴿النَّاسِ﴾ هنا لتأديب المسلمين وحكامهم بلزوم احترام أموال الآخرين وحقوقهم لا لأنهم في ذمة الإسلام فحسب بل لعمومات قاعدة السلطنة واحترام المال ولزوم أداء القاضي وظائفه ومن أهمها العدل والإنصاف واحقاق الحق وقيد﴿بِالإِثْمِ﴾ لإخراج انتزاع الحق والإستيلاء على المال بالطرق الشرعية واخذ مال الحربي غنيمة ولمنع التحرج من القواعد النظامية التي يتفق عليها العقلاء والتي امضاها الشارع، واحترام المال مطلقاً سواء كان للنفس او للغير وتسمى (قاعدة الإحترام) ويدخل فيها أيضا عمل الآخرين ولزوم احترامه ودفع الإجرة الا اذا كان العامل متبرعاً.

وجاء الجار والمجرور (إلى الحكام) متعلقتين بمحذوف حال وقال الجصاص في الآية({وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ}، فَأَخْبَرَ تَعَالَى أَنَّ الْحَاكِمَ وَغَيْرَهُ سَوَاءٌ فِي أَنَّهُ لَا

يَمْلِكُ أَخْذَ مَالِ أَحَدٍ وَدَفْعِهِ إِلَى غَيْرِهِ)[١].

ولكن الآية لا تدل هذا المعنى، وهو مستفاد من أدلة كثيرة، ومنها ذات لفظ(الحكام) الذي يدل على الحكام والفصل بين الناس(فإذا قيل : حكم بالباطل، فمعناه : أجرى الباطل مجرى الحكم)[٢]، وإستدل الراغب الأصفهاني في بيان الحكم والقضاء في في قوله تعالى﴿وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾[٣]، ﴿بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ﴾[٤] ببيت شعر من معلقة النابغة الذبياني:

فأحكم كحكم فتاة الحي إذ نظرت

إلى حمام سراع وارد الثمد

والثمد : الماء القليل، وقيل معناه : كن حكيما)[٥].

ولكن البيت أعلاه جاء في مدح الذي يحسب ويتدبر فيصيب في حسابه، لأن الحمام يتصف بالسرعة في طيرانه وهو بتوجهه جماعة نحو الماء يكون في عطش للماء القليل وفي ضيق من الهواء ومع هذا فأن المحاسب الذكي يستطيع عدّ تلك الطيور وهي مسرعة نحو الماء، وهذا الموضوع مختلف عن الحكم المتصل بالحق بين الناس.

وجاء البيت في إعتذار النابغة للنعمان، ورجاءه بإنصافه بحكمة، كما عدّت تلك الجارية والحمام، (قال أبو عبيدة : وكان يقال للجارية : الزرقاء واسمها عنز، وكانت من جديس)[٦].

---

(١)أحكام القرآن ٣٩٤/٤.

(٢)مفردات ألفاظ القرآن ٢٥٢/١.

(٣)سورة النساء ٥٨.

(٤)سورة المائدة ٩٥.

(٥)مفردات ألفاظ القرآن ٢٥٢/١.

(٦)أدب الكتاب للصولي ٦٦/١.

تفسير قوله تعالى ﴿ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾

جملة حالية أي تعلمون انكم تأكلون أموال الناس ظلماً وبغير حق وجاءت هذه الجملة ليخرج الذي يفعل السوء عن جهالة وعدم معرفة، اذ ان العقاب مرفوع عنه لحديث الرفع الا اذا كان الجاهل مقصراً، ويخرج الإنسان الذي يظن ان المال له كما لو لم يكن يعلم ان عليه ديناً لشخص وحلف لتوكيد الإنكار لذا اضاف بعضهم الى شرائط التكليف الإلتفات، ولا يمنع هذا التفسير من اعتبار هذه الآية تنبيهاً وتحذيراً من أكل المال بالباطل أي انها تزرع في النفس الإنسانية حالة من الورع وتجعل الإنسان يقظاً فطناً الى كيفية الكسب والإنفاق أيضا، فالآية تحث على الإلتفات الى عدم الظلم في المكاسب والأحكام وتدعو الى شكره تعالى على نعمة المال والجاه وعدم استغلالها في غير مرضاة الله.

في صحيحة هشام عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : "انما اقضي بينكم بالبينات والإيمان وبعضكم الحن بحجته من بعض فايما رجل قطعت له من مال أخيه شيئاً فانا قطعت له به قطعة من النار".

وفي الخبر عن العسكري عن امير المؤمنين عليه السلام : كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يحكم بين الناس بالبينات والإيمان في الدعاوى .

فكثرت المطالبات والمظالم فقال : يا ايها الناس انما انا بشر وانتم تختصمون ولعل بعضكم الحن بحجته من بعض، وانما اقضي على نحو ما اسمع منه، فمن قضيت له من حق أخيه بشيء فلا يأخذ به، فانما اقطع له قطعة من النار"، واستدل بمثل هذين الخبرين الذي خالف المشهور وقال بعدم جواز حكم الحاكم بعلمه ولكنه قياس مع الفارق، لأن النبي صلى الله عليه وآله وسلم اراد ان يعلم الأمة كيفية الحكم والقضاء بالحكم الظاهري الثانوي عند تعذر الحكم الواقعي وللتباين في موضوع العلم ونوعه.

◆◆◆◆◆◆◆◆◆◆◆◆◆

قوله تعالى ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ اتَّقَى وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ **الآية ١٨٩**

القراءة والإعراب

قرأ ابن كثير والكسائي وحمزة، وحماد ويحيى عن عاصم البيوت بكسر الباء[1]، ولكن المشهور والمرسوم في المصاحف بضم الباء.

يسألونك: فعل مضارع مرفوع، والواو: فاعل، والضمير الكاف مفعول به، عن الأهلة: جار ومجرور متعلقان بيسألونك، قل: فعل أمر، والفاعل ضمير مستتر تقديره أنت، وهو عائد للنبي صلى الله عليه وآله وسلم والجملة إستئنافية.

هي مواقيت: مبتدأ وخبر في محل نصب مقول القول، للناس: جار ومجرور متعلقان بمحذوف صفة لمواقيت، والحج: عطف على الناس.

وليس: الواو حرف إستئناف، ليس: فعل ماض ناقص من أخوات كان، البر: اسم ليس، بأن تأتوا: الباء: حرف جر زائد في خبر ليس، وأن وما بعدها في تأويل مصدر خبر ليس وتقديره إتيان البيوت.

البيوت: مفعول بها، ولكن: الواو: حرف عطف،

(١)مجمع البيان ١/٢٨٣.

لكـــن : حــرف : إســتدراك مشــبه بالفعــل، الــبر : اســم لكــن منصــوب، مَــن : اســم موصــول خــبر لكــن، إتقــى : فعــل مــاض : والفاعــل ضــمير مســتتر والجملــة لا محــل لهــا مــن الإعــراب لأنهــا صــلة الموصــول، وأتــوا : الــواو : حــرف عطــف، وهــو مــن موارد جواز عطف الإنشاء على الخبر.

البيــوت : مفعــول بهــا منصــوب بالفتحــة، مــن أبوابهــا : جــار ومجــرور متعلقــان بــأتوا، وإتقــوا الله : حــرف عطــف، وفعــل مفاعــل، والجملة معطوفة محل الجملة الأمرية.

لعلكــم : حــرف مشــبه بالفعــل وإسمــه، تفلحــون : فعــل مضــارع مرفــوع بثبــوت النــون، لأنــه مــن الأفعــال الخمســة، الــواو : فاعــل، وجملة الرجاء حالية.

اللغة

الأهلـة : جمـع هـلال، ولم يـرد في القـرآن الا بصـيغة الجمـع وفي هـذه الآيـة فقـط، والمتعـارف في لغـة الخطـاب بصـيغة المفـرد، ويحتمـل تعدد الأهلة وجوهاً:

الأول : بلحاظ الأشهر.

الثـاني : تعاقـب السـنين، قـال تعـالى ﴿وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ﴾(١).

الثالـث : إختلاف مطـالع البلـدان والأمصـار ومـا ورد مـن التعـدد الجهتي كما قال تعالى ﴿بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ﴾(٢).

الرابـع : الإشـارة الإعجازيـة بوجـود خصـائص لهـلال كـل شـهر يســتحق الإســتقلال، وان دراســة الهــلال لا تنحصــر بالقضــية

(١)سورة يونس ٥.

(٢)سورة المعارج ٤٠.

الشخصية بل بالجنس والمتعدد.

ولا مانع من احتمال هذه الوجوه مجتمعة ومتفرقة وهو من أسرار تفضل الله عز وجل بالإجابة وفيه تتجلى بتعدد المضامين القدسية للإجابة النازلة من الله عز وجل على أسئلة الناس عامة والمسلمين خاصة، لا سيما وقد ورد أن السؤال جاء من اليهود، لتكون الإجابة برهاناً قاطعاً على صدق نزول القرآن من عند الله، وشاهداً على نبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

وقد تجد كثيراً من الناس لا يعرف معنى الأهلة وانها جمع هلال، ومن اعجاز القرآن ان الفاظه جزء من الواقع اليومي والدراسي للمسلمين فلابد من دلالات للتباين في الصيغة ولعله راجع الى التجدد المستمر للإبتلاء بالهلال في كل شهر، والقرآن جاء بلغة الإطلاق والشمول ووضع القواعد العلمية الثابتة للأحكام الشرعية، فالعرف متخلف عن اللفظ القرآني الذي جاء لكل الازمنة والامصار وليكون مصدر الاحكام، ولعله امارة على ما يجري من الخلاف في رؤية الهلال.

والمواقيت : جمع ميقات وهو الوقت المعلوم المحدد لأمر او لإتيان فعل ما.

والبر : اسم جامع للخير والنفع الحسن.

والظهر : الجهة والصفحة المقابلة للوجه.

في سياق الآيات

بعد آيات الصيام واحكامه وسننه كعبادة بدنية والنهي عن اخذ المال بغير حق جاءت هذه الآية لبيان مسألة كونية وفلكية تتوقف عليها عبادة بدنية مالية ذات اهمية خاصة في تأريخ الإسلام مع بيان احكام التهذيب والأخلاق الإجتماعية.

الأول : الصلة بين هذه الآية والآية السابقة ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ﴾[1]، وفيها مسائل:

الأولى : تتعلق آية البحث بآية كونية متجددة كل شهر وهي إطلالة الهلال على أهل الأرض، وهذه الآية توليدية تنبسط على أيام الشهر، لأن القمر في كل ليلة له منزل وهيئة تختلف عن الليلة السابقة قال تعالى﴿وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ﴾[2]، أما آية السياق فانها جاءت بصيغة النهي في مسألة في باب المعاملات.

الثانية: تتحد الآيتان في الغاية وهي إصلاح المسلمين للعبادة والتقوى، وأعمال البر والفلاح، وفيه آية في تعدد تأديب المسلمين من وجوه:

الأول : التأديب بالآية القرآنية.

الثاني: التعليم والإرشاد بشطر الآية القرآنية.

الثالث: الهداية والإصلاح بالجمع بين الآيات.

الثالثة : تبين الآية حقيقة وهي أن الناس يسألون النبي محمداً صلى الله عليه وآله وسلم والله عز وجل هو الذي يجيبهم، وفيه تشريف وإكرام للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم، ونعمة على

---

(١)الآية١٨٨.

(٢)سورة يس٣٩.

الناس عامة والمسلمين خاصة بنبوته وقد جاء في موسى عليه السلام وبني إسرائيل بخصوص البقرة ﴿ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ﴾ [1].

وجاءت هذه الآية لتبين الإعجاز في نبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم بجواب الله عز وجل عنه، وعدم تركه متحيراً، ليكون فيه تحد آخر للناس ودعوة للمسلمين لزيادة إيمانهم.

الرابعة: تبعث كل من الآيتين على التقوى، وتساهم بارتقاء المسلمين للإمتثال لمضامين الآية الأخرى فقوله تعالى ﴿وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى﴾ حث على التنزه عن أكل المال بالحرام لأن هذا التنزه من البر ومن التقوى في ذات الوقت، وكذا فان إجتناب أكل المال بالإثم سعي وبلغة للوصول إلى مراتب التقوى.

الثاني : صلة هذه الآية بقوله تعالى ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ...﴾ [2]، وفيها مسائل:

الأولى : تعرف ليلة الصيام بواسطة الأهلة، ورؤية هلال شهر رمضان قال تعالى ﴿فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ [3]، وفي الجمع بين الآيتين إشارة إلى أن الأهلة لا تؤثر على الناس في إباحة الأكل والشرب ووطئ النساء في كل ليالي السنة، لأن الإذن والرخصة جاءت في ليلة الصيام والمراد ليالي شهر رمضان لتلحق بليالي السنة الأخرى، لتكون وظيفة الأهلة بخصوص شهر رمضان الإمساك والصيام في أيامه إبتداء من تجلي الخيط الأبيض من ثنايا الخيط الأسود عند أوان الفجر.

---

(١)سورة البقرة٦٨.

(٢)الآية١٨٧.

(٣)سورة البقرة١٨٥.

الثانية: ترك الأكل والشرب بعد النومة الأولى من التقوى، وترك هذا الترك بعد نزول آية السياق من التقوى أيضاً لما فيها من التخفيف والرحمة، وهو من النسخ، لأن الرخصة بالأكل والشرب والوطئ في ليالي شهر رمضان هي الأصل، ولم ينزل قرآن بالإمتناع عنها بعد النومة الأولى.

الثالثة: من أهم العبادات التي تتقوم بالأهلة الصيام والحج، وللصيام طرفان هما الإبتلاء بالإمساك، برؤية هلال شهر رمضان، والإفطار برؤية هلال شوال، وقد ورد عن النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم (لا تصوموا حتى تروا الهلال ولا تفطروا حتى تروا الهلال فان غم عليكم فاكملوا العدة ثلاثين)[1].

فان قلت وردت بعض الأخبار ولم يذكر فيها الصيام كما عن السدي : في الآية : فهي مواقيت الطلاق والحيض والحج[2].

الجواب جاء بالإختصار وذكر بعض المصاديق وإلا فان النصوص الواردة عن الصحابة والتابعين ظاهرة في إرادة الصيام، والقرآن يؤكد هذا المعنى لقوله تعالى ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾[3].

ولم يجعل الله عز وجل أوان الإفطار مستقراً من مفهوم الآية، أو أن تعيينه مخصوص بالسنة النبوية، بل ورد في ذات الآية أعلاه بقوله تعالى ﴿وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ﴾ لمنع الشك والخلاف بين المسلمين، والتبديل في أحكام الصيام.

فلم تأت جماعة أو طائفة من المسلمين وتقول أن القدر المتيقن من محاكاة صيام النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم هو البدء

(١)السنن الكبرى للبيهقي٤/٢٠٨.

(٢) تفسير الطبري٣/٥٥٤.

(٣) سورة البقرة١٨٥.

بالصيام من خلوع الفجر إلى غروب الشمس، وليس إتمام الشهر، ولو جاء شخص وقال : إن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أمر بتقليده ومحاكاته في الصلاة(صلوا كما رأيتموني أصلي) [1]، وفي الحج(خذوا مسائلكم مني)، ولم يقل صوموا كصومي.

فالجواب من وجوه:

الأول : جاءت آيات الصيام بتمام أحكام الصيام.

الثاني : إنحصار الإستثناء والرخصة بالإفطار بالمريض والمسافر من المسلمين والمسلمات مع تقييد وتلك الرخصة، وأنها مؤقته لحين الشفاء وإنقطاع الظعن والسفر.

الثالث : ورد تمام أحكام الصوم في آيات الصيام المتقدمة مع قلتها.

الرابع : ان الله تفضل وجعل الأهلة ميقاتاً لإبتداء وإستدامة وإنتهاء الصيام.

الخامس : قول النبي صلى الله عليه وآله وسلم صلوا كما رايتموني أصلي) يشمل الفرائض الأخرى بالإلحاق ووحدة الموضوع في تنقيح المناط فلابد من محاكاته وإتباع سنته في العبادات وأحكامها.

فان قلت فرض الصيام على المسلمين بدليل قوله تعالى﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمْ الصِّيَامُ﴾ [2]، بينما جاءت آية البيت عامة وشاملة للناس بقوله تعالى﴿هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ﴾ والجواب فيه وجوه:

الأول : بين الآيتين عموم وخصوص مطلق، فالمواقيت أعم فهي تخص المسلمين في عباداتهم ومعاملاتهم، وتشمل الناس جميعاً في ديونهم وآجالها، وفي الطلاق والعدة والمواعيد بين الناس، قال

---

(١) تفسير القرطبي ٧٢/١.

(٢)سورة البقرة ١٨٣.

تعالى ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولاً نَبِيًّا﴾ [1]، وتدخل الأهلة في التقوى لأنها أوان العبادات.

الثاني: التعدد في المواقيت، والعموم في لفظ(الناس) في الآية من مصاديق قوله تعالى ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ [2]، فجاء البيان لدعوة الناس جميعاً للإنتفاع من الأهلة والحساب القمري.

الثالث: في جريان الهلال بمساره الثابت في الجملة، وتجدد إطلالته في كل شهر، وإدراك الناس بأنه يهل عليهم وعلى أهل الأرض جميعاً دعوة للناس للتدبر في صنع الله، والتسليم بعظيم قدرته وسلطانه، قال تعالى ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ [3].

الرابع: يشمل قوله تعالى(مواقيت للناس) ذات الشهر الواحد، إذ يبدأ القمر هلالاً في أول وثاني ليلة ثم يأخذ باتساع نوره إلى أن يصير بدراً وسط الشهر وفي ليالي البيض وهي الأيام الثالث عشر والرابع عشر والخامس عشر من الشهر.

ومنه أداء فريضة الحج فان الوقوف على عرفة في اليوم التاسع والحج الأكبر في اليوم العاشر من ذي الحجة من كل عام.

وتشمل المواقيت اليوم الواحد وليلته لأن الهلال والقمر فاصل بين اليوم والليلة، قال تعالى ﴿وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِأُولِي الأَلْبَابِ﴾ [4].

---

(١)سورة مريم٥٤.

(٢)سورة الأنبياء١٠٧.

(٣)سورة الأعراف١٨٥.

(٤)سورة آل عمران١٩٠.

الرابعة : تبعث هذه الآية على البر والصلاح، وتبين لزوم ملازمة التقوى، بقوله تعالى﴿وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ اتَّقَى﴾ وجاءت أحكام آية السياق بمصاديق من التقوى وهي بلغة إلى التقدم.

وأختتمت بقوله تعالى﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ وتعلق مواقيت الناس بالعالم العلوي، وآية الضبط في منازل القمر ودوران الأهلة من الآيات الباهرات، وأسباب جذب الناس إلى سنن التقوى.

الثالث : صلة هذه الآية بقوله تعالى﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي...﴾ [1]، وفيها مسائل:

الأولى : إبتدأت الآيتان بمادة(سأل) وبصيغة الجمع، ومن الآيات إطلاق مصدر السؤال، وإفادة العموم الإستغراقي منه، فابتدأت آية السياق بقوله تعالى﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي﴾.

أما آية البحث فانها إبتدأت بقوله تعالى﴿يَسْأَلُونَكَ﴾ بلغة التنكير، ولم تأت بالفصل الذي يميز السائلين وفيه دعوة للناس جميعاً للتدبر في آيات الله عز وجل.

الثانية: لما ذكرت آية البحث أن الأهلة مواقيت للناس جاءت آية الدعاء لتبعث المسلمين إلى الدعاء عند رؤية الهلال، وكان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : إِذَا رَأَى الْهِلَالَ قَالَ اللَّهُمَّ أَهِلَّهُ عَلَيْنَا بِالْيُمْنِ وَالْإِيمَانِ وَالسَّلَامَةِ وَالْإِسْلَامِ رَبِّي وَرَبُّكَ اللَّهُ [2].

وبالإسناد عن عبادة بن الصامت، قال : كَانَ رَسُولُ الله إِذَا رَأَى الْهِلاَلَ قَال : اللهُ أَكْبَرُ ، الْحَمْدُ لله ، لاَ حَوْلَ وَلاَ قُوَّةَ إِلا بِاللهِ ،

---

(١)الآية١٨٦.

(٢)مسند أحمد٣/٣٣٢.

اللهُم إِني أَسْأَلُكَ خَيْرَ هَذَا الشهرِ ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ شَر القَدَرِ ، وَمِن سُوءِ المَحْشَر(١).

الثالثة : لقد جعل الله عز وجل الأهلة مواقيت للناس في مناسكهم وعبادتهم والآجال التي تكون بينهم في المعاملات.

وأخبرت آية البحث أن الله قريب منا،وهو أقرب إلينا من الأهلة، ويغيب الهلال ويمر بحال المحاق.

ويخرج في أول الشهر في أول الليل ويختفي آخره، ويخرج في النصف الثاني من الشهر القمري متأخراً عن أوان الغروب، وعلى نحو تدريجي إلى أن يصير في المحاق لبيان أن الله قاهر لكل شئ وان المخلوقات منقادة له سبحانه، قال تعالى﴿قُلْ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾(٢).

الشعبة الثانية: صلة هذه الآية بالآيات التالية، وفيها وجوه:

الأول: صلة هذه الآية بالآية التالية﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ...﴾ (٣)، وفيها مسائل:

الأولى : جاءت هذه الآية خطاباً للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم، وجاءت آية السياق خطاباً للمسلمين بلغة الأمر(وقاتلوا).

الثانية : أخبرت هذه الآية بأن الأهلة مواقيت، ومن الدفاع في سبيل الله ما يكون بميقات وأجل، في حال الخروج بكتائب أوالفتوحات، وقد يكون الدفاع بميقات كما لو علم المؤمنون بأوان قدوم الكفار، وزحفهم على بلاد المسلمين.

الثالثة: يفيد الجمع بين الآيتين أن في الأهلة وجوه:

---

(١)المسند الجامع٣٢/٨.

(٢)سورة الرعد١٦.

(٣)الآية ١٩٠ .

الأول : إنها رحمة للناس عامة والمسلمين خاصة.

الثاني : بعث للزوم البر والتقوى.

الثالث : دعوة المسلمين لتعاهد منازل البر، قال تعالى ﴿وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ﴾ (١).

الرابعة : عدم التعارض بين عناية المسلمين بالأهلة وضبط الشهور، ومعرفة أوان العبادات وبين خروجهم للجهاد في سبيل الله.

الخامسة : في الأهلة والمواقيت وفق الآيات الكونية الجلية للناس كافة أمور:

الأول: إنها رحمة من الله عز وجل بالناس جميعاً.

الثاني : فيها دعوة لهم لدخول الإسلام، قال تعالى ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ (٢).

الثالث: إنها زاجر عن محاربة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم والمسلمين.

الرابع : إنها حجة في النهي عن عبادة غير الله، لأن الآيات الكونية من بديع صنعه سبحانه.

السادسة : جاءت آية البحث بالأمر بالتقوى وأنها مصداق البر والصلاح، وهناك تباين وتضاد بينها وبين التعدي الذي نهت عنه آية السياق.

فمن إعجاز نظم الآيات أن تأتي آية بالأمر العام، وتأتي بالنهي عن ضد خاص للمأمور، به ليكون الأمر واقية من الضد، فالأمر بالتقوى والحث على أعمال البر والفلاح عون ومدد للمسلمين

---

(١)سورة آل عمران١٩٨.

(٢)سورة فصلت٥٣ .

للإمتناع عن التعدي، وهو من النعم التي تفضل الله عز وجل بها على ﴿خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [(١)].

السابعة : لما ذكرت آية البحث الأهلة وأنها مواقيت ورحمة للناس، جاءت هذه الآية لتدعو المسلمين للشكر لله سبحانه على نعمة الأهلة، ووظائفها، والهداية إلى المناسك والعبادات بآيات كونية ظاهرة لجميع الناس.

اعجاز الآية

تخبر الآية عن تدخل السماء في تحديد نوع الإجابة وفيها بالدلالة التضمنية توكيد لتعاهد النبوة وحفظها فمع ان النبي صلى الله عليه وآله وسلم ﴿ مَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى ﴾[(٢)] فان القرآن ينزل ناطقاً ومحامياً ومجيباً عنه صلى الله عليه وآله وسلم، وفيها حجة بان ما في السماوات والأرض مسخر للمؤمن في عباداته.

ومن اعجازها انها تبين القواعد الكبرى الكلية للتقوى وتجعل المفاهيم والإهتمامات الخاصة عند الناس بمنازلها الطبيعية فروعاً او صغريات للمسائل، فالبر هو التقوى والصلاح وليس كيفية التصرف الظاهري .

ومنه انها تدل بالدلالة التضمنية على حث المسلمين على التوجه الى النبي صلى الله عليه وآله وسلم بالسؤال عن الحقائق الكونية واسرار الخلائق ونحوها، الأمر الذي يدل على صدق النبوة وعدم الخشية من كثرة السؤال وما يتطلبه الجواب من العلم الحضوري، ولعل في صيغة الجمع للأهلة اشارة قرآنية لإمكان

---

(١)سورة آل عمران ١١٠.

(٢) سورة النجم ٤.

وحدة الحكم في رؤية الهلال، وما في الآية من التوكيد على التقوى تنبيه الى عدم الإنشغال بالإرتقاء العلمي والصعود في السماء عن ذكر الله.

تقدير إبتداء الآية(يسألونك يا رسول الله) فقد جاءت الآية خطاباً للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم لتبين عظيم منزلته عند الله عز وجل، بأن يتفضل الله ويجيب عن الأسئلة التي توجه له من قبل المسلمين وأهل الكتاب.

وفيه بشارة المدد من الله عز وجل للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم ونصرته، قال تعالى في خطاب له﴿وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا﴾[1].

وفيه تحد للكفار والظالمين بأن الله الذي يتفضل ويجيب على المسائل الكونية التي توجه للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم هو الذي يذب عنه، ويدفع عنه أعداءه.

وذكرت الآية الحج بعرض واحد مع الناس، مع التباين بينهما فلم تقل الآية(مواقيت للناس ووفد الحاج) كي يكون المعطوف مشابهاً للمعطوف عليه، وإنما جاءت بعطف الفريضة على الناس في معاملاتهم، لبيان الشأن العظيم لفريضة الحج، وأن الله عز وجل خلق الكواكب والأفلاك مسخرة للإنسان وللفرائض بالذات، لتكون شاهداً على صلاح الإنسان وتقيده بالعبادات.

ومن أسرار العطف في الآية أن الحياة الإنسانية وإستدامة الكواكب تتقوم بأداء الفرائض، ومنها الحج على نحو الخصوص، قال تعالى﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾[2].

---

(١)سورة الفتح٣.

(٢)سورة الذاريات٥٦.

وفيه آية بوجوب الملازمة بين عبادة الله وبين إستدامة الخلق لأن المراد من الخلق في الآية أعلاه أعم من بدأ التكوين والخليفة والمراد إستدامة ودوام الخلق.

فجاءت هذه الآية لدوام علة الخلق وهي العبادة بالإضافة إلى جواز إعتباره من عطف الخاص على العام، والتقدير : مواقيت للناس في المعاملات والعبادات والحج.

وجاء ذكر الحج من باب المثال الأمثل فالمراد الحج والصيام والزكاة (وعن ابن عباس قال : بَعَثَتْ بَنُو سَعْدِ بْنِ بَكْرٍ ضِمَامَ بْنَ ثَعْلَبَةَ وَافِدًا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وآله وَسَلَّمَ فَقَدِمَ عَلَيْهِ وَأَنَاخَ بَعِيرَهُ عَلَى بَابِ الْمَسْجِدِ ثُمَّ عَقَلَهُ ثُمَّ دَخَلَ الْمَسْجِدَ وَرَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وآله وَسَلَّمَ جَالِسٌ فِي أَصْحَابِهِ وَكَانَ ضِمَامٌ رَجُلًا جَلْدًا أَشْعَرَ ذَا غَدِيرَتَيْنِ فَأَقْبَلَ حَتَّى وَقَفَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وآله وَسَلَّمَ فِي أَصْحَابِهِ.

فَقَالَ أَيُّكُمْ ابن عَبْدِ الْمُطَّلِبِ.

فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وآله وَسَلَّمَ أَنَا ابن عَبْدِ الْمُطَّلِبِ.

قَالَ مُحَمَّدٌ قَالَ نَعَمْ فَقَالَ ابن عَبْدِ الْمُطَّلِبِ إِنِّي سَائِلُكَ وَمُغَلِّظٌ فِي الْمَسْأَلَةِ فَلَا تَجِدَنَّ فِي نَفْسِكَ.

قَالَ لَا أَجِدُ فِي نَفْسِي فَسَلْ عَمَّا بَدَا لَكَ قَالَ أَنْشُدُكَ اللَّهَ إِلَهَكَ وَإِلَهَ مَنْ كَانَ قَبْلَكَ وَإِلَهَ مَنْ هُوَ كَائِنٌ بَعْدَكَ آللَّهُ بَعَثَكَ إِلَيْنَا رَسُولًا.

فَقَالَ اللَّهُمَّ نَعَمْ قَالَ فَأَنْشُدُكَ اللَّهَ إِلَهَكَ وَإِلَهَ مَنْ كَانَ قَبْلَكَ وَإِلَهَ مَنْ هُوَ كَائِنٌ بَعْدَكَ آللَّهُ أَمَرَكَ أَنْ تَأْمُرَنَا أَنْ نَعْبُدَهُ وَحْدَهُ لَا نُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا وَأَنْ نَخْلَعَ هَذِهِ الْأَنْدَادَ الَّتِي كَانَتْ آبَاؤُنَا يَعْبُدُونَ مَعَهُ قَالَ اللَّهُمَّ نَعَمْ قَالَ فَأَنْشُدُكَ اللَّهَ إِلَهَكَ وَإِلَهَ مَنْ كَانَ قَبْلَكَ وَإِلَهَ مَنْ هُوَ كَائِنٌ بَعْدَكَ آللَّهُ أَمَرَكَ أَنْ نُصَلِّيَ هَذِهِ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسَ.

قَالَ اللَّهُمَّ نَعَمْ قَالَ ثُمَّ جَعَلَ يَذْكُرُ فَرَائِضَ الْإِسْلَامِ فَرِيضَةً فَرِيضَةً الزَّكَاةَ وَالصِّيَامَ وَالْحَجَّ وَشَرَائِعَ الْإِسْلَامِ كُلَّهَا يُنَاشِدُهُ عِنْدَ كُلِّ فَرِيضَةٍ كَمَا يُنَاشِدُهُ فِي الَّتِي قَبْلَهَا.

حَتَّى إِذَا فَرَغَ قَالَ فَإِنِّي أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَشْهَدُ أَنَّ سَيِّدَنَا مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ وَسَأُؤَدِّي هَذِهِ الْفَرَائِضَ وَأَجْتَنِبُ مَا نَهَيْتَنِي عَنْهُ ثُمَّ لَا أَزِيدُ وَلَا أَنْقُصُ.

قَالَ ثُمَّ انْصَرَفَ رَاجِعًا إِلَى بَعِيرِهِ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وآله وَسَلَّمَ حِينَ وَلَّى إِنْ يَصْدُقْ ذُو الْعَقِيصَتَيْنِ يَدْخُلْ الْجَنَّةَ قَالَ فَأَتَى إِلَى بَعِيرِهِ فَأَطْلَقَ عِقَالَهُ ثُمَّ خَرَجَ حَتَّى قَدِمَ عَلَى قَوْمِهِ فَاجْتَمَعُوا إِلَيْهِ فَكَانَ أَوَّلَ مَا تَكَلَّمَ بِهِ أَنْ قَالَ.

بِئْسَتِ اللَّاتُ وَالْعُزَّى قَالُوا مَهْ يَا ضِمَامُ اتَّقِ الْبَرَصَ وَالْجُذَامَ اتَّقِ الْجُنُونَ.

قَالَ وَيْلَكُمْ إِنَّهُمَا وَاللَّهِ لَا يَضُرَّانِ وَلَا يَنْفَعَانِ إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ بَعَثَ رَسُولا وَأَنْزَلَ عَلَيْهِ كِتَابًا اسْتَنْقَذَكُمْ بِهِ مِمَّا كُنْتُمْ فِيهِ وَإِنِّي أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ إِنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ مِنْ عِنْدِهِ بِمَا أَمَرَكُمْ بِهِ وَنَهَاكُمْ عَنْهُ قَالَ فَوَاللَّهِ مَا أَمْسَى مِنْ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَفِي حَاضِرِهِ رَجُلٌ وَلَا امرأة إِلَّا مُسْلِمًا.

قَالَ يَقُولُ ابن عَبَّاسٍ فَمَا سَمِعْنَا بِوَافِدِ قَوْمٍ كَانَ أَفْضَلَ مِنْ ضِمَامِ بْنِ ثَعْلَبَةَ[1].

وقد جاءت الآية بذكر الصيام إبتداء، وبذكر الحج في آية البحث، وورد قوله تعالى ﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ﴾ [1]، ووردت الآيات بوجوب الزكاة قال تعالى ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾[2].

(١)مسند أحمد ٥/٢٩٢.

ومن شرائط الزكاة في الأنعام (مضي الحول عليها جامعة للشرائط ويكفي الدخول في الشهر الثاني عشر ولا يعتبر اتمامه، نعم الشهر الثاني عشر محسوب من الحول الأول.

وابتداء الحول الثاني انما هو تمامه، فبالدخول فيه يتحقق وجوب الزكاة، ولا يقدح فقد بعض الشروط قبل تمامه، ولكن الوجوب يستقر عند دخول الشهر الثاني عشر وإن اختلت الشرائط قبل تمامه[٣].

وان قلت ما هو الإخبار في قوله تعالى﴿هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ﴾

الجواب من وجوه:

الأول: لقد سألوا عن ذات الأهلة، فأخبرت الآية بما يدل على أن الأهلة من بديع صنع الله.

الثاني: إقامة الحجة على الناس بأن الله عز وجل سخّر لهم المخلوقات العظيمة في معاملاتهم وعباداتهم.

الثالث : إن الله عز وجل لم يخلق القمر والشمس للمعاملات وحدها، بل تفضل وجعلها مادة في أوان العبادات، وسبباً في تذكير الناس بوظائفهم العبادية ليكون تقدير الآية على شعب:

الأولى : قل هي مواقيت للناس في صيامهم وإفطارهم.

الثانية: مواقيت للناس في تعيين أوان الزكاة.

الثالثة: مواقيت للناس بتهيئة مقدمات الحج.

---

(١)سورة البقرة١٩٧.

(٢)سورة النساء٧٧.

(٣)رسالتنا العملية الحجة ١٨٢/٢.

الرابع: إجابة الناس بأن الأهلة نعمة عظيمة عليهم فليشكروا الله عز وجل بما هم إنس، ولم تصل النوبة للشكر من منازل الإيمان، ونعمة والخلافة في الأرض.

الخامس : ترغيب الناس باظهار معاني العبودية لله عز وجل.

السادس : الدعوة للتدبر في عطف الحج على مواقيت الناس وموضوعية العبادة في خلق السماوات والأرض.

السابع : من إسرار مجئ الحج على نحو الخصوص من العبادات أنه طواف بالبيت الحرام، وفيه تأكيد لشرف البيت ومنزلته بين أهل السماء، وعن ابن عباس قال : لما أهبط الله آدم إلى الأرض أهبطه إلى موضع البيت الحرام وهو مثل الفلك من رعدته.

ثم أنزل عليه الحجر الأسود وهو يتلألأ من شدة بياضه ، فأخذه آدم فضمه إليه آنساً به ، ثم نزل عليه القضاء فقيل له : تخط يا آدم ، فتخطى فإذا هو بأرض الهند أو السند فمكث بذلك ما شاء الله ، ثم استوحش إلى الركن فقيل له : احجج . فحج فلقيته الملائكة فقالوا : برّ حجك يا آدم ، ولقد حججنا هذا البيت قبلك بألفي عام[1].

الثامن: إنتقال الآية للبر وبيان مصداقه من التقوى، بعد الإجابة على موضوع الأهلة أمر ذو دلالة في المقام، ولبيان لزوم الإنتفاع من آية الأهلة في المعاملات والعبادات.

وأختتمت الآية بالأمر بتقوى الله وبيان أنه هو سبيل الفلاح وتأكيد لزوم توظيف السؤال عن الأهلة في طاعة الله، وتعظيم شعائره، والتدبر في مخلوقاته وأنها تدل على عظيم قدرته وسلطانه.

---

(١)الدر المنثور١/٢٥٠.

ويمكن تسمية الآية الكريمة آية(**يسألونك عن الأهلة**) ولم يأت لفظ الأهلة في القرآن إلا في هذه الآية الكريمة.

الآية سلاح

الإضافة والإعانة في الآية مركبة، ومن الإخبار عن موضوعية الهلال في العبادات ومن بعث الطمأنينة في النفس بالإجابة المباشرة من السماء، مع بيانها لأحكام السنن والآداب وجهة الصدور.

في الآية دعوة للناس للرجوع إلى النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وسؤاله عن أمور الدين والدنيا، والإنتفاع الأمثل من وجوده بين ظهرانيهم، لأن الله عز وجل هو الذي يتفضل بالإجابة، ومجئ الإجابة بالوحي والتنزيل لتبقى ملكاً وثروة للأجيال المتعاقبة من المسلمين وغيرهم.

ويتجلى هذا الإطلاق في الذين ينتفعون منه بعدم تعيين الآية للذين يسألون النبي محمداً صلى الله عليه وآله وسلم وملتهم، وهو من عمومات قوله تعالى﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾[1]، من جهات:

الأولى : توجه الناس لسؤال النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم عن الأمور الكونية.

الثانية: إتخاذ الناس السؤال طريقاً لمعرفة صدق نبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم فيأتي الجواب من الله عز وجل لتأكيد نبوته، وإقامة الحجة على الناس في لزوم تصديقه، وتلك معجزة في نبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم بأن يسأله الناس عن الأهلة وغيرها فيخرجون بالبرهان الساطع الذي يدل على صدق نبوته.

---

(١)سورة الأنبياء١٠٧.

الثالثة: بيان الإرتقاء العام بين الناس في المعارف والتحصيل ببركة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم، فيسألون وتأتيهم الإجابة من الله عز وجل.

الرابعة: بعث السكينة في نفس النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم والمسلمين، فانه لا يخشى من السؤال، فاذا كان الجواب عن أحوال السماء يأتيه من الله، فانه يرجو أن يأتيه الجواب عنها وعن أمور أهل الأرض أيضاً بالوحي والتنزيل، قال تعالى﴿ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾(١).

أسباب النزول

وفيه وجوه:

الأول : أخرج ابن عساكر أخرج ابن عساكر بسند ضعيف عن ابن عباس في قوله {يسألونك عن الأهلة} قال : نزلت في معاذ بن جبل، وثعلبة بن غنمة، وهما رجلان من الأنصار قالا : يا رسول الله ما بال الهلال يبدو ويطلع دقيقاً مثل الخيط، ثم يزيد حتى يعظم ويستوي ويستدير، ثم لا يزال ينقص ويدق حتى يعود كما كان لا يكون على حال واحد؟ فنزلت {يسألونك عن الأهلة قل هي مواقيت للناس} في محل دينهم، ولصومهم، ولفطرهم، وعدة نسائهم، والشروط التي تنتهي إلى أجل معلوم)(٢).

الثاني : عن أبي العالية : بلغنا أنَّهم قالوا : يا رسول الله، لم خُلقَتْ الأهلة؟ فأنزل الله {يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ} يقول : جَعَلَهَا الله مواقيت لصَوْم المسلمين وإفطارهم،

(١)سورة التوبة٢٦.

(٢)الدر المنثور ٤٠٧/١.

وعدة نسائهم، ومَحَلّ دَيْنهم)[١].

وعن قتادة ذكر لنا انهم سألوا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لم خلقت هذه الأهلة فانزل الله هذه الآية، ذكره ابن جرير عن ابي العالية وروي عن معاذ ان اليهود سألت عن الأهلة.

والخبران وان كانا ضعيفي السند فانهما لا يخرجان عن ظاهر الآية ومنطوقها لما فيها من اثبات للسؤال عن الأهلة ولا مانع من اجتماعهما من غير تعارض، فكل قوم او جماعة او اشخاص يسألون عن جهة وحالة من احوال الأهلة كما ان الأغراض والمقاصد من السؤال تتعدد وتتباين وتختلف لتستبين معه حقيقة اعجازية للقرآن وهي ان الآية الواحدة تكون رداً عاماً وخطاباً للمتباين والمختلف.

الثالث : وأخرج وابن جرير وغيره عن البراء : كانت الأنصار إذا حجوا فرجعوا لم يدخلوا البيوت إلا من ظهورها، فجاء رجل من الأنصار فدخل من بابه، فقيل له في ذلك، فنزلت هذه الآية)[٢].

الرابع : أخرج بالإسناد عن ابن عباس : أن رجالاً من أهل المدينة كانوا إذا خاف أحدهم من عدوّه شيئاً آخر فأمن، فإذا أحرم لم يلج من باب بيته واتخذ نقباً من ظهر بيته، فلما قدم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم المدينة كان بها رجل محرم كذلك، وأن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم دخل بستاناً، فدخله من بابه ودخل معه ذلك المحرم، فناداه رجل من ورائه : يا فلان إنك محرم وقد دخلت مع الناس، فقال : يا رسول الله إن كنت محرماً فأنا محرم، وإن كنت أحمس فأنا أحمس، فأنزل الله {وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها} إلى آخر الآية، فأحل للمؤمنين أن

(١)تفسير ابن كثير ٥٢٢/١.

(٢)الدر المنثور ٤٠٨/١.

يدخلوا من أبوابها)[١].

الخامس : أخرج عبد الحميد وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن قيس بن جبير النهشلي : أن الناس كانوا إذا أحرموا لم يدخلوا حائطاً من بابه ولا داراً من بابها، وكانت الحمس يدخلون البيوت من أبوابها، فدخل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه داراً، وكان رجل من الأنصار يقال له رفاعة بن تابوت فتسوّر الحائط، ثم دخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلما خرج من باب الدار خرج معه رفاعة فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : ما حملك على ذلك؟ قال : يا رسول الله رأيتك خرجت منه فخرجت منه، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : إني رجل أحمس، فقال : إن تكن رجلاً أحمس فإن ديننا واحد، فأنزل الله { وليس البر . . . } الآية) [٢].

السادس : إرادة المعنى الأعم، وأنهم كانوا يدخلون البيت من خلفها كعادة في الجاهلية، ولا ينحصر موضوعها بالإحرام للحج، فجاء النهي عنها مطلقاً(وأخرج سعيد بن منصور عن إبراهيم النخعي في الآية قال : كان الرجل من أهل الجاهلية إذا أتى البيت من بيوت بعض أصحابه أو ابن عمه رفع البيت من خلفه أي بيوت الشعر ثم يدخل، فنهوا عن ذلك وأمروا أن يأتوا البيوت من أبوابها، ثم يسلموا)[٣].

السابع : تعلق موضوع دخول البيت من خلفه في حال الإعتكاف، بإعتبار أنه حالة عبادية خاصة، فمثلما ينهى فيه عن الجماع، فإن نفراً يقوموا بدخول البيت من الخلف،(وأخرج ابن أبي

---

(١)الدر المنثور ٤٠٨/١.

(٢)الدر المنثور ٤٠٨/١.

(٣)الدر المنثور ٤٠٩/١.

حاتم عن محمد بن كعب القرظي قال : كان الرجل إذا اعتكف لم يدخل منزله من باب البيت، فأنزل الله {وليس البر} الآية)[1].

مفهوم الآية

الآية دعوة للسؤال عن الأحكام الشرعية وحث على التفقه في امور الدين والإطلاع على اسرار الكون وما فيها من بديع صنعه تعالى لأنها آية وشاهد على وجود الصانع ولزوم عبادته أي ان سؤال الناس للنبي عن مصاديق الإرادة التكوينية مدخل للإيمان او شاهد على الإيمان والتسليم بمعرفته بنظام الكواكب ووظائفها وتلقيها بالوحي، وفضله تعالى في تسخيرها للإنسان في عباداته ومعاملاته وحوائجه المختلفة.

ونزول الإجابة من عنده تعالى دليل على اهمية السؤال في موضوعه ودعوة سماوية لتوجيه الأسئلة الى النبي وهو توكيد على صدق نبوة الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم لما في مفاهيم هذه الآية من التحدي بالدعوة الى الإكثار من الأسئلة سواء ما يتعلق بالكواكب والنجوم او بغيرها نعم وردت آية تفيد التقيد بما لا يكون في السؤال ضرر واذى كما في قوله تعالى ﴿لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ﴾ والجمع بينها وبين الآيات التي تخبر عن اسئلة المسلمين للنبي صلى الله عليه وآله وسلم واجابة القرآن عليها يعني ان السؤال يجب ان يكون ذا نفع وفيه مصلحة كما ان الآية تدل على حفظه تعالى للنبوة ونصرته لرسوله الأكرم وعدم تركه في باب العقائد والإحتجاج والسؤال واذا كان السؤال اختيارياً او كان لمصلحة في الدين مثلما انه سبحانه لم يخذله في

---

(١)الدر المنثور ٤٠٩/١.

ميـادين الـدفاع بالإضـافة الى شمـول المقـام وكثـرة الأسـئلة بعمومـات قولـه تعـالى ﴿ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ﴾ فحينمـا يتكفـل سـبحانه الإجابـة عـن الـنبي صـلى الله عليـه وآلـه وسـلم في شـؤون الخلـق فانـه تعـالى يحفـظ شـخص الرسـول مـن التعـدي عليـه ويـدفع عنـه الغيلـة ومحاولات القتل.

فقـد جـاءت الآيـة بالإخبـار عـن الوظيفـة الأساسـية للأهلـة واطلالـة الهـلال الا وهـي العبـادة واعتبارهـا للوقـت مطلقـاً مـع ان وظائفهـا اعـم واكثـر في اشـارة الى اولويـة العبـادات، وللتوكيـد علـى اهمية الوقت وضبطه والحرص على عدم التفريط به وانه من ابواب التوثيـق والعلـم فالآيـة شـاهد علـى الإرتقـاء العلمـي عنـد المسـلمين واكرامهم لعنصر الوقت كوعاء للعبادة وطاعته تعالى،

وتـبين الآيـة تسـخير اعظـم المخلوقـات لخدمـة الإنسـان وتيسـير امـوره وضـبط اوان عباداتـه بالإضـافة الى انهـا عـون علـى اداء العبـادة لمـا فيهـا مــن عنصــر التحــريض الزمــاني والإتحــاد في تعــيين اوان الوجـوب وكـأن هـلال رمضـان لأهـل الأرض لأداء فريضـة الصـيام، فيقـوم الهـلال بـابلاغ رسـالة الصـيام في آن واحـد لجميـع المسـلمين وتحـرض اهلـة اشـهر الحـج وهـي شـوال وذو القعـدة وذو الحجـة علـى السـعي للـديار المقدسـة لإدراك الوقـوف علـى عرفـة في أوانـه وهـو اليـوم التاسـع مـن ذي الحجـة فـلا غرابـة ان تـأتي آيـة الأهلـة بـين آيـات الصـيام وآيـات الحـج وفيهـا دلالـة بـان الله عـز وجـل لم يفـرض الفـرائض فحسـب بـل هـيء مقـدماتها واسـبابها ووسـائل الأخبـار عنها.

ومنهـا (الأهلـة) ولأن هـذه الوسـيلة مـن خلقـه تعـالى علـى نحـو محـض وخـالص لـيس للإنسـان فيـه شـأن جـاء ذكرهـا، وفيهـا بيـان

للمائز بين صنعه تعالى وما يصنعه الإنسان من وسائل الإعلام وفق ارقى الصيغ في زمان الثورات الصناعية المتعاقبة، فبالإمكان تسخير وسائل الإعلام والأجهزة الحكومية والقوانين لضبط اوان الصيام والحج وغيرهما من النشاطات الإنسانية العامة ولكنها لا تستطيع ان تؤدي معشار وظيفة الهلال بل انها جميعاً لا تتعدى في وظيفتها الإخبار عن سير القمر وولادته لذا ترى الحكم الشرعي في ثبوت الهلال لا يتحصل الا بالرؤية الشخصية او شهادة البينة الشرعية على رؤيته وهي شاهدان عدلان، ولا عبرة بالدراسات الفلكية وحساب سير النجوم وان اتصف بالدقة الإجمالية في هذا الزمان اذ انها لا ترقى الى الظن المعتبر الذي جعله الشارع حجة وطرق ثبوت الهلال وان وردت على نحو الطريقية الا انها تفيد الحصر واعتبار الرؤية بالعين المجردة غير المسلحة.

وبين مواقيت الناس والحج عموم وخصوص مطلق، فمواقيت الحج للناس بدليل قوله تعالى ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً﴾ فهو من عطف الخاص على العام ومصداق لصفة من صفاته تعالى وهي الرحمن باعتبار ان الأهلة رحمة للناس جميعاً والمسلمين بنحو خاص، فالمسلم ينتفع من الأهلة مرتين مرة بما هو انسان في معاملاته وحياته اليومية ومستقبله، ومرة بما هو مسلم يؤدي فرائضه وعباداته، وهكذا النعم التي سخرها الله عز وجل للإنسان أي ان الأهلة وردت من باب المثال وليس الحصر، فالنعمة تنزل للناس جميعاً لينتفعوا منها، فغير المسلم ينتفع منها على نحو الموجبة او السالبة الجزئية ويكون فيه حساب، والمسلم يستثمرها للبر وللأجر والثواب.

ومـن مفـاهيم قولـه تعـالى ﴿وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا﴾ انـه تأسيس للقواعـد الأخلاقيـة والنـواميس التأديبيـة للحيـاة الأسـرية والإجتماعيـة وفيـه توثيـق للأواصـر والصـلات واسـباب النسـب والسبب واحـترام الإنسـان في بيتـه مسـلماً كـان او غـير مسـلم واستقلاله في شؤونه وتدبير منزله.

وتمنـع الآيـة مـن الكيـد والغيلـة واللـف والـدوران وتـدعو الى الوضـوح وكشـف الأمـور وبيـان الحاجـات والأغـراض والمقاصـد والتوكيـد علـى التقـوى في المعـاملات والأحكـام وامـور الحيـاة اليوميـة العامـة ولم يكـن الأمـر بـدخول البيـوت مـن ابوابهـا مجرداً او ان النهـي عـن اتيانهـا مـن ظهورهـا مطلـوب بذاتـه لإحتمـال ان يكـون هـذا الـدخول غـير شـرعي، او يتضـمن النهـب او السـرقة او التعـدي، ويسبب الخـوف والفـزع فجـاء قيـد التقـوى وهـو قيـد احـترازي ولـيس توضـيحياً، وسـر اعجـازي في لغـة القـرآن وبيـان احكامـه فهـو بـرزخ دون التهـاون والإسـتخفاف بـالحقوق العامـة، فـان التعـدي مـن الأبـواب مباشـرة اشـد هتكـاً للحرمـات عنـه حينمـا يكـون مـن ظهـور البيوت.

ولمـا امـرت الآيـة الكريمـة بالإتيـان مـن الأبـواب وقيدتـه بـالتقوى اخرجـت الإتيـان للتعـدي وعلـى نحـو غـير شـرعي مطلقـاً مـن مضـمون الآيـة منطوقـاً ومفهومـاً وبينـت الغايـات التأديبيـة والإصـلاحية لنزولهـا فهـي بنـاء اخلاقـي واجتمـاعي الى يـوم القيامـة، ومرتبـة مـن الرقـي الحضاري متقدمة في زمانها وسط مجتمع الجزيرة المتخلف.

فمـن اعجـاز القـرآن الغـيري انـه يـدعو النـاس الى الإسـلام واداء العبـادات والفـرائض والخـروج الى الجهـاد والى تنظـيم المجتمـع

واصلاح الأسرة ومنع التجاوزات اليومية التي تتضمن الإهانة وهتك البيوت وما يكون مقدمة للفواحش والفسق.

ولم تكتف الآية بالإخبار عن الملازمة بين البر والتقوى بل انها امرت بالتقوى مطلقاً سواء ما يخص مواضيع هذه الآية او بغيرها وما يتعلق بالتقوى بخصوص هذه الآية هو نوع السؤال وموضوعه وتلقي الجواب السماوي بروح القبول والتدبر واستثماره من العلماء والدارسين كل بحسب اختصاصه ووفق ابواب العلوم المختلفة واستنباط الدروس والعبر والأحكام واعتماده دليلاً لإثبات اعجاز القرآن وصدق نزوله من عنده تعالى، مع تجديد البحث والتحقيق العلمي في كل زمان وعندما تستظهر علوم جديدة في بابه، أي انه عندما دخلنا بعصر الصعود الى القمر نستقرأ الآيات الخاصة بالقمر والأهلة.

وعندما نبحث السكن على القمر وغيره من الكواكب تتجدد الأبحاث العلمية، والأولى ان تكون هذه الأبحاث سابقة لعصرها بمعنى ان القرآن وتفسيره وتأويله يكون مدخلاً ومقدمة وعوناً على التجارب والدراسات العلمية المحضة.

لتكون شاهدة على الإعجاز فهناك فرق ان نستشهد بالآية القرآنية على الظاهرة العلمية بعد حصولها وتحقق افرادها في الخارج وبين ان نخبر عنها استقراء من القرآن قبل ان يتوصل لها العقل البشري مع ايصال النظريات المستقرأة والمقتبسة من علوم القرآن الى العالم كله خصوصاً ذوي الإختصاص ومراكز البحوث العالمية، فالقرآن هبة السماء للناس جميعاً، وهذه الآية شاهد على ذلك لأنها وردت بلفظ الناس وتعلقت بمصاديق الإرادة التكوينية.

وخاتمة الآية لغة كريمة ينفرد بها القرآن من بين الكتب السماوية لما فيها من البشارات وتعليق الفلاح والفوز على الإلتزام بالتقوى وقبوله من عنده تعالى بالرضا ومفاهيم (لعل) في المقام ان تحصيل الفلاح لا ينحصر باتيان البيوت من ابوابها لأنه معلق على اداء العبادات وحسن الإمتثال للأوامر الإلهية واجتناب النواهي.

إفاضات الآية

كل آية من القرآن مناسبة للشكر لله عز وجل في موضوعها ودلالاتها وحكمها، وتتعدد موارد الشكر في هذه الآية الكريمة لما فيها من البركات المتصلة، فسؤال المسلمين واليهود للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم قضية في واقعة إنتهت في ساعة واحدة، ولكن منافعها وآثارها بقيت إلى يوم القيامة بتوثيق القرآن لها، وبيانها للمسألة والجواب ومجئ الجواب من عند الله عز وجل نفسه.

فلم يفوض الله عز وجل الجواب إلى جبرئيل عليه السلام، ولم يأت الجواب بالسنة النبوية هي التي من مصاديق الوحي، لتكون الآية ضياء يجذب البصائر إلى الإسلام ودعوة للتدبر في آيات القرآن، فليس على النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم إلا أن يتلو الآية القرآنية فيعلم الناس أن الآية هي الجواب الوافي والباقي والمتجدد في معانيه.

وجاءت الآية لإصلاح المسلمين للصلاح، وهي برزخ بينهم وبين الفساد واللغو، وفعل ما لا أصل لها، فذكرت لزوم هجران الدخول للبيوت من ظهورها، ودعت المسلمين إلى الخشية من الله عز وجل، والتقيد بأداء الوظائف العبادية.

ومع تفضل الله عز وجل بالإجابة على الأسئلة الموجهة إلى النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم فانه سبحانه هدى المسلمين إلى سبل التقوى، للتنبيه إلى مسألة وهي عدم الوقوف عند الأسئلة فان هذا

الوقـوف يضـر بهـم وبعبـاداتهم ويحـول دون تفقهـم في الـدين قـال تعالى ﴿لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ﴾ (١).

وإذا كـان موضـوع دخـول البيـوت مـن خلفهـا مسـألة إبتلائيـة عنـد الإحرام في موسـم الحج فـان التقـوى حاجـة للمسـلمين والمسلمات، فـاذا جـاء السـؤال مـن نفـر مـن اليهـود فـان الجـواب جـاء رحمـة بالمسـلمين جميعاً وهـو رسـالة لهـم بـأنكم على الصـراط القـويم بإختيـار إتبـاع الـنبي محمـد صـلى الله عليـه وآلـه وسـلم ونصـرته، وزاد الله عـز وجـل علـيهم من فضله بأن أرشدهم إلى سبل التقوى.

وفيه مسائل:

الأولى : إنه آية إعجازية في إفاضات ومعاني هذه الآية الكريمة.

الثانيـة : الإسـلام ديـن التقـوى والصـلاح، ولـيس هـو النطـق بالشهادتين فحسب.

الثالثة : بعث للفزع في قلوب الكفار من المسلمين.

الرابعـة : مـن خصـائص المسـلمين أنهـم يؤمنـون بالتنزيـل ويـؤدون العبـادات والتكـاليف، ويسـعون إلى الفـلاح والنجـاح في النشـأتين، ومـن أبهـى مصـاديق الفـلاح، تعاهـد الأمـر بـالمعروف والنهـي عـن المنكـر، قـال تعـالى ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ (٢).

ومنهـا الـدفاع عـن الـنبي محمـد صـلى الله عليـه وآلـه وسـلم والإسـلام، فـالنبي الـذي يسـمع الله عـز وجـل سـؤال النـاس لـه، ويتفضـل الله سـبحانه وينـزل عليـه الجـواب الـوافي التـام وبآيـة قرآنيـة معصـومة مـن

---

(١) سورة المائدة١٠١.

(٢) سورة آل عمران١٠٤.

التحريف والتبديل والتغيير تجب نصرته والدفاع عنه، وهو الأمر الذي تتحقق شواهده في كل زمان باخلاص المسلمين في الإيمان وعشقهم للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم في رسالته، وحرصهم على التقيد بسنته الشريفة.

وتدل الآية على حقيقة وهي أن الله خلق الأكوان وهو غني عنها، وغير محتاج لها إنما هي لنفع الناس.

وسواء جاء السؤال عن علة وسبب خلق الأهلة أو إرادة معرفة الغاية منها، فان الآية بينت أن الأهلة رحمة لأهل الأرض عامة، مثلما نبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم رحمة لأهل الأرض جميعاً ولتكون حجة على الناس، قال تعالى﴿فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ﴾ (1).

الآية لطف

تدل الآية بالدلالة الإلتزامية على إنتهاء وإنقطاع زمان الحيرة بين الناس، فاذا كانت هناك مسألة معضلة يؤتى إلى النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم ليأتي الجواب والأمر من الله عز وجل بما ينير دروب السالكين، فان قلت قد إنتقل النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم إلى الرفيق الأعلى، والحيرة والشك أمران متجددان.

والجواب لقد جعل الله عز وجل القرآن﴿تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ﴾ (2).

وفيه أمور:

الأول: المسائل المستحدثة.

الثاني: دعوة للناس للرجوع إليه.

الثالث : إستنباط الأحكام والأجوبة منه.

---

(1)سورة الأنعام١٤٩.

(2)سورة النحل٩٠.

الرابع : إستقرار المسائل وأجوبتها منه فان لم يسأل الناس، فالقرآن يتضمن الأسئلة وأجوبتها.

وهو من أسرار إتصاف هذه الآية بوجوه:

الأول : مجئ الآية بصيغة الجملة الخبرية التي تفيد الصدق والقطع.

الثاني: لغة الجمع من طرف السائلين.

الثالث : صيغة الفعل المضارع.

ومن اللطف الإلهي في الآية أنها تذكير بالعبادات، وبعث لأدائها، ففي كل مرة يتلو المسلم الآية أو يسمعها يتذكر فريضة الحج، والصيام وقربها منه سواء بالنسبة للعام الفائت أو العام التالي، وينبعث الشوق في نفسه لأداء مناسك الحج قال تعالى﴿وَأَذَانٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ﴾[1].

الصلة بين أول وآخر الآية

إبتدأت الآية بصيغة الخطاب للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم عن أمر حادث ويحدث، أما أنه حادث ، وما ورد في أسباب نزول الآية وهي على شعب:

الأولى : سؤال اليهود للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم عن الأهلة، وهذا السؤال جاء بطريقين:

الأول: السؤال المباشر من اليهود، ولا دليل عليه.

الثاني: سؤال اليهود للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم بواسطة الأنصار، قال معاذ : يا رسول الله إن اليهود تغشانا ويكثرون

(١)سورة التوبة٣.

مسألتنا عن الأهلة فما بال الهلال يبدو دقيقا ثم يزيد حتى يستوي ويستدير ثم ينتقص حتى يعود كما كان ؟ فأنزل الله هذه الآية[١].

الثانية : السؤال من الناس مطلقاً من غير تقييد بفصل وصفة وإنتماء، وبالإسناد عن ابن عباس قال : سأل الناسُ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن الأهلة، فنزلت هذه الآية: "يسألونك عن الأهلة قل هي مواقيت للناس" يعلمون بها حَلّ دينهم، وعدة نسائهم، ووقت حجهم[٢]، وان كان ظاهر ليكون ذكر الديون عاماً للناس جميعاً، أما العدة والحج فهو أمر يخص المسلمين في الجملة.

الثالثة: سؤال المسلمين عن الأهلة تفقهاً في علوم السماء.

والصحيح هو الطريق الأول من الشعبة الأولى، وبه جاء النص على نحو التعيين بينما وردت الأنباء الأخرى بلفظ الناس، فيكون من المطلق والمقيد، ولكنه لايمنع من تعدد السؤال.

وأما أنه يحدث فلزيادة أعداد المسلمين، قال تعالى﴿وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا﴾[٣]، ولتوجه اليهود والنصارى لسؤال النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم من غير حصر أو تقييد للمسائل التي يسألونها، وفيه مصداق حق وشاهد على نبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم لأنه أذن بسؤاله على نحو الإطلاق.

ولم يمنع المسلمين وأهل الكتاب وغيرهم من سؤاله عن أية مسأله.

---

(١)تفسير القرطبي٢/٣٣٩.

(٢)تفسير الطبري٣/٥٥٤.

(٣)سورة النصر٢.

ولم يأمر الصحابة بحجب الناس أو بعض الوفود، ويطلب زجر الذي يسأل إختباراً أو تعنتاً، نعم جاء التأديب من الله في ماهية السؤال﴿لاَ تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ﴾[(١)].

وقد يأتي إخبار النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم عن الأهلة إبتداء وللبيان والتفسير والإصلاح والتذكير بنعمة الله.

وأخرج الحاكم وصححه والبيهقي في سننه عن ابن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : جعل الله الأهلة مواقيت للناس فصوموا لرؤيته ، وافطروا لرؤيته ، فإن غم عليكم فعدوا ثلاثين يوماً.

وأخرج أحمد والطبراني وابن عدي والدارقطني بسند ضعيف عن طلق بن علي قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: جعل الله الأهلة مواقيت للناس فإذا رأيتم الهلال فصوموا وإذا رأيتموه فأفطروا فإن غم عليكم فأكملوا العدة ثلاثين[(٢)].

لقد أفتتنت بعض الأمم بالشمس والقمر، وإتخذوهما إلهين ، فجاءت هذه الآية لتقضي وإلى يوم القيامة على هذا الإقتتان، وهو من أسرار الإطلاق المتعدد في الآية من جهة التنكير في السؤال(يسألونك) والعموم في قوله تعالى ﴿مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ﴾ فمن يكون ذات الشئ ميقاتاً له، ويتخذه لمعرفة الحساب والآجال فانه يدرك أن إتخاذه إلهاً أمر قبيح، فيتوجه إلى الله عز وجل إلهاً ورباً وخالقاً، كما ورد في إبراهيم وإقامته الحجة على أهل زمانه وزجرهم عن الإفتتان

---

(١)سورة المائدة١٠١.

(٢)الدر المنثور١/٤٠٧.

بالمخلوقات، قال تعالى ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ﴾[1].

وحدوث السؤال عن الأهلة لاينحصر بأسباب التنزيل ، فجاءت الآية رحمة بالمسلمين عامة وعلمائهم خاصة.

وأخرج الطستي عن ابن عباس . أن نافع بن الأزرق قال له : أخبرني عن قوله {مواقيت للناس} قال : في عدة نسائهم ، ومحل دينهم ، وشروط الناس ، قال : وهل تعرف العرب ذلك؟ قال : نعم ، أما سمعت قول الشاعر وهو يقول:

والشمس تجري على وقت مسخرة...إذا قضت سفراً استقبلت سفرا[2].

وليس في الآية بين السؤال إلى النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم والإجابة من الله عز وجل وهلة نحو التفصيل والبيان.

وفي الآية دعوة للناس للشكر على نعمة الأهلة وتعاقبها وما فيها من البهاء والتبدل الذي يدل على بديع صنع الله وتسخيرها للناس.

ومن الآيات أن الله عز وجل لم يحجب آيات السماء والنفع منها عن أي جماعة أو أهل ملة أو بلد فقد أباحها للجميع، ورب كافر ينتفع منها في أمور الدنيا والمعاشات أكثر من المؤمن.

ومنها أن القمر يجذب أنظار الناس خصوصاً عندما يكون بدراً ويضيئ الأرض بنوره ويدعوهم لعبادة الله عز وجل، والتدبر في مخلوقاته.

وكل إنسان يعلم أن وجود القمر سابق لوجوده في الأرض، ويغادر هو الدنيا بينما تبقى الأهلة في جريانها المنتظم لتكون شاهداً

---

(١)سورة الأنعام٧٦.

(٢)الدر المنثور١/٤٠٧.

عليه وعلى غيره يوم القيامة بالإتعاظ والإنتفاع منها، ولزوم ترجمة هذا الإنتفاع إلى إقرار بالعبودية لله عز وجل، لذا جاءت خاتمة الآية بالحث على التقوى.

وجاءت الآية بالخطاب إلى النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم والأمر الإلهي له من جهات:

الأولى: وجوب الرد والجواب، وهل هذا الرد فوري وفي المجلس، أم أن الآية نزلت فيما بعد، الجواب هو الأول، خصوصاً وأن النصوص وردت بحرف العطف الفاء(فنزلت) (فانزل).

الثانية : بيان فضل الله على الناس جميعاً في الأهلة باتخاذهم لها حساباً وآجالاً للديون ونحوها، وفيه آية من عند الله بأن هذا الحساب لايقبل الخطأ والترديد، ولا يترتب عليه خلاف وخصومة في تعيين أوان الآجل، وهو من موارد التخفيف عن المسلمين بإجتناب أكل المال وعدم اللجوء إلى الحكام، وهو من عمومات الآية السابقة﴿وَلاَ تَأْكُلوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ﴾[1].

وقد ذكرت آيات أخرى نور القمر، وإبتهاج أهل الأرض باطلالته قال تعالى﴿وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا﴾[2]، وبين الأهلة والقمر عموم وخصوص مطلق، لأن الأهلة أعم، وتشمل حالات القمر، لذا إذا نذر شخص عملاً مستحباً في هلال شهر مخصوص فيجزيه ويصح منه في أي يوم أو ليلة من ذات الشهر، وان جاء النذر بلفظ الهلال.

---

(١)سورة البقرة١٨٨.

(٢)سورة نوح١٦.

ويدل عليه قوله تعالى﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾[١]، وللفصل بين الشهر والآخر برؤية الهلال، وهل وظيفة الهلال كالبسملة في الفصل بين سور القرآن.

الجواب لا، لأن الهلال آية متجددة طيلة ليالي الشهر، ووظائف البسملة أعم من الفصل بين السور، ومن تجدد آيات الهلال، تغير هيئته إتساعاً وضيقاً لنوره، فيخرج في أول ليلة كالخيط الذهبي يترائى الناس له، ومنه أقتبس اسم الهلال لأن الناس يرفعون أصواتهم برؤيته والإخبار عنه، ولكن هذا الإقتباس ليس هو علة تسمية الأهلة بل لها دلالات عقائدية، (واستهلَّ الصبيُّ بالبُكاء رفع صوتَه وصاح عند الوِلادة وكل شيء ارتفع صوتُه فقد استهلَّ والإِهْلالُ بالحج رفعُ الصوت بالتَّلْبية وكلُّ متكلم رفع صوته أَو خفضه فقد أَهَلَّ واستهلَّ وفي الحديث الصبيُّ إِذا وُلِد لم يُورَث ولم يَرِثْ حتى يَسْتَهِلَّ صارخاً)[٢]، ويقال للصبي استهل وجهه فرحاً وتهلل : إذ إستبشر وظهر على محياه السرور.

نظرت عائشة يوماً إلى وجه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم:

(فبسمت، فقال لها : مم تبسمت يا عائشة؟ فقالت : تأملت وجهك، ولو كان أبو كبير الهذلي رآك ما قال ما قال؛ فقال عليه الصلاة والسلام : وما قال؟ فأنشدت:

وإذا نظرت إلى أسرة وجهه ... برقت كبرق العارض المتهلل)[٣].

وبعد الخطاب للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم والإخبار عن ماهية الأهلة ومنافعها العامة للناس إنتقلت الآية للخطاب للمسلمين

---

(١)سورة البقرة١٨٥.

(٢)لسان العرب٧٠١/١١.

(٣)ربيع الأبرار ١٣٥/١.

والمسـلمات بصـيغة النفـي والإثبـات في الموضـوع المتحـد في لفظـه وهو(البر) ولكنه متعدد في مصاديقه فهو الخير والصلاح والفلاح.

وهـل يـدخل فيـه الأمـر بـالمعروف والنهـي عـن المنكـر الجـواب نعـم، وكأنـه لـيس مـن سـور جـامع يحيط بمعـاني الـبر إلا التقـوى، وتلـك آيـة في دلالات وميـادين التقـوى فهـي موجـودة في كـل فعـل وقـول لأنهـا خشـية مـن الله حاضـرة في الوجـود الـذهني، ولهـا موضـوعية في إختيـار الفعـل أو تركه، وملكة مباركة تصدر عنها الأفعال.

إن دخـول البيـوت مـن ظهورهـا حالـة خاصـة ومحـدودة في جماعـة مـن الأنصـار وعـادة تـزول بـأمر مـن الـنبي محمـد صـلى الله عليـه وآلـه وسلم فلماذا جاء بها قرآن الجواب من وجوه:

الأول : بيـان حقيقـة وهـي أن نبـوة محمـد صـلى الله عليـه وآلـه وسـلم جـاءت بـين أقـوام علـى عـادات جاهليـة، ويصـعب علـيهم الـتخلص منهـا، فكانـت فـوق الـوحي والتنزيـل قـاهرة لتلـك العـادات، بمـا أن القـرآن كـلام الله، وهـو مـن الإعجـاز الغـيري للقـرآن وأثـره في تبـديل ونسخ العادات بحسب ملاك المصلحة.

الثـاني: بيـان مرتبـة الفقاهـة الـتي صـار إليهـا المسـلمون، بحيـث يتلقون ترك العادات غير الصحيحة بالتنزيل.

الثالـث: بعـث الخـوف والفـزع في قلـوب الكفـار مـن الـنبي محمـد صلى الله عليه وآلـه وسـلم والمؤمنين إذ يـأتي القـرآن بـنقض العـادة الـتي لا أصـل لهـا، فمـن بـاب الأولويـة أن يـأتي القـرآن بسـبل وأسـباب إنتصارهم، وسلامتهم من كيد الكفار.

الرابـع: بيـان الكـبرى الكليـة وهـي أن التقـوى مصـداق الـبر والصلاح.

الخامس : دعوة المسلمين لعرض العادات على القرآن، وما خالفه فلابد من تركه، والإتيان بالفعل القويم وبناء صرح دائم من العادات والأعراف التي تقتبس من القرآن. وتحكي تقيد المسلمين بسننه وآدابه.

وإجتناب العادة التي فيها تشديد على النفس من غير مسوغ شرعي، وعن ابن عباس : كان الناس في الجاهلية وفي أول الإسلام إذا أحرم رجل منهم بالحج فإن كان من أهل المدر ـ يعني من أهل البيوت ـ نقب في ظهر بيته فمنه يدخل ومنه يخرج أو يضع سلماً فيصعد منه وينحدر عليه وإن كان من أهل الوبر ـ يعني أهل الخيام ـ يدخل من خلف الخيمة إلا من كان من الحمس[١].

الحُمْسُ قريش ومَنْ وَلَدَتْ قريش وكنانة وجَديلَةُ قَيْسٍ وهم فَهْمٌ وعَدْوانُ ابنا عمرو بن قيس عَيْلان وبنو عامر بن صَعْصَعَة هؤلاء الحُمْسُ سُمُّوا حُمْساً لأنهم تَحَمَّسُوا في دينهم أي تشدَّدوا قال وكانت الحُمْسُ سكان الحرم وكانوا لا يخرجون أيام الموسم إلى عرفات إنما يقفون بالمزدلفة ويقولون نحن أهل اللّه ولا نخرج من الحرم وصارت بنو عامر من الحُمْسِ وليسوا من ساكني الحرم لأن أُمهم قرشية وهي مَجْدُ بنت تيم بن مرَّة وخُزاعَةُ سميت خزاعة لأنهم كانوا من سكان الحرم فَخُزِعُوا عنه أي أُخْرِجوا ويقال إِنهم من قريش انتقلوا بنسبهم إِلى اليمن وهم من الحُمْسِ[٢].

ووردت روايتان متحدتان في الموضوع وهما:

الأولى : أخرج ابن جرير عن الزهري قال : كان ناس من الأنصار إذا أهلوا بالعمرة لم يحل بينهم وبين السماء شيء يتحرجون

---

(١)تفسير القرطبي٢/٣٣٩.

(٢)لسان العرب ٦/٥٧ .

من ذلك ، وكان الرجل يخرج مهلاً بالعمرة فتبدو له الحاجة فيرجع ولا يدخل من باب الحجرة من أجل سقف الباب أن يحول بينه وبين السماء ، فيفتح الجدار من ورائه ، ثم يقوم في حجرته فيأمر بحاجته فتخرج إليه من بيته ، حتى بلغنا أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أهل زمن الحديبية بالعمرة ، فدخل حجرة ، فدخل رجل على أثره من الأنصار من بني سلمة ، فقال له النبي صلى الله عليه وآله وسلم : إني أحمس . وكان الحمس لا يبالون ذلك ، فقال الأنصاري : وأنا أحمس . يقول : وأنا على دينك . فأنزل الله{ وليس البر . . . }[١].

الثانية : وأخرج ابن جرير عن السدي قال: إن ناساً من العرب كانوا إذا حجوا لم يدخلوا بيوتهم من أبوابها كانوا ينقبون في أدبارها ، فلما حج رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حجة الوداع أقبل يمشي ومعه رجل من أولئك وهو مسلم.

فلما بلغ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم باب البيت احتبس الرجل خلفه وأبى أن يدخل . قال : يا رسول الله إني أحمس . وكان أولئك الذين يفعلون ذلك يسمون الحمس ، قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : وأنا أيضاً أحمس فادخل ، فدخل الرجل ، فأنزل الله { وأتوا البيوت من أبوابها }[٢].

أما الرواية التي ذكرت أنه(كانت قريش تدعي الحمس ، وكانوا يدخلون من الأبواب في الإِحرام ، وكانت الأنصار وسائر العرب لا يدخلون من باب في الإِحرام ، فبينا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في بستان إذ خرج من بابه ، وخرج معه قطبة بن عامر

---

(١)الدر المنثور١/٤٠٨.

(٢)الدر المنثور١/٤٠٩.

الأنصاري فقالوا : يا رسول الله إن قطبة بن عامر رجل فاجر ، وإنه خرج معك من الباب فقال له : ما حملك على ما صنعت؟ قال : رأيتك فعلته ففعلته كما فعلت . قال : إني رجل أحمس . قال له : فإن ديني دينك . فأنزل الله { وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها } الآية[1].

فهي ضعيفة دلالة بعد أن قال الأنصار أن قطبة هذا فاجر، فكيف تنزل الآية على قوله خصوصاً وان الروايات الآخرى في ذات الموضوع وردت بصيغ أخرى وأن الآية جاءت لترك هذه العادة، وليس أن قطبة هذا تركها، والنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم سأله بصيغة الإستفهام الإنكاري ونزلت الآية وفق ما قاله قطبة.

وجاءت الآية بصيغ ترتيبية هي :

الأولى : الخطاب للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

الثانية: الخطاب لفريق من المسلمين بخصوص مقدمات الحج، وحال الإحرام.

الثالثة : بيان قانون عام مصاحب لحياة الناس في الأرض والى يوم القيامة، وهو التساوي والمطابقة بين البر والتقوى.

الرابعة : الأمر للمسلمين والمسلمات بتقوى الله والخشية منه والتقيد التام بالوظائف العبادية، ومنها الحج، فان ترك إتيان البيوت من ظهورها من التقوى، وكذا ترك مايخالف القرآن والسنة في مناسك الحج والعبادات الأخرى.

وأختتمت الآية برجاء فوز المسلمين بالفلاح والنجاح، وتدل الآية في مضامينها على أن الله عز وجل سخّر للناس الآيات الكونية

---

(١)الدر المنثور١/٤٠٨.

لهدايتهم ولتكون بلغة لهم في أمور الدين والدنيا، قال تعالى﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ﴾[1]، والله سبحانه يأخذ بأيدي المسلمين نحو سبل الفوز والفلاح، ولأن الدنيا دار إختبار وإمتحان فانه سبحانه حثهم على التقوى والإقامة في منازلها لأنها الطريق الوحيد للفلاح والنجا في الدنيا وفي الآخرة.

من غايات الآية

في الآية مسائل:

الأولى: تبين الآية رحمة الله عز وجل بالناس في تسخير الأهلة لهم في حاجات الدين والدنيا، وهو من عمومات قوله تعالى﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾[2]، بلحاظ أن الله عز وجل يقرب يقرب الناس إلى عبادته، ويجذبهم إلى مقامات الإيمان، ويدعوهم بآيات التنزيل ومعجزات النبوة إلى الإسلام، ثم يأمرهم بالتقوى، وما تدل عليه من تكامل الإيمان قال تعالى﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمْ اللَّهُ﴾.

الثانية : بيان موضوعية الأهلة في خلقها وأنها آية من عند الله، وهي آية توليدية متعددة من جهات:

الأولى: خروج الهلال خيطاً ذهبياً ضعيفاً.

الثانية: إتساع نور الهلال وإزدياد حجمه كل ليلة إلى منتصف الشهر، ثم أخذه بالنقصان إلى أوان المحاق.

---

(١)سورة إبراهيم٣٣.

(٢)سورة الذاريات٥٦.

الثالثة: التباين بين الشمس والقمر إذ أن الشمس ثابتة في حجم القرص وإطلالته تاماً كل يوم، بينما يتباين بنظام دقيق حجم الهلال، لأن الله عز وجل جعله ميزان المواقيت، ومادة معرفة الآجال.

الرابعة : الملازمة بين الهلال وبين الليل، فهو لايطل على الناس بنوره إلا في الليل ليأذن بالصيام أو الإفطار، ويشير للإستعداد لذات الشهر أو الليلة بالنسبة للآجال والمواعيد قال تعالى﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ (١)، فان قلت أصبح الناس يعتمدون التقويم الدقيق، الذي يدخل كل بيت ويظهر في الساعة والهاتف والحاسبة والسيارة، والجواب من وجوه:

الأول : هذه الحال والإرتقاء في التعلم من فضل الله عز وجل على أهل هذا الزمان.

الثاني : جاءت آيات القرآن مناسبة لكل الأزمنة.

الثالث: كان الناس يحتاجون في بداية الإسلام إلى ضبط للمواقيت ليستطيعون معه الإتحاد والإشتراك في العبادة التي لها أوان مخصوص كالصيام والحج، فكان الهلال يدعو الناس للحج، وهو من عمومات قوله تعالى﴿وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾ (٢).

فالنبي يؤذن بالحج، ويدعو الناس إليه، أما أوانه فيعرف الناس بالأهلة، وإلا لصار حرج شديد، إذ يصل بعضهم إلى مكة قبل أوان الحج بأشهر، أو يأتي الحاج وقد فاته الموسم ويضطر للبقاء إلى الموسم التالي فتعطل الأعمال، ويحصل إرباك وفزع عند أهله.

---

(١)سورة البقرة١٨٥.

(٢)سورة الحج٢٧.

بالإضـافة إلى أن الخـروج في غـير أوان الحـج تنعـدم معـه الرفقـة وقوافـل الحـاج قـال تعـالى ﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ﴾ [1]،، فيتعـرض المنفـرد والجماعـة القليلـة إلى الأخطـار والآفـات وكـذا بالنسـبة لحركـة سـير القوافل والتجارات في غير فريضة الحج وأمور العبادات.

فـان قلـت إن قريشـاً كانـت تختـار أوان الـبرد والحـر لقولـه تعالى ﴿إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ﴾ [2].

والجـواب لـيس مـن ملازمـة بـين السـفر والأهلـة في كـل الأمـور، وحتـى بخصـوص قـريش فـانهم يتفقـون علـى تعـيين اليـوم والموعـد القريـب للسـفر بلحـاظ الأهلـة، خصوصـاً وأنهـم يجتهـدون باحضـار البضـائع في الشـتاء مـن الـيمن، وفي الصـيف مـن الشـام إلى مكـة في موسـم الحـج، ومجئ القبائـل إلى الحـج وكانـت عنـدهم أسـواق مشـهورة في موسم الحج مثل سوق ذي المجاز، وعكاظ.

الخامسـة : بيـان حقيقـة تأريخيـة وهـي أن النـاس يتوجهـون إلى الـنبي محمـد صـلى الله عليه وآلـه وسـلم ليسـألوه عـن أمـور الـدين والـدنيا، وهـو نـوع تسـليم بنبوتـه، ومـن أراد الإختبـار فـان الله عـز وجـل هـو الـذي يشـهد لـه بصـدق نبوتـه بـالجواب الإعجـازي، وهـو مـن عمومـات قولـه تعالى ﴿لَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾ [3].

(١)سورة البقرة١٩٧.

(٢)سورة قريش٢.

(٣)سورة الزمر٣٦.

السادسة : تأديب المسلمين بالدخول من الأبواب، ومواجهة الحقائق والسعي للفتح وتعظيم شعائر الله قال تعالى﴿وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾(١).

السابعة: ترغيب المسلمين بخصال التقوى وبعثهم على الإرتقاء إلى منازلها.

الثامنة: الآية من الشواهد على أن الله حبب الإيمان للناس وجعل التقوى تهوى البر وتميل إلى الصلاح.

وجاءت الآية بالإخبار بأن البر يتجلى بتقوى الله عز وجل، وفيه دعوة لإقتران الإحسان وفعل الصالحات بقصد القربة، ورجاء الثواب.

التاسعة: تفضل الله عز وجل بأمر المسلمين بترك العادات التي لا أصل لها مثل دخول البيت من ظهره عند الإحرام.

وهل هذا الترك من التقوى، الجواب نعم ليكون حرف العطف (الواو) في قوله تعالى﴿وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ اتَّقَى وَأْتُوا﴾ هو من عطف الخاص على العام، فما أن بينت الآية لزوم التقوى حتى ذكرت فرداً منها بلحاظ مناسبة الموضوع.

ثم جاء قوله تعالى﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ من عطف العام على الخاص كما في قوله تعالى﴿اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنْ الرِّبَا﴾ (٢)، فترك الربا من التقوى ويستلزم التقوى كسلاح للتنزه عن الربا وآثاره، لتكون

---

(١)سورة الحج٣٢.

(٢)سورة البقرة٢٧٨.

التقوى هي البداية والإستدامة والنهاية في عمل الإنسان فتأتي العاقبة وهي الفلاح لإختتام الآية بقوله تعالى﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾.

العاشرة: إرادة إتحاد مناسك الحج عند عموم المسلمين، فليس من تقسيم يحدث تبايناً بين المسلمين في أدائها، أو فيما يلازم الإحرام، وإصرار بعضهم على التمييز وتفضيل الذات بفعل مخصوص لأنه من الحمس، ومثلاً إدعاء قوم في الحج أنهم من قريش والحمس ونكران الآخرين لهذا الإدعاء كما في خزاعة مثلاً ففيها قولان أحدهما أنها من الحمس والآخر ليس منهم، فجاءت نبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم لتوحد المسلمين في مرضاة الله، وتتضمن الإتحاد في أداء المناسك، وهو من عمومات قوله تعالى﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾(١).

ومنع العادات الخاصة في أداء مناسك الحج غلق لباب التباين فيه بلحاظ خصوصية مستديمة أو مستحدثة ، فليس للحاكم والرئيس ونحوه الإمتناع عن بعض مناسك الحج بسبب مقامه أو شدة الحرج ونحوه، فكل المسلمين متساوون في أداء الفرائض والمناسك الحاكم والمحكوم، والسيد والعبد، والذكر والأنثى، وفي هذا التساوي برزخ دون حصول التحريف في أحكام الشريعة،

لتنفرد أجيال المسلمين وإلى يوم القيامة بتعاهد ماجاء به النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم من الأحكام والسنن ، وهو من عمومات قوله تعالى﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ (٢).

---

(١)سورة الحجرات١٠.

(٢)سورة آل عمران١١٠.

التفسير

تفسير قوله تعالى ﴿يَسْأَلُونَكَ﴾

الأولى : وردت مـادة (يَسْأَلُونَكَ) خمـس عشـرة مـرة في القـرآن وباسـتثناء أمـر يـوم القيامـة الـتي جـاء عنهـا السـؤال ثـلاث مـرات، اظهـاراً لأهميـة أوانهـا عنـد النـاس فـان كـل آيـة تتعلـق بمسـألة مـن الأحكام الشرعية او السنن والإرادة التكوينية.

الثانية : هذه الآية من سورة البقرة هي اول آية منها تأتي لبيان اوان الحج والأخبار عن تعيينه بوقت محدد في الجملة.

الثالثـة : اذا مـا جعلنـا اعتبـاراً لهـذا الترتيـب في مواضـيع الآيـات فابتـداء السـؤال وفـق نظـم القـرآن عـن الحـج في هـذه الآيـة يـدل علـى عظـيم منزلـة فريضـة الحـج في الإسـلام وحاجـة النـاس الى الأهلـة وارتباط الأعمال برؤية الهلال وسير القمر.

الرابعـة : وهـذا الإعتبـار والتقسـيم لا يتعـارض مـع الأهميـة الموضـوعية وفـق التـوالي في النـزول او اهميـة المتـأخر مـن الآيـات المتعلقة بموضوع واحد بلحاظ الناسخ والمنسوخ.

الخامسـة : جاءت سبعة مـن قولـه تعـالى ﴿يَسْأَلُونَكَ﴾ في سـورة البقـرة وحـدها وباضـافة ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾[1] الـتي تقـدم تفسـيرها، وورود هـذا العـدد مـن الآيـات المتعلقـة بالسـؤال والإسـتفتاء في سـورة البقـرة وحـدها يـدل علـى تضـمنها لشـطر مـن الأحكام والبيان والأسرار الكونية والتشريعية.

السادسـة : توجـه النـاس الى الـنبي صـلى الله عليـه وآلـه وسـلم في السـؤال وطلـب المعـارف الإلهيـة والعلـوم الإنسـانية آيـة اعجازيـة

---

(1) سورة البقرة ١٨٦.

وأمارة على رسوخ الإسلام والتجاء الناس الى النبوة فيما يحتاجون اليه واحكام المسائل الإبتلائية التي تواجههم في حياتهم العملية الدينية والدنيوية.

السابعة : صيغة الجمع في مصدر السؤال ﴿يَسْـَٔلُونَكَ﴾ وكذا في موضوعه وانه عن الأهلة مجتمعة يدل على الشمول ورجاء الإطلاع والثقة بالرسالة والنبوة.

الثامنة : تبين الآية وظائف النبوة واستماع النبي صلى الله عليه وآله وسلم للناس وتلقيه الأسئلة على نحو متعدد سواء كان بصورة دفعية او تدريجية، كما تدل بالدلالة التضمنية على الأمر للنبي صلى الله عليه وآله وسلم بالإجابة وان تكرر السؤال.

التاسعة : جاءت الآية بصيغة المضارع مع ان السؤال قد حصل مما يعني ان الجواب معجزة متجددة وان مسألة الأهلة غير منقطعة والسؤال والبحث عنها متصل ولعل منه الإهتمام العالمي في هذا الزمان للصعود الى القمر.

العاشرة : لعل في الآية جواباً متقدماً لرحلات الإنسان للقمر وانها خالية من النفع الكثير مع كثرة ما انفق عليها والضجة الإعلامية العالمية حولها فالآية ذكرت انها مواقيت، وصحيح انه لا يعني الحصر الا انه بين الفرد الأهم.

الحادية عشرة : جاءت الآية مدداً وعوناً وتصديقاً لنبوته صلى الله عليه وآله وسلم.

الثانية عشرة : نقل عن ابن عباس انه قال : "ما كان قوم اقل سؤالاً من امة محمد صلى الله عليه وآله وسلم سألوا عن اربعة عشر حرفاً فاجيبوا"، ولكن السؤال في هذه الآيات لم يكن من باب الحصر انما جاء متضمناً معنى المثال الأهم والفرد الظاهر بدليل نصوص من السنة تفيد السؤال.

الثالثة عشرة : انها توكيد قرآني بان اجابات النبي صلى الله عليه وآله وسلم من عنده تعالى وبعلمه وباذنه.

الرابعة عشرة : تعتبر السنة المصدر الثاني للتشريع وهي حجة الا ان يدل دليل على الخلاف كضعف ووهن السند او الدلالة، والمعارضة مع القرآن، فان شرائط الحجية لا تكتمل فيها للشك او الظن بانها ليست من السنة.

الخامسة عشرة : الآية دعوة الى توثيق السنة وتدوين احاديثها وان نقل النهي عن كتابتها ولم يثبت.

السادسة عشرة : لقد بدأ الإسلام بالوحي ونزول القرآن ابتداء، وهذه الآية تخبر عن ثمرات الوحي والفتح، وتدل على اتساع الإسلام والإرتقاء الفكري والعلمي عند المسلمين.

السابعة عشرة : الآية وثيقة سماوية تسجل التفات المسلمين الى الظواهر الكونية كآيات من عنده تعالى.

الثامنة عشرة : في الآية امضاء قرآني بالبحث والتحقيق في الآيات الكونية وعالم الفلك، فالنبي صلى الله عليه وآله وسلم لم يعرض عنهم او يردعهم عن السؤال.

التاسعة عشرة : الوظيفة الأساسية للآيات الكونية هي توجه الناس للعبادة واعانتهم على ادائها على الوجه الأتم.

العشرون : الآية سبق علمي اسلامي لما يحصل في هذا الزمان من الصعود الى القمر،فالسؤال يحمل على المعنى الأعم في البحث والإستقصاء.

الحادية والعشرون : تحمل الآية على تطلع المسلمين الى النبي صلى الله عليه وآله وسلم لكشف اسرار الأفلاك والعلوم المتعلقة بها.

الثانية والعشرون : في السؤال وماهية الجواب دلالة على تضمن القرآن لأسرار السماء، وامتلاك النبي صلى الله عليه وآله وسلم

القدرة على الإخبار عن الغيب وخفايا الكون بإذن الله.

الثالثة والعشرون : السؤال عن الأهلة يعني توجه المسلمين للسؤال عن علوم الفضاء واحوال المناخ وكنوز الأرض وغيرها.

الرابعة والعشرون : تدل الآية على رسوخ واستقرار الحالة الإجتماعية للمسلمين وحصول نوع طمأنينة بحيث استطاعوا السؤال عن المعارف والعلوم.

الخامسة والعشرون : تفتح الآية آفاق الإبحاث والتحقيقات العلمية في افراد الكون.

السادسة والعشرون : تدل الآية على التفات المسلمين لأحكام الشريعة وسعيهم الحثيث للتفقه في الدين.

السابعة والعشرون : تعتبر الآية دليلاً على تنامي ملكة التقوى ورسوخ الإيمان والحرص على التقيد بالأحكام.

الثامنة والعشرون : الآية دعوة لأجيال المسلمين للمبادرة الى البحث العلمي.

التاسعة والعشرون : تسخير الأهلة لعبادات المسلمين اشارة ودعوة الى توظيف الإكتشافات العلمية لخدمة الإنسانية والإسلام.

الثلاثون : تضمنت الآية النفع العام والخاص، فالعام انها مواقيت للناس، والخاص أنها امارة ودلالة على حلول أوان العبادة أي ان الإنتفاع منها مركب ويتعلق بالنشأتين، وبين انتفاع المسلمين وغيرهم من الأهلة عموم وخصوص مطلق فهم يشاركون الناس في اتخاذ الأهلة لحساب المواقيت وينفردون باعتبارها في عباداتهم.

الحادية والثلاثون : الآية حث للمسلمين على السؤال وطلب الفتيا في احكام الدين والدنيا كما تتضمن الأمر الى اولي الحل والعقد بالإجابة وعدم الإمساك او اخفاء العلوم او الأحكام مع عدم وجود المانع الشرعي او العقلي.

الثانية والثلاثون : تبين الآية الملازمة بين حاجات الناس وحاجات المسلمين العبادية.

الثالثة والثلاثون : ينتفع المسلمون من الآيات الكونية على نحو مركب وينتفع غيرهم على نحو بسيط، فالمسلمون ينتفعون منها لأغراض العبادة والحاجات الدنيوية والمعاملات كالديون والآجال والزراعات، وغير المسلمين لا ينتفعون منها الا للحاجات الدنيوية، ولم يكن فيها تخصيص في الرزق الإلهي مما قد يكون حجة للكافرين.

لقد تميز المسلمون حتى في اصل الرزق والإنتفاع من الآيات والعلوم الكونية فالكفار هم الذين حجبوا عن أنفسهم نعمة استثمار هذه الآيات وتوظيفها لأغراض العبادة باختيارهم الصدود والإمتناع عن الإسلام، والإضطرار بالإختيار لا ينافي الإختيار.

الرابعة والثلاثون : الآية دعوة للتفكر في آيات الله ومخلوقاته في كل زمان ومكان.

الخامسة والثلاثون : الآية مدح وثناء على المسلمين لأنهم اتخذوا التفكر وسيلة للإقرار بالربوبية والنبوة، وفي الحديث : (تفكر ساعة خير من عبادة ستين سنة)، والتفكر والتأمل من أعمال القلب التي تنعكس قهراً وانطباقاً على الجوارح وتبرز الى الخارج بالقول والعمل لذا اعتبر القلب امير الجوارح واشرف منها.

السادسة والثلاثون : الأهلة جمع هلال وهو القمر لليلة او لليلتين وعلى قول لثلاثة من اول الشهر اذ يبدو كالقوس النوراني وبهيئة بهية يتعانق مع الإبصار لينفذ الى النفوس ويدعوها قهراً وانطباقاً الى التدبر والتفكر في الآيات الكونية ويحثها على العمل والتجديد والتدارك والشروع في الأعمال وهو في صفته التعليقية ولزوم كماله بشارة التوفيق والتأييد.

السابعة والثلاثون : يدل السؤال على الإرتقاء العلمي في زمان

البعثة النبوية مع تعدد احتمالات موضوع السؤال ومقدماته وغاياته بلحاظ اسباب النزول الذي تقدم بانهم سألوا لم خلقت الأهلة، انهم سألوا عن الحكمة من خلق الهلال وحصول التغير المتصف بالدقة والنظام.

الثامنة والثلاثون : ان ذكر السؤال وعدم الإكتفاء بالجواب توثيق سماوي لتفقه المسلمين وحث على السؤال واستثمار وجود النبي صلى الله عليه وآله وسلم .

التاسعة والثلاثون : السؤال بصيغة الجمع كما يدل عليه ظاهر الآية وجاء رجاء الإحاطة وشمول الإجابة ولبيان اهمية الموضوع ودخوله في الإبتلاء وانه مناسبة للتدبر والتفكر.

الأربعون : لعل في السؤال عن الأهلة دلالة على الإقرار العام بحديث الإسراء وعلم الصحابة باطلاع النبي صلى الله عليه وآله وسلم على ملكوت السماوات، كما ان اليهود ارادوا الإختبار والإنتفاع، فالكل يحتاج النبوة ولو على نحو الموجبة الجزئية.

الحادية والأربعون : على رواية معاذ المتقدمة في اسباب النزول وان اليهود هم الذين سألوا عن الأهلة فان حضور الجواب بالوحي حجة وبرهان على صدق النبوة وبرزخ دون قولهم بان الذي عرج به الى السماء لابد وان يعرف وظائف الأفلاك ففي حديث الأسراء وفي صبيحة ليلته عندما سألت قريش النبي صلى الله عليه وآله وسلم عن معالم بيت المقدس اختباراً وتأكداً من الإسراء ودخول النبي صلى الله عليه وآله وسلم له اخذ النبي صلى الله عليه وآله وسلم يصفه لهم حتى اذا غابت عنه بعض معالمه احضره الله امامه فاخذ يصفه وهو يراه، اما في السؤال عن الأهلة فانه سبحانه تفضل بانزال الجواب في الحال ليكون وثيقة سماوية خالدة وحجة وبرهاناً ومدرسة للعلوم.

الثانية والأربعون : يتعلق السؤال بعلم الهيئة ودقائقه وما في

الفلك من الأسرار.

الثالثة والأربعون : من اعجاز الآية ان الجواب جاء اعم من السؤال لبيان الوظيفة الأهم للأهلة، ولا يمنع من وجود وظائف اخرى منها ما يكون ظاهراً للعيان.

الرابعة والأربعون : في موضوع السؤال بيان لرسوخ الإيمان في النفوس وعدم التجرأ في السؤال حتى على القول بان السائل هم اليهود، ﴿ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً ﴾[1].

الخامسة والأربعون : على فرض ان السؤال صادر من اليهود فانه حجة عليهم خصوصاً في موضوع الإجابة.

السادسة والأربعون : السؤال عن الأهلة في ظاهره للإنتفاع والعلم.

السابعة والأربعون : يفتح السؤال آفاقاً من العلم والمعرفة امام عامة المسلمين ويحث على الإرتقاء العلمي.

الثامنة والأربعون : من اعجاز القرآن ان الأسئلة العامة اصبحت مادة وموضوعاً للعلم ينتفع منها المسلمون جميعاً.

التاسعة والأربعون : في الآية اعجاز يتعلق بالجواب لما فيه من التحدي في كل زمان بمطابقته للواقع والحال المستحدث.

الخمسون : تعدد سؤالهم للنبي صلى الله عليه وآله وسلم في القرآن حث على السعي في دروب العلم وطلب الفتيا واكرام أهل العلم والرجوع اليهم في ابتغاء الأحكام.

الحادية والخمسون : الآية تنبيه للعلماء واشعار بان مسؤولياتهم لا تنحصر بمسائل الحلال والحرام، فالقرآن يحثهم قهراً على التبصر في المعارف.

الثانية والخمسون : في الآية بيان لما كان عليه النبي صلى الله عليه

---

(١) سورة البقرة ١٥٣.

وآلـه وسـلم والمسـلمون مـن العـز ومقـام الرفعـة فـنبي الله موسـى عليه السلام يسـأله فرعـون مـن منـازل الملـك والتجـبر مسـتفهماً مسـتنكراً بجحـود ﴿ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ * قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ﴾[1] وهـو مـن السـؤال عـن الماهيـة والجـنس وظـاهره الجحـود لعـدم ادراك كنـه واجـب الوجـود لبيـان نكتـة في إختتـام النبـوة بمحمـد صـلى الله عليـه وآله وسلم وهي قهر الطواغيب وإضمحلال سلطان الظالمين.

الثالثـة والخمسـون : لجـوؤهم الى الرسـول الأكـرم صـلى الله عليـه وآلـه وسـلم في السـؤال عـن معضـلات المسـائل يـدل علـى التسـليم بالنبوة وما تعنيه من الإحاطة.

الرابعـة والخمسـون : الآيـة حـرب علـى السـحرة ونبـذ للسـحر، فـالمعروف ان بعـض أعمـال السـحر متعلقـة بـالقمر ومنازلـه، وينشـط السـحرة عنـد نقـص القمـر في آخـر الشـهر القمـري، فالآيـة في دلالتهـا التضـمنية تمنـع مـن اسـتغلال الظـواهر الكونيـة لغير مـا سـخرها الله عـز وجل له.

الخامسـة والخمسـون : الآيـة دعـوة الى الدراسـات والبحـوث فيمـا يتعلـق بـالقمر مـن العلـوم، ولعـل الصـعود الى القمـر جـاء منـه او انـه مطـابق لإهتمـام الإنسـان بشـأن القمـر وتضـمن القـرآن لشـطر مـن أسراره.

السادسـة والخمسـون : يـدل السـؤال عـن الأهلـة بالدلالـة التضـمنية علـى الإقـرار بالربوبيـة المطـلقة لـواجب الوجـود وسـيادة عـقيدة التـوحـيد.

ومـن صـفات الله تعـالى(البرَ)وفي التنزيـل﴿إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ﴾[2]، وهـو اللطيف بعباده الرؤوف بهم، الذي يحسن إليهم إبتداءً.

---

(1) سورة الشعراء ٢٣ – ٢٤.

(٢)سورة الطور ٢٨.

وقال ابن منظور(اختلف العلماء في تفسير البر فقال بعضهم البر الصلاح وقال بعضهم البر الخير قال ولا أعلم تفسيراً أجمع منه لأنه يحيط بجميع ما قالوا قال وجعل لبيدٌ البِرَّ التُّقى حيث يقول وما البِرُّ إِلا مُضْمَراتٌ مِنَ التُّقى)[1]، وفيه مسألتان:

الأولى : إنه ليس من الإختلاف إنما هو من تعدد المصداق.

الثانية : إنما البر هو العنوان الجامع في المقام.

ويجوز الإحرام للعمرة في بقية شهر ذي الحجة وإستدل النخعي بهذه الآية على جواز العمرة في أي شهر، وقال مالك بكراهة المتعة في بقية ذي الحجة، وقيل أن عمر بن الخطاب كان ينهى عنه ويضرب العمرة فاعله بالمدرة.

بحث بلاغي

من وجوه البلاغة مجيء الجواب مطابقاً للسؤال اذا كان السؤال متوجهاً وهو مناسب لسيرة العقلاء وقواعد التخاطب بينهم وقد يعدل من الجواب الى غير مجرى السؤال ويخرج عن حدود موضوعه للتنبيه بان السؤال يجب ان يكون ملائماً لهذا الجواب وسماه السكاكي (الأسلوب الحكيم) واستدل عليه بهذه الآية، وانه عدل عن الجواب لما قالوا : ما بال الهلال يبدو رقيقاً مثل الخيط ثم يتزايد قليلاً حتى يمتلئ ويستوي ثم لا يزال ينقص حتى يعود كما بدا؟ فجاء الجواب بالأهم لبيان ما يكون عليه السؤال وفيه مسائل:

الأولى : ان هذا الصيغة البلاغية نوع اعجاز في القرآن.

الثانية : انها تأديب وتعليم قرآني لكيفية السؤال.

الثالثة : ان عطاءه تعالى اعم من ان ينحصر بالسؤال لأنه تعالى واسع كريم.

الرابعة : يتعدد الجواب بتعدد السؤال والسائل، لأن القرآن نزل

---

(١)لسان العرب ٥١/٤.

جامعاً شاملاً لجميع الأحوال والأزمنة.

الخامسة : ظاهر الآية اوسع واشمل مما ورد في أسباب النزول وأعم من ان تنحصر بالسؤال الذي جاء نزول الآية متعقباً له فقد تكون هناك أسئلة أخرى سابقة عن الأهلة، وجاءت الآية جامعة للإجابة عليها، كما يحتمل ان تتعلق الآية باسئلة لاحقة لم تطرح بعد وتتعلق بموضوع الأهلة ذاته خصوصاً وان الآية جاءت بصيغة المضارع.

السادسة : الجواب جزء من آيات القرآن وكل آية تبقى حية تستنبط منها الأحكام الى يوم القيامة، فالمدار في الجواب على وظائف الآية وليس السؤال وحده.

السابعة : بيان نعمة الله تعالى على الناس وهم يسألون عن موضوع بحيثية معينة فيأتي الجواب بالإطلاق.

بحث تأريخي

لقد ظهرت ممالك في آسيا وأوربا ومرت بأدوار مهمة من القوة والسعة والنظام والإرتقاء المدني والحضاري ومع هذا فقد كأن بعضهم يعبدون الكواكب، فمملكة آشوريا مثلاً التي عاصمتها نينوى في شمال العراق وامتد سلطانها الى بقاع عديدة من آسيا قبل ان يضمها بختنصر الى بابل كانت تتخذ الكواكب آلهة، لذا اجتهد الآشوريون في رصدها وضبط سيرها، واتخذ شطر من الهنود القدامى القمر إلهاً، وجعل الساسانيون الهلال رمزاً فضربوا على دراهم ثلاثة او أربعة أهلة بجانب اسم الملك، وان كان الرمز أعم من العبادة، ولقد جاء الاسلام ليعطي للقمر منزلته الحقيقية كآلة سماوية مباركة مسخرة لخدمة الانسان وحجة يومية متجددة.

تفسير قوله تعالى ﴿ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ ﴾

الآية بيان للحكمة الإلهية في سير القمر وما يصيبه من النقص والزيادة المتعقبة أي المراحل اليومية للزيادة في الهلال وما في ذلك من تنظيم لحياة الناس وترتيب مصالحهم وحاجاتهم التي تستلزم التوقيت وتحديد الآجال كالديون ومطلق المعاملات بالإضافة الى اوان العبادات الموقوتة كالصيام والحج، وهو جزء مما سخر الله عز وجل لأهل الأرض لذا أخبرت الآية بأن الاهلة مواقيت للناس أي على نحو الاطلاق الزماني والمكاني والعموم الإستغراقي والمجموعي فضبط التأريخ والحساب يحتاجه الناس في العقود والمعاملات بالاضافة الى العبادات، كما ان لفظ الناس شامل للجميع ويدخل فيه آدم ومن جاء من بعده من ذريته.

في الآية مسائل:

الأولى : جاء الجواب الإلهي متعقباً للسؤال من غير فاصل زماني او طلب امهال، مما يعني ملازمة الوحي للنبي صلى الله عليه وآله وسلم ولو في الجملة وان المدد الإلهي موضوع الآيات القرآنية ودلالتها وأصبحت حجة وسلاحاً حاضراً وان الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم مؤيد ومؤازر بالملك والوحي.

الثانية : اتيان الأهلة بصيغة الجمع لا يعني عدم الإنتفاع من الهلال وعلى نحو الإنفراد فقد جاءت صيغة الجمع للإستعمال الغالب ولبيان الترابط في النظام الكوني ودقة سير القمر وان تعددت الأشهر والسنين.

الثالثة : لغة الجمع (اهلة) تدل على الإعجاز المركب في سير القمر وانه لا ينحصر بولادته في كل شهر ثم زيادة نوره بالتدريج في كل ليلة الى ان يصل الكمال والتمام في منتصف الشهر ليأخذ بعدها قهراً بالنقصان والتغير بل يشمل أيضا الإعجاز في تكرر هذه

الآية.

الرابعة : آية القمر وما يطرأ عليه من التغيير والتبدل والنقصان دليل الحاجة والإمكان، مما يعني بالضرورة انه مخلوق ولا يستحق العبادة وهو مسخر للإنسان المأمور بالعبادة والخضوع لله تعالى.

الخامسة : ورود المواقيت على نحو الجمع يعني تعدد وجوه الحاجة والإنتفاع منه في أبواب الحياة المختلفة وايضاً الأزمان المتباينة، ومن خلال سيره ومنازله يعرف ترتيب الأيام وعدد الأشهر والسنوات، وبدورة الهلال المتكررة في مدة اثني عشر شهراً تتم سنة كاملة من عمر الإنسان وما علق عليها من الأحوال وتصريف الأمور.

السادسة : اضافة المواقيت للناس يعني عدم حصر الإنتفاع منه بالمسلمين في عباداتهم ومعاملاتهم بل جميع الناس والأمم تنتفع من سير القمر وحركته، لا لأن المسلمين ينتفعون منه بالذات وغيرهم بالعرض والتبعية بل لأنه من رحمته العامة في الدنيا التي ينتفع منها المؤمن والكافر أي انه من صفة الرحمن ومصاديق الارادة التكوينية والتشريعية، فالمسلمون ينتفعون منهما احسن انتفاع وغيرهم ينتفع من الاولى على نحو الموجبة الجزئية.

السابعة : حركة الهلال دعوة للإعتبار وتذكير في الآخرة لأنها تقرب الإنسان من ساعة الحساب كما انها تبين له حتميته.

الثامنة : قد لا ينحصر السؤال عن الأهلة بايام النبوة بل يشمل الدراسات والعلوم الخاصة بالقمر في هذا الزمان، وعلى المسلمين ان لا يتخلفوا عن حال العلم في هذا الزمان لا اقل من الناحية الشرعية وبيان الأسباب الكونية وحقائق الفلك.

التاسعة : ذكر الناس لأن انتفاعهم من القمر واتخاذه آلة ووسيلة للحساب وتنظيم شؤونهم حجة عليهم ودعوة لهم للإيمان والهداية.

العاشرة : القمر من افراد فضل الله تعالى على الخلائق فهو مناسبة لتنظيم معايش الناس وترتيب ارزاقهم وتعاهد أموالهم ومنها الدواب.

الحادية عشرة : اتخاذ الناس القمر دليلاً لمعرفة التواريخ لا ينحصر بالهلال، فالزيادة والنقيصة التدريجيتان اللتان تجريان على القمر امارة على تحديد الأوقات ولو على نحو اجمالي او ان الهلال يساعد في ضبطها، لذا خصت الأيام البيض وهي اليوم الثالث عشر والرابع عشر والخامس عشر من الشهر بصيام مستحب.

الثانية عشرة : القمر آية كونية، وهبة إلهية للإنتفاع الأمثل من فصول السنة وتبدل احوال المناخ وتعاقب الليل والنهار.

الثالثة عشرة : اخبار الآية عن حاجة الناس الى القمر والحساب في المعاملات والديون والتجارات والزراعات والنكاح والطلاق والحمل والرضاع يدل على عدم انحصاره بامة دون اخرى.

الرابعة عشرة : لعل في الآية اعجازاً وهو استثمار موضوع الهلال وعلوم القمر لدعوة الناس الى الإسلام واقامة الحجة عليهم، لذا جاء متعلق الآية بلفظ (الناس) وليس المؤمنين، وقد تكشف الحقائق العلمية الجديدة هذا السر المكنون لصيغة الآية.

الخامسة عشرة : سير القمر ودقته حائل ومانع من الخصومة والخلاف والفتنة فهو آلة سماوية اعجازية قاهرة لمعرفة الآجال ونفي الجهالة والغرر في العقود.

السادسة عشرة : خاذ الهلال للحساب والدقة الثابتة فيه نوع اعجاز كوني يلح بالدعوة الى الإيمان.

السابعة عشرة : الآية تنبيه وتوكيد على اتخاذ القمر للحساب وضبط الآجال فمن اعجاز القرآن انه دليل على الآيات الكونية

وحجة، فلولا القرآن لم نلتفت الى موضوعية الهلال واعتباره في الحساب ولا غرابة ان تجد المسلمين هم المنتفعون من هذه النعمة والحريصون على ضبط الحساب.

الثامنة عشرة : منعت الآية من الإندفاع في اتباع الغرب وتقليدهم في عاداتهم ومعاملاتهم، فلولا هذه لأنجرف المسلمون بتيار الحساب الرومي الميلادي الذي اخذ صفة عالمية، ولأعرض الناس عن الإستهلال كل شهر والخلاف منتفٍ في ضبط اشهره وايامه.

التاسعة عشرة : الخلاف في الهلال رحمة ومناسبة كريمة للرجوع الى كتاب الله والسنة واصول الشريعة.

العشرون : نحن بحاجة الى دراسة مقارنة بين اعتماد القمر للحساب واعتماد الشمس مع ان كلاً منهما من عنده تعالى وبفضله لتظهر لنا الدراسة ميراث وخصائص الأهلة وما فيها من المنافع خصوصاً وان عدد ايام السنة القمرية اقل من ايام السنة الشمسية بنحو احد عشر يوماً.

الحادية والعشرون : استقلال المسلمين بجهة وكيفية واصل الحساب له دلالات كريمة ويبعث الثقة بالنفس والإستغناء عن الآخرين ويؤكد المدد الإلهي للمسلمين في باب العلوم واحكام الغيب واسرار الكون.

الثانية والعشرون : قد يقال ان الحساب عند الناس في هذا الزمان على دورة الشمس بالنسبة للشهر والسنة، ولكنه لا يؤثر على موضوعية القمر في الحساب لأنه الأصل والظاهر لكل الناس، وحساب الشمس لا يعرف الا من قبل الخاصة والقلة المشتغلين بعلم الفلك والهيئة ويتبع الناس الجداول الموضوعة وفق حساب ثابت يدل على بديع صنعه تعالى، والقمر ضابط ورقيب ودورة هيئته الشهرية ظاهرة للجميع بل انها يومية فالزيادة والنقصان في القمر تساهمان في تيسير الحساب للناس فيستطيع الشخص ان يجعل اجل

الدين منتصف الشهر مثلاً وبامكان الحائض الوقتية ان تترقب دورتها من خلال القمر وان لم تكن في اول الشهر.

الثالثة والعشرون : ينتفع المسلمون من الآية على نحو مركب، فهم كباقي الناس ينتفعون منه في المعاملات والآجال، وينتفعون أيضا منه في الحج والعبادات الأخرى كالصوم لقوله تعالى ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ ﴾[1] وفي المعاملات والأحكام الشرعية كعدة المطلقة والمتوفي عنها زوجها، قال تعالى ﴿ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا ﴾[2] والحمل والرضاع كما في قوله تعالى ﴿ وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا ﴾[3] بالإضافة الى النذور والإيمان والعهود وغيرها، بل ان الأشهر تشمل كيفية التعامل مع الكافرين كما في قوله تعالى ﴿ فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ ﴾[4] مما يعني ان الكفار والمشركين كانوا يعتمدون الحساب القمري ايضاً، فجاء الوعيد باللغة والحساب الذي يفهمون لإقامة الحجة والبينة عليهم.

الرابعة والعشرون : حساب القمر عز للإسلام لما فيه من دقة ودوام نفع وامكان اللجوء اليه في كل شهر وسنة.

الخامسة والعشرون : وضوح الحساب القمري وظهوره لعامة الناس يبين عموم الخطاب الإسلامي وان لم يتوجه الى الخاصة.

السادسة والعشرون : ينفرد المسلمون باتخاذ القمر آية للتدبر وتوظيفه في معاملاتهم وعباداتهم فكأنها تلح قهراً على الإلتفات الى القمر وما يطرأ عليه من النقصان ثم الزيادة.

---

(١) سورة البقرة ١٨٥.

(٢) سورة البقرة ٢٣٤.

(٣) سورة الاحقاف ١٥.

(٤) سورة التوبة ٢.

السابعة والعشرون : يدل ظاهر الآية على خلق القمر لمصلحة الناس ومنفعتهم لذا ذكر في علم الأصول ان الأحكام تتبع المصالح والمفاسد ولكنها هنا تتعلق مصاديق الإرادة التكوينية.
الثامنة والعشرون : الآية دعوة لاتخاذ الأمم والناس في الجملة الأشهر القمرية لأغراض الحساب والآجال.
التاسعة والعشرون : يتصف الشهر القمري بان تحديد اوان اوله متحرك غير مستقر ولا يحدد ابتداء كل شهر بسبب توقفه على رؤية الهلال، وكما يهتم الناس بطلوع الشمس وغروبها لتعلق كثير من الأعمال اليومية عليها، كذلك يتجه الناس الى القمر في المواعيد والآجال المتعلقة بمفردات الشهر من الأيام او بالأشهر المتعددة.
الثلاثون : من فضله تعالى انه يسر وسهل امور الحياة وتدبير الشؤون الشخصية وركائز تنظيم العلاقات الإجتماعية وما تستلزم من اسباب ووسائل لدفع الخصومة ودرء الفتنة ومن ذلك نعمة القمر وجريانه وما يجري عليه من التغيير الراتب.
الحادية والثلاثون : تؤكد الآية على مسألة عرفانية وهي عدم استيفاء الناس لحق الشكر على نعمة القمر.
الثانية والثلاثون : في خلق القمر وتعدد وجوه منافعه والمصالح المستقرأة من اهلاله مصداق لرحمته تعالى للناس جميعاً بغض النظر عن الإيمان.
الثالثة والثلاثون : مع ما في القمر وخلقه من عظيم النعم فانه اصبح موضوعاً للإفتتان لمن ضعف ايمانه واستحوذ الشيطان على قلبه، فجاءت هذه الآية رحمة للناس جميعاً، ويمكن ان نستقرأ منها قاعدة كلية وهي ان القرآن متمم للنعم التكوينية والهادي اليها والمانع من الإساءة في النظر اليها.
الرابعة والثلاثون : لقد تفضل سبحانه وجعل ما يحدث في العالم

السفلي مرتبطاً ومقروناً بالعالم العلوي ليس بعنوان العلة التامة والسببية، ولكنه جزء من النظام الكوني العام وآياته سبحانه في الخلق.

الخامسة والثلاثون : في الآية اشارة الى يوم القيامة وان القمر شاهد على الزحف الزماني والدنو منه او ان حوادث تجري مع سير القمر وحركته لها صلة بيوم القيامة، قال تعالى ﴿وَإِذَا الرُّسُلُ أُقِّتَتْ * لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ﴾[1]، وقال تعالى ﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتًا﴾[2]، خصوصاً وانه سبحانه أتقن صنع كل شيء ومن أهم افراد الاتقان اعتبار الزمان ودقته.

السادسة والثلاثون : لعل في سير ومنازل القمر اشارة ودلالة على تعيين اوان بعض الحوادث والوقائع المهمة.

السابعة والثلاثون : الخير ما اختاره الله عز وجل، وقد تفضل واختار للناس جميعاً القمر مناسبة للحساب، واتخاذ غيره للحساب وان كان من فضله تعالى أيضا الا ان ذكر القمر على نحو التعيين وليس التخيير لابد ان يكون من اسرار وافاضات خاصة، انتفع منها المسلمون، واطلاق لفظ ﴿لِلنَّاسِ﴾ في الآية دعوة متجددة لجميع الأمم للإستفادة منه.

الثامنة والثلاثون : اتخاذ المسلمين للقمر وسيلة وآلة للحساب جاء قهرياً انطباقياً بسبب ارتباط وتعلق شطر من العبادات به.

التاسعة والثلاثون : اتخاذ الحساب الشمسي الميلادي او الفارسي ونحوهما خلاف الأصل والأولوية القرآنية وان كان هو الآخر من آيات الله عز وجل، وهذه الآية شاهد و سلاح وحجة تحول دون اتساعه وتثبت الأولوية القمرية في الحساب وان لم تمنع من غيرها

---

(1) سورة المرسلات ١١ – ١٢.

(2) سورة النبأ ١٧.

ولكنها لا تنفي حساب غيره من الآيات الكونية لأن اثبات شيء لشيء لا يدل على نفيه عن غيره.

الأربعون : الظاهر ان اللام في قوله تعالى ﴿ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ ﴾ للإستحقاق وعليه يجري علم التفسير ولكنه لا يمنع من احتمال وجوه اخرى وعلوم يحتملها منطوق ومفهوم الآية، فهي تفيد الإختصاص أيضا لأن الله عز وجل سخر القمر للناس، وتكون مرادفة (الى) كما في قوله تعالى ﴿ لِيَوْمِ الْفَصْلِ ﴾[1] لتتعلق الآية بالآجال والدول وتعاقب الناس لذا يعتمد المنجمون منازل القمر لمعرفة الأبراج والأسرار والحوادث المستقبلية.

الحادية والأربعون : حساب القمر يناسب الأمم المتحضرة والأمم الأمية أيضا، والجماعات والأفراد والحساب الشهري ونصف الشهري والسنوي بينما يحتاج حساب الشمس الى اختصاص ومعرفة زائدة.

الثانية والأربعون : اهلية حركة الشمس للحساب وضبط المواقيت هل هي لاستدراج الكفار أم لسعة رحمته تعالى بالناس، الجواب هو الثاني فهو من رأفة الله، نعم احتساب الحساب الشمسي خلاف الأولى وهو الحساب القمري وما فيه من عدم النسئ.

الثالثة والأربعون : تأتي اللام مرادفة "لعلى" كما في قوله تعالى ﴿ يَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴾[2] فيكون معنى الآية ان الأهلة تخبر عن اعمار الناس وانتهاء ايامهم في الدنيا.

الرابعة والأربعون : لعل ملك الموت يعرف جوانب من آجال الناس من سير القمر ومنازله من غير تعارض مع النصوص الواردة بهذا الخصوص ويكون المعنى مواقيت لآجال الناس بحذف

(١) سورة المرسلات ١٣.

(٢) سورة الاسراء ١٠٧.

المضاف.

تفسير قوله تعالى ﴿ وَالْحَجِّ ﴾

آية اعجازية تبين الأسرار الملكوتية والكونية في أداء فريضة الحج والمنزلة العظيمة لها من بين الفرائض الأخرى وفي الأرض والسماء والتشريع السماوي لمناسك الحج خصوصاً وانها لا تنحصر بيوم واحد بل ولا شهر واحد، قال تعالى ﴿ الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ﴾[1] وهي شوال وذو القعدة وذو الحجة، وقضى القرآن على النسيئة والزيادة في حساب الشهور لضبطها وفق الحكم الإلهي.

و(الواو) في ﴿والحج﴾ تبين الأسرار التكوينية والتشريعية في خلق الأهلة وما يصيب القمر من النقصان ثم الزيادة، وتدل الآية على ان الآيات الكونية وجدت للناس جميعاً وللمسلمين على نحو الخصوص، فبين انتفاع الناس وانتفاع المسلمين عموم وخصوص مطلق، فالمسلمون ينتفعون منها على نحو مركب فهم يشاركون الناس في الإستفادة منها وينفردون بتوظيفها في عباداتهم وزيادة الإيمان والتدبر في بديع صنعه تعالى.

لقد جعل الإمام الغزالي علم الفقه من العلوم الدنيوية، والحق انه عنوان جامع للعلوم الدنيوية والأخروية بل انه للآخرة اقرب باعتبار ان الدنيا بمجموعها مزرعة للآخرة وخير ما يبذر فيها ويرجى اقتطافه هو احكام الفقه.

والحج من سنخية تتباين مع سنخية الإنسان وهو وظيفة للإنسان مما يدل على اهمية الحج وانه وظيفة الناس جميعاً، وهو عنوان شكر على تسخير الآيات الكونية لخدمة الإنسان.

وذكر الحج في المقام ليس من باب الحصر والتخصيص بل انه من باب المثال للعبادات التي يعتبر فيها الوقت ورؤية الهلال

---

(1) سورة البقرة ١٩٧.

كالصيام باعتبار ان العلوم والأفعال تنقسم الى ثلاثة اقسام :

الأول : دنيوية.

الثاني : اخروية.

الثالث : الجامع بينهما وليس الى قسمين فقط كما يقولون بدليل وجود عبادات اخرى تتوقف على الأهلة، نعم جاء ذكره لأنه الفرد الذي تتوقف مناسكه على الهلال اكثر من شهر واحد ولأن بعض مناسكه في يوم معين من الشهر كالوقوف على عرفة في اليوم التاسع من الشهر ويوم الحج الأكبر منه فالحاجة الى الأهلة ملازمة لوجود الإنسان منذ اول اقامته في الأرض فأول من حج البيت من الناس هو آدم ابو البشر عليه السلام، وفي الصحيح عن الصادق عليه السلام : "لما افاض آدم من منى تلقته الملائكة، فقالت : يا آدم بُرّ حجك وقد حججنا هذا البيت قبل ان تحجه بالفي عام".

وكان آدم عليه السلام يؤدي مناسك الحج بتوجيه مباشر من جبرئيل عليه السلام وهو أمر يدل على اهلية المسلمين لحفظ احكام الشريعة والسنن السماوية والعبادات الثابتة في اصل الخلق ونشأة بني آدم ليتدافع ويتزاحم الناس مع الملائكة في مناسك الحج ويقتبسوا من انوارهم، الا ترى الذي يؤدي فريضة الحج يحرص بعدها على أداء الفرائض واجتناب الظلم.

لقد ذكر الحج في الآية من باب الفرد الأمثل واشارة الى العبادات الأخرى، والظاهر ان الصيام أهم من الحج من حيث اتساع فرضه وشموله لكل مكلف على نحو متجدد في كل سنة الا المريض والمعذور، اما الحج فانه فرض للمستطيع ولمرة واحدة في العمر، وذكر الحج بالنسبة للأهلة يدل على اهمية الفريضة ووحدة الحكم في هلال ذي الحجة لإشتراك جميع اهل الموسم.

وتبرز حقيقة اخرى في فلسفة الأهلة وهي اعانة الناس على أداء المناسك التي اوجبها الله على عموم البشر وفي كل زمان،

وورود الحج معطوفاً على الناس فيه دلالات تتعلق بعطف الخاص على العام والعمل الأخروي على الدنيوي المحض، وقد جاءت آية الحج بوجوبه على الناس عامة قال تعالى ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً ﴾[1].

بينما جاءت فريضة الصيام بصفة الإيمان كما في قوله تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ... ﴾[2] وان كانت لا تنفي وجوبه على الكفار للأدلة التي تفيد تكليف الكفار بالفروع كتكليفهم بالأصول، والأقوى ان الحج واجب على الكفار أيضا الا انه لا يؤذن لهم بدخول البيت ولا يقبل منهم على فرض تأديتهم له، لأنهم باختيار الكفر والإمتناع عن دخول الإسلام حجبوا عن أداء الفريضة التي يشترط فيها قصد القربة وهو لا يصح من الكافر، ولأن الحج واداءه تشريف للإنسان لا يستحقه الكافر.

والعبادة هي اساس الوجود الإنساني والعلة الغائية لخلق الإنسان ولا تصح الا لله تعالى، فجاء الحج لتوكيد العبادة.

تفسير قوله تعالى ﴿ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا ﴾

الأولى : الواو في (وليس) : استئنافية، وهو أمر ظاهر في منطوق ونص الآية للتغاير في الموضوع ولكنه ليس تغايراً تاماً بل جهتياً فلابد من صلة ونوع ترابط بين صدر الآية ووسطها وآخرها.

الثانية : وفي اسباب نزول هذا الشطر من الآية ذكرت اقوال:

الأول : ان الرجل في الجاهلية اذا هم بشيء وتعسر عليه قضاء حاجته لم يدخل بيته من بابه بل يأتيه من خلفه حولاً كاملاً،

---

(1) سورة البقرة ٩٧.

(2) سورة البقرة ١٨٣.

فنهاهم الله عز وجل عنه لأنهم يأتونه تطيراً، وهو المروي عن الحسن البصري والأصم.

الثاني : من احرم في الأيام الأولى للإسلام ينقب في ظهر بيته نقباً يدخل ويخرج منه فجاء النهي عن التدين به، روي عن ابن عباس وقتادة وعطا ورواه ابو الجارود بخبر ضعيف سنداً عن الإمام الباقر عليه السلام

الثالثة : الترابط الموضوعي في الآية ظاهر حتى في اسباب النزول فمن فضله تعالى ان جاء الجواب على ذات السؤال وعلى غيره أيضا.

الرابعة : أنها آية في كرم الله تعالى وان كان القرآن كله فضلاً واحساناً ومتضمناً للأحكام والقواعد الشرعية، والشق الثاني من الجواب الذي تتضمنه الآية الكريمة دعوة الى الإلتفات والتدبر في اعمال التقوى التي سخر الله عز وجل لها الأفلاك كالشمس والقمر لتكون مناسبة واشارة ودلالة وحثاً وتنبيهاً وحجة وعوناً وتخفيفاً.

الخامسة : الآية عنوان الشكر لإطلاق الإجابة.

السادسة : حصول إتفاق زماني بين السؤال عن الأهلة واتيانهم البيوت من ظهورها فنزلت الآية جامعة لهما، وعلى فرض حصوله فانه لا يصلح ان يكون علة تامة لإجتماعهما في آية واحدة ثم ان الغايات من اجتماعهما اكثر اهمية وموضوعية من اثر اسباب النزول في الجمع بينهما في آية واحدة خصوصاً وان موضوع الآية لكل الأجيال والأمم.

السابعة : كأنهم سألوا عن الحكمة في اختلاف حال الأهلة فقيل لهم : بعد الإجابة عن هذا الأمر ارجعوا الى مسألة اخرى ذات أهمية عقائدية واخلاقية، فانكم تظنون ان اتيان البيوت من ظهورها بر ولكنه خلاف الأولى والأصلح والأنفع.

ولكـن الآيـة خاليـة مـن اللـوم والتـوبيخ والتعـريض بسـبب السـؤال، نعـم هـي تأديـب وتعليم وقـد يكـون الجـواب مـن عمومـات قولـه تعـالى ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾[1] وان كـان السـؤال موجهـاً في الأصـل للـنبي صـلى الله عليـه وآلـه وسـلم لأنـه وجـه لـه بصـفة النبـوة، وكـانوا ينتظـرون جوابـاً يفـوق مـدارك البشـر والشـائع بخصـوص الأهلة.

وفي علـم الأصـول تعتـبر أصـالة الصـحة عنـد الشـك في صـحة الفعـل وعدمـه، واصـالة الـبراءة عنـد الشـك في موضـوع التكليـف اصـلاً، فمـع عـدم وجـود القـرائن الدالـة علـى التعـريض والتـوبيخ يحمـل السـؤال على الصـحة وعـدم التـوبيخ في الجـواب بـل قـد يكـون خطـأ في السـؤال ولـو مـن بعـض الجهـات وعلـى فـرض اعتيـاد السـائلين والتبـاين في غايـاتهم ولكـن الإجابـة السـماوية تـأتي خاليـة مـن التعريض والتوبيخ.

بحث قرآني

الآيـة اعـم مـن أسـباب النـزول موضـوعاً ومحمـولاً، وفيهـا أوامـر تصـلح ان تكـون مـن مصـاديق التقـوى وطريقـاً الى الفـلاح ممـا يعـني ان لهـا غايـات وفيهـا إشـارات أخلاقيـة ومضـامين علميـة ولكـن المفسـرين أولـوا أهميـة خاصـة لأسـباب نـزول هـذه الآيـة والوجـوه المتعـددة الـتي ذكـرت في أسـباب النـزول مـع انهـا لم ترفـع الى الـنبي صـلى الله عليـه وآلـه وسـلم او الى الأئمـة علـيهم السـلام او الى الصـحابة كمـا هـو الظـاهر، وتـابع المفسـرون بعضـهم الـبعض الآخربحمـل الآيـة عليهـا، لـذا قـال الـرازي : اكثـر المفسـرين حمـل الآيـة علـى هـذه الأحـوال الـتي رويناها في سبب النزول.

ان الإهتمـام بأسـباب النـزول أمـر حسـن سـواء كـان مطلقـاً أو

---

[1] سورة غافر ٦٠.

متضمناً للبحث والتحقيق في رجال السند وجهة الصدور ودلالة السبب ومطابقته للآية والتأريخ والأخبار وواقع المسلمين، وموضوع أسباب النزول يحتاج الى التحقيق والتنقيح في اغلب الآيات التي ذكرت لها أسباب للنزول واعطى في تفسير هذه الآية الأولوية والأهمية، وكأن تفسير الآية مختص بالأسباب التي لم تثبت، كما أنها جاءت متعددة ولا تتناسب مع عظمة الآية القرآنية ككنز وخزينة للعلوم، بالإضافة الى المعاني القدسية التي تتضمنها هذه الآية الكريمة، فعلينا ان نعرف الجهة والحيثية الخاصة بأسباب النزول ومقدار ما تحتله في علم التفسير يجب ان يكون البيان والتفسير العام للآية اعم واوسع منه ضرورة لأنه شامل لمتعلق واحكام وفروع الآية الى يوم القيامة وان يكون سبب النزول ضياء واقعياً وشاهداً عملياً على التفسير لا انه يحل محله وبالإضافة الى اسباب النزول ورد في الخبر عن الإمام الباقر عليه السلام في قوله تعالى ﴿وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا﴾ قال: يعني ان يأتي الأمر من وجهه أي الأمور كان.

الأولى: ورد عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم في الحديث المشهور عند المسلمين انا مدينة العلم وعلي بابها ولا تؤتى المدينة الا من بابها.

الثانية: الآية مدرسة في تنظيم الحياة الإجتماعية والأسرية خاصة، وفيها دلالة على الحضور القرآني في السيرة الإجتماعية للأشخاص.

الثالثة: المعروف ان الإنسان يهتم باحواله وتصرفاته امام المجتمع الخارجي، وبين اقرانه واصحابه في المهنة والعمل والوظيفة والشارع ويحرص على الظهور امامهم بصورة حسنة ولكنه قد لا يحتاط في بيته بذات الإحتراز والعناية في السلوك، فجاءت هذه الآية

لتبين اهمية الضوابط الأخلاقية في الحياة الأسرية.

الرابعة : تدل الآية بالدلالة التضمنية على علمه تعالى بالجزئيات والأحوال الخاصة لكل انسان.

الخامسة : في الآية اخبار بان الله عز وجل قد احاط علماً بافعالكم وان الحساب لا ينحصر باتيان العبادات او عدمه، بل ان صغائر الأعمال تصلح ان تكون طريقاً للتقوى ومن مصاديقها اذا جاءت على الوجه الأمثل.

السادسة : الآية دعوة لتنظيم حياة الأسرة وآداب الضيافة وكيفية الزيارة.

السابعة : في الآية دعوة سماوية للإلتزام بالأعراف والهيئة العامة التي عليها احوال الناس في بيوتهم والتقيد بالطريقة التي اختاروها للتعامل ما دامت سليمة.

الثامنة : الآية امضاء وتثبيت لحق الإنسان في استقلاله في بيته وعدم اقتحامه عليه بصلة او قرابة او صداقة او أمرة وسلطان من غير اذن.

التاسعة : في الآية كناية عن امور منها ما ظهر ومنها ما لم يظهر بعد، وفيها اشارة الى البغية والطلب بالطريق الصحيح وعدم الإلتجاء الى ما فيه الإعوجاج والخفاء والكتمان.

العاشرة : تعتبر الآية قاعدة كلية في الحياة الإجتماعية وانظمة البيوت والمساكن باعتبار الإذن وعدم المباغتة.

الحادية عشرة : من الكنايات في احكام الأسرة ان الباب اشارة الى صاحب البيت وسيده واليه يؤول اذا جاء في رؤيا المنام، وكأن في الآية دلالة على عدم التجرأ ودخول البيوت من غير اذنه وعلمه وحضوره.

الثانية عشرة : نفي البر عن فعل معين يدل على تحققه في

مصاديق اخرى، وهو الأمر الذي بينته الآية.

الثالثة عشرة : تقع اكثر البيوت في المدن والحضر، وهي في الغالب متجاورة وتتلاصق ظهورها لأن ابوابها تفتح على الشارع وبما ان الآية القرآنية تبقى حية عاملة في الواقع ولها مصاديق متجددة في كل زمان فلابد ان معاني ظهور البيوت تتعدى الظاهر لأن الآية تشمل البيوت على نحو العموم الإستغراقي ولا عبرة بالنادر.

الرابعة عشرة : الآية من موارد الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فهي تخاطب المكلفين بالذات وتدعوهم الى تولي شؤون الآخرين في العمل بهذه الآية بالعرض.

الخامسة عشرة : من الإشارات في الآية الدعوة الى طلب العلم واخذ الفتيا من القرآن والسنة والعلماء الذين هم ورثة الأنبياء.

السادسة عشرة : الآية تنبيه وتحذير من التحريف والقائمين عليه لما فيه من الأوهام والتغيير والنقص.

السابعة عشرة : قال ابو مسلم ان المراد من هذه الآية ما كانوا يعملونه من النسئ فانهم كانوا يخرجون الحج عن وقته الذي عينه الله له فيحرمون الحلال ويحلون الحرام، فذكر ان اتيان البيوت من ظهورها مثل لمخالفة الواجب في الحج وشهوره ولكنه من التأويل ولا يعني حصر التفسير به بلحاظ الوجوه التالية:

الأول : النهي عن النسئ ورد نصاً في قوله تعالى ﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ﴾[1] فبعد ذكره صريحاً ونعته بالكفر فكيف تأتي الكناية التي تحمل على النهي التنزيهي في فعل آخر اقل مرتبة في النواهي.

الثاني : الآية صريحة في النهي عن اتيان البيوت من ظهورها.

---

(1) سورة التوبة ٣٧.

الثالث : الاستعارة تتكون من طرفين مستعار له وهو المشبه ومستعار منه وهو المشبه به بالاضافة الى اللفظ المنقول ويسمى مستعاراً، فاذا قلت : "أنصتنا لقس" فأصله : "أنصتنا الى رجل فصيح كقس"، فحذف المشبه وهو لفظ رجل، وحذفت الأداة وهي كاف التشبيه، وحذف وجه التشبيه وهو الفصاحة والحق بقرينة (أنصتنا) التي تدل على الزمن الحاضر لتدل على أنك لا تقصد قس بن ساعدة.

الرابع : في الآية دعوة للتقيد بالضوابط الادبية ومعايير السلوك السليم.

الخامس : هذا الحصر مانع من عموم الآية والبحث عن الوجوه المتعددة المناسبة لها مما تدل عليه النصوص والقرائن والإمارات والوجدان.

السادس : المنع والتحذير من اللف والدوران في طلب الحاجات.

السابع : النهي عن السعي في قضاء الحاجات بغير الطرق السليمة او الشروع بها من غير مواضع الإبتداء.

الثامن : الآية كناية عن اتيان الأمور من غير وجهها الصحيح، وهي تأديب وارشاد لاجتنابه.

التاسع : المنع من الإرباك في المعاملة والحالات الإجتماعيةلأن البداية غير السليمة تسبب الخسارة والضرر والإضطراب النفسي وصعوبة التدارك والتراجع.

العاشر : الدخول من أبواب البيوت يستلزم الإذن قال تعالى ﴿ لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ﴾[1].

الحادي عشر : تترشح عن الدخول من الأبواب المخصصة له

([1]) سورة النور ٢٧.

السكينة والأمن والستر والمنع من الإطلاع على ما خفي على الناس من الأحوال والشأن الخاص.

الثاني عشر : الآية دعوة للإلتفات الى تنظيم الحياة الإجتماعية وفق قواعد السلوك الشرعية ولا بأس ان تتضمن الرسالة العملية مسائله واحكامه وان كانت متعارفة عند غالبية الناس بغية شيوعها واستقرارها والمنع من التفريط الشخصي او النوعي بها.

بحث اصولي

الآية مناسبة لإكتساب الثواب بالإلتزام بحسن الآداب وهي تخبر بان الثواب لا ينحصر بالواجبات وترك المحرمات، فقد لا يلتفت الإنسان الى صغائر الأعمال والمباحات منها خاصة، لذا قال أحد الأصوليين وهو الكعبي الذي يعتبر من علماء المعتزلة بانتفاء المباح، لحصر افعال المكلف الإختيارية بالواجب والمحرم بلحاظ أن ترك الحرام يتضمن فعلاً مباحاً بالمعنى الأعم فيكون الفعل واجباً لأنه مقدمة لترك الحرام، ولعدم ثبوت هذا القول اطلق عليه اسم الشبهة لأن المباح مطلوب في ذاته ولا ملازمة بين اتيانه وترك الحرام.

تفسير قوله تعالى ﴿ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى ﴾

الأولى : الآية اعلان لحقيقة بسيطة غير مركبة، فالخير والصلاح افاضات تتجلى بالتقوى وبذا تكون صفات البر قريبة ومتدلية وان كانت مكتسبة ومعلقة على فعل الجوارح واتيان العبادات وخشية الله والحذر والحيطة من الوقوع في معصيته وفضل منه تعالى، وهي مدرسة لصيانة النفس وتعاهدها ووقايتها من الذنوب وما هو محظور في الشريعة من النواهي والأفعال القبيحة والمذمومة شرعاً وعقلاً وعرفاً.

الثانيـة : لقـد بينـت الآيـة الكـبرى الكليـة في موضـوع ووجـوه الخـير، وجعلـت مسـألة اتيـان البيـوت صـغرى وثانويـة في ذات المطلـب وتحقيقـه لأن أعمـال الجـوارح انعكـاس ومـرآة للإعتقـاد والمبـدأ ومـا يـؤمن بـه الإنسان.

الثالثـة : جـاءت الآيـة لتخلـيص الـنفس مـن درن الشـهوات واللـهث وراء اللـذات ولتنقـل الإنسـان الى مقامـات الكمـال وتسـعى في تخليصـه من حب الدنيا والإنشغال بها.

الرابعـة : مـن اعجـاز الآيـة انهـا جـاءت علاجـاً للسـلوك الخـاطئ بـالمعنى الأعـم الشـامل لمـا لم يكـن محرمـاً وتداركـه والتنـزه منـه بالإصطلاح العام وبما يؤدي الى ترسيخ ملكة التقوى في النفس.

الخامسة : مـن اعجـاز القـرآن انـه ينبـه عـن الحالـة المرضية والسـقم في السلوك وببعث الصحة والسلامة في العقيدة والعمل معاً.

السادسة : لقـد انجزت الآيـة الكريمـة مـا لم تصـل اليه المدارس الطبية والإصـلاحية الى الآن فمقتضـى العـلاج عنـدهم يكـون محـدوداً موجهـاً لذات المرض والمشكلة.

السـابعة : في القـرآن يـأتي الأمـر الإلهـي متضـمناً مناهـج الصـلاح العـام وصـيغ منـع الإعوجـاج والإنحـراف، كمـا يضـع قواعـد كليـة تحـول دون تسـرب الأسـقام للـنفس الإنسـانية وظهورهـا علـى الجـوارح وهـذه الرؤيـة لا تنحصـر بالصـورة او الفعلـي الشخصـي بـل تشـمل السـلوك النوعي العام لجماعة المسلمين.

الثامنـة : ظـاهر الآيـة ان الـذي يتقـي الله يصـدق عليـه الـبر ممـا يفيـد الأسمية وليس المصدرية.

التاسـعة : كـأن المـؤمن جامعـة متنقلـة وايمـان متكامـل ومدرسـة اخلاقيـة جامعـة لصـفات الخـير والصـلاح، لـذا يـذكر الله برؤيـة المـؤمن لمـا يجسـده مـن عنـاوين الصـلاح والترابـط بـين صـورته وسـيرته ومنـابع

التقوى وعقيدة الصلاح، وهذه الرؤية لا تنحصر بالصورة او الفعل الشخصي بل تشمل السلوك النوعي العام لجماعة المسلمين.

العاشرة : جاءت الآية بصيغة الخبر الا انها في دلالتها انشائية موجهة الى كل انسان، ومنبسطة على الأزمان المتباينة من غير فرق بين الذكر والأنثى، والمؤمن والكافر.

الحادية عشرة : من اسرار الخطابات القرآنية انها تحمل أمارات اللطف الإلهي بان تدعو الناس بترغيب وحث كريم على الهداية والإيمان.

الثانية عشرة : في الآية رحمة نوعية عامة، بان تكون التقوى وكأنها ملكة كفائية تسقط عن الآخرين العقوبة ان جاء به فرد من الجماعة، او قل ان مصداقها يتحقق بصرف الطبيعة فان صدق على احدهم انه متق اعتبر البر موجوداً في دويرته بفضل منه تعالى ولأنه كالأساس للبناء، ليصدق عليه انه حامل للواء التقوى والدعوة الى الله، واليه يرجع المتقدم ويلحق به المتخلف.

الثالثة عشرة : تخبر الآية عن المنافع الدنيوية للمقاصد الأخروية في الأفعال والأعمال كي لا يستوحش من دروب التقوى والمثابرة على مقاماتها وما فيها من المشقة التي يزداد ضغطها بالإنفراد والقلة وسط الكثرة غير المواظبة عليها فجاءت هذه الآية لتبدل تلك المشقة الى مباهج، والأذى في جنب الله الى رفعة وعز.

الرابعة عشرة : في الآية ترويض للنفس الإنسانية في حب الخير وعشق الحق وتهذيب السجايا الإنسانية والملكات الأخلاقية الفاضلة.

□

تفسير قوله تعالى ﴿ وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا ﴾

الأول : الواو للإستئناف لأنها تعطف الأمر على الخبر ، ومن خصائصها عدم صحة عطف ما بعدها على ما قبلها.

الثاني : في الآية دلالة على لزوم عدم ترك الأخلاق الفاضلة وان كان موضوع البر أعم ويتعلق بالعقيدة وافعال الجوارح.

الثالث : لا تعني الآية بعد هذا البيان ان اتيان البيوت من ابوابها موضوع مستقل عن البر او انه يخرج منه بالتخصص او التخصيص.

الرابع : تؤكد الآية على عدم التعارض بين التقوى ولزوم التقيد بالآداب.

الخامس : انه جزء من افعال البر ومن مصاديقه وافراده ويدل على اهميته واعتباره في الحياة العامة.

السادس : الآية مدرسة في الأخلاق وتهذيب العادات وتنظيم المجتمعات وبعث للسكينة والطمأنينة في النفوس.

السابع : في الآية اكرام للمسلم واحترام لخصوصياته وصيانة لعرضه وكأنه ملك في بيته بل ان الآية مطلقة في ارادة اكرام الناس جميعاً وحفظ حقوقهم العامة أي ان القرآن صان الأفراد ووضع الضوابط والأسس التي تمنع من التعدي.

الثامن : على مباني القرآن ولغته والمقاصد السامية والمضامين القدسية لآياته وما لكل منها حد ومطلع وظاهر وباطن فان الآية حث كريم على حسن الإبتداء وسلامة الدخول والشروع بالفعل والتنزه عن ايذاء الغير في حقوقه المادية والمعنوية والإعتبارية.

التاسع : الآية تفسير وعون على معرفة التقوى وكيفية بلوغ مقاماتها فان مخالفة الأمر او الأولى تترك ندبة سوداء في القلب قد تتسع بالتمادي في المعاصي او بلوغ حالة اليأس والقنوط.

العاشر : الإنشغال بالعبادة واداء الفرائض يجب ان لا يكون حائلاً عن حسن الخلق والعفة والحكمة والسيرة المحمودة مما يعتبر مرآة وانعكاساً مباركاً للنفوس وعنوان رسوخها، وقد ذكرنا في البحث الخارج الأخلاقي للحوزة العلمية ان علم الأخلاق مستحب نفسي وواجب غيري وهو مقدمة لأداء العبادات.

تفسير قوله تعالى ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾

الأولى : امر بالصلاح والإمتثال للأوامر الإلهية واجتناب مهالك المعصية.

الثانية : المعنى السياقي للآية يدل على استحضار الخشية منه تعالى في السلوك والصلات الإجتماعية.

الثالثة : تعدد وتهيء الآية المسلمين لتولي مسؤوليات القيادة والأمر والسلطنة بالخوف من الله ولزوم اتباع القواعد والأصول.

الرابعة : وردت الآية على نحو الإطلاق أي ان التقوى اعم من ان ينحصر موضوعها باتيان البيوت فيشمل احكام الحج والعبادات مطلقاً باعتبار ان التقوى ملكة وحرز يصون النفس والجوانح والجوارح من الزلل والخطأ.

تفسير قوله تعالى ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾

الفلاح هو الفوز والظفر وتحقيق الأماني، وهو في المقام بلوغ منازل السعادة في الآخرة فهو حصراً يمثل الظفر بالمطلوب والسعادة والخلود والبقاء الدائم، والغنى والعزم الدائمان وفي الدعاء اقلبني مفلحاً منجحاً، ولعل تفيد التمني والترجي أي ان التقوى والإلتزام بالأخلاق الحميدة تكون طريقاً للفلاح مما يعني ان طريق السعادة الأخروية محفوف بالمخاطر والأهوال لأن كل يوم من ايام الدنيا عالم خاص في الإبتلاء والإمتحان المركبين، ابتلاء في الصالحات باتيان الفرائض ومنها الصلاة اليومية ، وبلوى في الشرور التي تداهم الإنسان والملكة الفاسدة من الطمع والشره والخصومة التي تحاول سلب الإيمان.

وتظهر الآية قاعدة كلية في علوم الحياة وهي ان الثواب مستغرق لجميع الأفعال وان كانت مباحة ولعله للتداخل والترابط بينها فقد يكون المباح مقدمة او طريقاً او ممهداً للواجب وقد يكون تركه شبهة وامارة ضعف يؤدي الى الوقوع في الحرام، ولقد تفضل الله عز وجل فجعل رجاء الفلاح والفوز في الدارين مبثوث ومستغرق لجميع الأعمال ذات الحسن.

◆◆◆◆◆◆◆◆◆◆◆◆

قوله تعالى ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ **الآية ١٩٠.**

الإعراب واللغة

وقاتلوا : قالوا : الواو إستئنافية ، والمختار أنها للعطف والإستئناف ، مع التعدد في الموضوع ، وسيأتي مزيد كلام في الجزء الثامن والعشرين بعد المائتين من هذا السِفر[1].

قاتلوا : فعل أمر مبني على حذف النون لأنه من الأفعال الخمسة، في سبيل : جار ومجرور، وهو مضاف.

اسم الجلالة : مضاف إليه والجار والمجرور متعلقان بقاتلوا، الواو: فاعل.

الذين : اسم موصول مفعول به.

جملة يقاتلونكم : فعل وفاعل ومفعول به وهي : صلة الموصول.

ولا تعتدوا : الواو عاطفة، لا : ناهية، تعتدوا : فعل مضارع مجزوم بلا، الواو : فاعل، أن الله : حرف مشبه بالفعل وإسمه.

لا يحب : لا : نافية، يحب : فعل مضارع مرفوع بالضمة، والفاعل ضمير مستتر تقديره هو يعود على الله .

المعتدين : مفعول به منصوب بالياء لأنه جمع مذكر سالم.

وجملة (لا يحب المعتدين) خبر أن ، وجملة (إن الله لا يحب..) تعليلية.

□

---

(١) انظر الجزء (٢٢٨) باب الواو للعطف والإستئناف في أن واحد .

في سياق الآيات

بعد أن نهت الآيات السابقة عن أكل الأموال بالباطل والأخلاق المذمومة وبينت مفاهيم البر والصلاح بالتزام سبل التقوى جاءت هذه الآية بالأمر بالجهاد في سبيله تعالى وما فيه من الشدة، وكأن الآيات السابقة مقدمة وتوطئة لهذه الآية لما فيها من تنظيم الصفوف وطرد الفرقة واسباب الفتنة ، قال تعالى ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلاَ تَعَاوَنُوا عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾[1].

صلة هذه الآية بالآيات السابقة، وفيها وجوه:

الأول : صلة هذه الآية بالآية السابقة﴿يَسْأَلُونَكَ عَنْ الأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ.....﴾[2]، وفيها مسائل:

الأولى : إبتدأت آية السياق بالخطاب إلى النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم بالإخبار التقريري عن سؤال الناس له عن الآيات الكونية، وأختتمت بالخطاب للمسلمين والمسلمات جميعاً، فجاءت هذه الآية معطوفة على ذات لغة الخطاب.

ليكون من إعجاز نظم الآيات إكرام المسلمين في تعدد الآيات التي تتضمن توجه الخطاب لهم.

الثانية : كل آية من الآيتين إصلاح للمسلمين في سبل الجهاد في سبيل الله، وتعاهد أحكام الشريعة .

الثاني : صلة هذه الآية بقوله تعالى﴿وَلاَ تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ وفيها مسائل:

(١) سورة المائدة ٢.

(٢) سورة البقرة ١٨٩.

(٣) سورة البقرة ١٨٨.

الأولى : بين الآيتين من جهة موضوع الخطاب عموم وخصوص من وجه، فمادة الإلتقاء من جهات:

الأولى : توجه الخطاب في الآيتين إلى المسلمين.

الثانية : تجدد الخطاب في كل زمان، فما أن يبلغ المسلم سن البلوغ حتى يشمله الخطاب.

الثالثة : إرادة صلاح المسلمين، وإرتقائهم في مراتب التقوى.

وأما مادة الإفتراق فهي من جهات:

الأولى : إبتدأت آية السياق بالنهي والزجر، وجاءت آية البحث بصيغة الأمر.

الثانية : إرادة ترك أكل الأموال بالباطل في آية السياق على نحو القطع وبيان حقيقة وهي أن هذا الأكل والإستحواذ حرام، ومجيء آية البحث بلغة الأمر بالقتال الذي يحمل على الوجوب واللزوم.

الثالثة : إستدامة وتجدد النهي عن أكل المال بالباطل في كل حين، أما الأمر بالقتال فليس مستديماً، ولكنه يطرأ عند أوان الحاجة والدفاع.

الرابعة : توجه النهي عن أكل الباطل إلى المسلمين والمسلمات لجواز العمل بالتجارات والمكاسب قال تعالى ﴿وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا﴾[1]، وتوجه الأمر بالدفاع إلى المسلمين من الذكور خاصة.

الخامسة : الإطلاق في لزوم الامتناع عن أكل الباطل، أما بالنسبة للقتال فقد جاء مقيداً بأمرين:

الأول : إنه في سبيل الله.

الثاني : قتال الكفار الذين يقاتلون المسلمين ويعتدون عليهم ، لقوله تعالى ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا

---

(١) سورة البقرة ٢٧٥.

﴿يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾[١]، ومفهوم الآية على وجوه :

الأول : لا تقاتلوا إلا دفاعاً.

الثاني : لا تقاتلوا الا الكفار الجاحدين ومنهم الذين استحوذوا على ولاية البيت الحرام ، ونصبوا فيه الأصنام.

و(عن عبد الله بن مسعود قال : دخل النبي صلى الله عليه وآله وسلم مكة وحول البيت ثلاثمائة وستون صنماً فجعل يطعنها بعود معه ويقول ﴿جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾[٢]، ﴿جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾[٣]) [٤].

الرابعة : جاءت آية السياق بالنهي عن أكل المال بالباطل، وتضمنت آية البحث النهي عن التعدي.

ويدل الجمع بينهما على لزوم تنزه المسلمين عن الأخلاق المذمومة وأسباب الجور وظلم الآخرين، وهو من عمومات قوله تعالى ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾[٥]، وقوله تعالى ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾[٦].

لأن المسلمين ينشرون مفاهيم الصلاح فيما بينهم ومع الآخرين من أهل الأرض، فيؤثرون في المجتمعات.

الخامسة : تقدير الجمع بين خاتمتي الآيتين : وأنتم تعلمون أن الله لا يحب المعتدين) لبيان حال الفقاهة التي بلغها المسلمون بحيث أنهم

---

(١) سورة البقرة ١٩٠.

(٢) سورة الاسراء ٨١.

(٣) سورة سبأ ٤٩.

(٤) الكشف والبيان ٢٢٨/١١ .

(٥)سورة الحجرات ١٠.

(٦) سورة الأنبياء ١٠٧.

يميزون بين إنتزاع الحق وبين الإعتداء فيتجنبون الثاني، ويعزفون عن مواطن الشبهات خشية الوقوع في الحرام، لأن الآية الكريمة تحثهم على إجتناب التعدي.

الثالث : الصلة بين هذه الآية وآية ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ﴾[(١)]، وفيها مسائل:

الأولى : مجيء الآيتين خطاباً للمسلمين، وتضمنت آية السياق الحلية والإباحة في التنعم بالطيبات ليلة الصيام لتكون مقدمة لصيام النهار ، ولبيان حقيقة وهي أن توالي الطيبات وكنوز الأرض على المسلمين وتمتعهم بها لن يكون برزخاً دون الصبر في سبيل الله، والدفاع عن الإسلام.

ليكون في الجمع بين الآيتين بعث للفزع والخوف في قلوب الكافرين، وزجر لهم على التعدي على الإسلام فصحيح أن آية البحث جاءت بخصوص نهي المسلمين عن التعدي إلا أن جمعها مع آيات قرآنية أخرى يتضمن نهي الكفار عن التعدي على المسلمين، وهو من عمومات قوله تعالى ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾[(٢)].

وتأكيد الإعجاز الذاتي والغيري للقرآن بأن آياته تمنع من الظلم والجور في الأرض، وهي بذاتها آلة الإحتجاج السماوي المفحم للخصم، والذي يلح عليه بدخول الإسلام.

الثانية : جاءت آية السياق ببيان بديع الصلة بين الزوجين بقوله تعالى ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ﴾ [(٣)] وفيه تأديب وهداية لحسن العشرة بين المسلم وزوجته، وعدم إنقطاعها فكل إنسان يعتني بلباسه

(١)الآية ١٨٧.

(٢) سورة الأنبياء ١٠٧.

(٣) سورةالبقرة ١٧٨ .

الذي لا يفارقه .

ومع هذا فإن آية البحث تدعوهم للقتال في سبيل الله دفاعاً ، وهذا القتال نقيض مؤقت للصحبة بين الزوجين ، وهو فراق مؤقت ومعلق، فحينما يخرج الفرد للدفاع لا يعلم أنه يعود لأهله أم لا.

لذا تفضل الله عز وجل واثنى على الذين خرجوا مع النبي صلى الله عليه وآله وسلم إلى حمراء الأسد بعد معركة أحد بيوم واحد ، عندما بلغه أن المشركين ينوون العودة للقتال وغزو المدينة.

فنزل في الثناء على النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه قوله تعالى ﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾[1].

والمختار أن الآية أعلاه تضمنت الثناء على النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم لأنه استجاب لأمر الله وخرج إماماً خلف المشركين مع كثرة الجراحات التي أصابته يوم معركة أحد وهي :

وهل تنقطع صفة (اللباس) عن الزوجين عندما يخرج الزوج المسلم للقتال ، الجواب لا، لأن هذا القتال في حقيقته وسنخيته دفاع عن الأعراض والأموال وذب عن الإسلام والقرآن ، وإستدامة لصفة اللباس بين الزوج المسلم وزوجته بالنسبة للمقاتلين، وغيرهم من المسلمين ممن عجز وتخلف عن الزواج،وللأجيال اللاحقة منهم وعامة أهل المدينة ومنهم :

الأول : عموم المهاجرين والأنصار رجالاً ونساءً.

الثاني : المنافقون ، مع شدة أذاهم للنبي صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه ، قال تعالى ﴿لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا

(١) سورة آل عمران ١٧٢.

قَلِيلاً﴾[1].

الثالـث : اليهـود في المدينـة وهـم بنـو قريظـة وبنـو النضـير ، وبنـو قينقاع .

الرابـع : الـذين بقـوا علـى الكفـر مـن أهـل المدينـة ، ولم يـدخلوا الإسلام.

، فقـد خـرج المؤمنـون مـن الصـحابة وأهـل البيـت في معركـة بـدر وأحـد والخنـدق ليبنـوا صـرح الإسـلام ويمنعـوا وإلى يـوم القيامـة إرادة الإجهاز عليه في التعدي عليـه، وتصبح نية الكفـار بإستئصـال أحكامه أمراً ممتنعاً.

الثالثة : يفيد الجمـع بـين الآيـتين التوجـه إلى الله عـز وجـل بالشكر والثنـاء لبيـان آيـات الجهـاد، وجعـل القتـال فرضـاً علـى المسـلمين، وعـدم تعارضـه مـع حلية الطيبـات، وأداء الفـرائض البدنيـة كالصـلاة والصـوم والفـرائض الماليـة مـن الزكـاة والخمـس ، والبدنيـة الماليـة وهـي حـج بيـت الله الحرام.

الرابعـة : أختتمـت آيـة السـياق بقولـه تعـالى (يـبين الله آياتـه للنـاس) ومن آيات الله بلحاظ آية البحث أمور:

الأول : لزوم القتال في سبيل الله، وتأكيد الحاجة إليه.

الثـاني : عـدم التعلـق بملـذات وزينـة الحيـاة الـدنيا،لأن الأولويـة لتثبيت دعائم الدين وإتيان الفروع والفرائض.

الثالــث : وجــوب كــون القتــال بقصــد القربــة وفي ســبيل الله، وحصره بالذين يقاتلون المسلمين.

الرابـع : الفصـل بـين الجهـاد وبـين التعـدي، وفيـه دعـوة للمسـلمين، للتفقه في أحكام الجهاد وفق الكتاب والسنة.

الخامسـة : أختتمـت آيـة السـياق بقولـه تعـالى (لعلـهم يتقـون) ومـن

---

(١) سورة الاحزاب ٦٠.

التقوى الجهاد في سبيل الله، وإجتناب التعدي على الذين لم يقاتلوا المسلمين، ليجتمع لباس التقوى مع لباس الزوجية ويرتقي عليه، قال تعالى ﴿وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾(١) .

الشعبة الثانية : صلة هذه الآية بالآية التالية ﴿وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ﴾(٢)، وفيها مسائل:

الأولى : الإتحاد بين الآيتين في ماهية التكليف والموضوع، فكل من الآيتين جاءت بصيغة الأمر، وفي موضوع القتال، ومواجهة الكفار بالسيف دفاعاً ، قال تعالى ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾(٣) .

وسيأتي أن هذه الآية لا تدل على القتال أو الإرهاب إنما تفيد الإستعداد للدفاع لصرف وزجر العدو عن المسلمين .

وهل هذا الإستعداد من مصاديق قول النبي صلى الله عليه وآله وسلم نصرت بالرعب مسيرة شهر) وأن هذا القول تفسير للآية أعلاه ، الجواب نعم .

وعن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال (أعطيت خمساً لم يعطهن أحد قبلي نصرت بالرعب مسيرة شهر وأحلت لي الغنائم ولم تحل لأحد قبلي وأوتيت جوامع الكلم وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً وبعث كل نبي إلى خاص من الناس وبعثت إلى

(١)سورة الأعراف ٢٦.
(٢)الآية ١٩١.
(٣)سورة الأنفال ٦٠.

الأسود والأحمر)[١].

الثانية : لما جاءت هذه الآية بالنهي عن التعدي جاءت آية السياق متعقبة لها لتنهى عن التعدي من وجوه:

الأول : حصر إخراج المسلمين للكفار مما أخرجوا المسلمين منه وهي بلدة مكة ، وعن ابن عباس (قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لمكة : ما أطيبك من بلدة وأحبك إليّ ، ولولا أن قومك أخرجوني ما سكنت غيرك)[٢].

الثاني : النهي عن الفتنة وبيان قبحها، ولزوم تنزه المسلمين عنها.

الثالث : عدم قتال الكفار عند المسجد الحرام إلا أن يبدأ الكفار القتال فيه.

الثالثة : لما جاءت آية البحث بالنهي عن التعدي جاءت آية السياق لتخبر عن شمول ميادين القتال بهذا النهي، ولزوم عدم غلبة النفس الغضبية على المسلمين، فلا يعتدي المسلمون على الذي لا يعتدي عليهم.

الرابعة : تفيد الآية حقيقة وهي أن مطاردة وملاحقة المسلمين للذين يقاتلونهم حتى بعد انتهاء المعركة ليس من التعدي والإعتداء لما جاء من عطف في آية السياق بقوله تعالى ﴿وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ﴾[٣] فأينما وجدتم هؤلاء الذين قاتلوكم مجتمعين ومتفرقين فخذوهم داموا ينوون إعادة الكرة بالهجوم ، وتقدير الآية (واقتلوهم حيث ثقفتموهم محاربين يريدون قتلكم) .

فان قلت ليس في الآية ما يدل على هذا التقييد ، والجواب إنما تقيده الآيات الأخرى في ذات الموضوع منها الآية السابقة التي قيدت

---

(١) المحرر الوجيز ٣٥١/٥.

(٢) الدر المنثور ٢٣٨/١.

(٣) سورة البقرة ١٩١.

القتال بأنه في سبيل الله ويشترط به عدم التعدي والإجهاز على غير المحارب تعد ، وكذا بالنسبة للإرهاب والتفجيرات العشوائية بين الناس[١] .

ومن إعجاز القرآن في المقام عدم ورود لفظ ﴿ثَقِفْتُمُوهُمْ﴾ إلا مرتين في القرآن ، قال تعالى ﴿فَإِنْ لَمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ وَيَكُفُّوا أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأُوْلَئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مُبِينًا﴾[٢] فجاءت هذه الآية صريحة بالأمر للمسلمين بالكف عن المشركين إذا اعتزلوا القتال .

وفيه تأكيد لشرعية وسلامة الكتائب التي خرج بها النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه والسرايا التي بعثها بعد معركة بدر وأحد، فليس المسلمون أمة يهجم عليها الكفار، وعند إنسحابهم يقعد المسلمون في بيوتهم خشية التعدي على الآخرين، بل أخبرهم الله عز وجل بأن ملاحقة المعتدين ليس من التعدي ما داموا ينوون العودة للقتال ، وقد خرج النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه إلى حمراء الأسد خلف جيش المشركين الذي غزا المدينة في معركة أحد ، ولم يقع قتال بهذا الخروج ، ولكن فازوا بالأجر والثواب ، قال تعالى ﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ[٣] * الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا

(١) أنظر الأجزاء (١٧٩-١٨٠-١٨٣-١٩٢-١٩٤-١٩٥-١٩٨-٢٠٦-٢٠٧-٢١٦) التي جاءت بخصوص قانون (التضاد بين القرآن والإرهاب) والأجزاء (٢٢٠-٢٢١-٢٢٢-٢٢٥-٢٢٧) والتي أختصت بقانون (النزاع المسلح بين القرآن والإرهاب).

(٢) سورة النساء ٩١.

(٣) أنظر الجزء ١٥٦ من هذا السِفر المبارك.

فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ[(١)]* فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ[(٢)]﴾ [(٣)].

وأكثر الكتائب التي جاءت بعد معركة بدر لبعث الفزع والخوف في قلوب الكفار .

وعن النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم(أعطيت خمساً لم يعطهن أحد قبلي : بعثت إلى الأحمر والأسود ، وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً ، وأحلت لي الغنائم ولم تحل لأحد كان قبلي ، ونصرت بالرعب فيرعب العدوّ وهو مني مسيرة شهر)[(٤)].

فلم يقم النبي محمد في المدينة بعد معركة بدر إلا سبع ليال حتى خرج بنفسه يريد بني سليم(قَالَ ابن هشَامٍ : وَاسْتَعْمَلَ عَلَى الْمَدِينَةَ سِبَاعَ بْنَ عُرْفُطَةَ الْغِفَارِيّ أو ابن أُمّ مَكْتُومٍ قَالَ ابن إسْحَاقَ : فَبَلَغَ مَاءً مِنْ مِيَاهِهِمْ يُقَالُ لَهُ الْكُدْرُ، فَأَقَامَ عَلَيْهِ ثَلَاثَ لَيَالٍ الْمَدِينَةَ، وَلَمْ يَلْقَ كَيْدًا، فَأَقَامَ بِهَا بَقِيّةَ شَوّالٍ وَذَا الْقَعْدَةِ وَأَفْدَى فِي إقَامَتِهِ تِلْكَ جُلّ الْأُسَارَى مِنْ قُرَيْشٍ)[(٥)].

ومن الإعجاز في الجمع بين الآيتين أن المعتدين الذين يقاتلون المسلمين لم ينفكوا عن التعدي والتحريض على المسلمين، ومحاولة مباغتتهم، فعندما رجعت قريش منهزمة من معركة بدر وقد فقدت خيرة فرسانها قال تعالى﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ﴾[(٦)].

(نَذَرَ ابو سفيان أن لَا يَمَسّ رَأْسَهُ مَاءٌ مِنْ جَنَابَةٍ حَتّى يَغْزُوَ

---

(١)أنظر الجزء ١٥٧ من هذا السِفر المبارك.

(٢)أنظر الجزء ١٥٨ من هذا السِفر المبارك.

(٣) سورة آل عمران ١٧٢-١٧٤.

(٤) الدر المنثور ٤/٤٩٥.

(٥)سيرة ابن هشام ٣/٤٧.

(٦)سورة آل عمران ١٢٣.

مُحَمّدًا صَلّى اللّهُ عَلَيْه وآله وَسَلّمَ فَخَرَجَ فِي مِئَتَيْ رَاكِبٍ مِنْ قُرَيْشٍ، لِيَبَرّ يَمِينَهُ فَسَلَكَ النّجْدِيّة، حَتّى نَزَلَ بِصَدْرِ قَنَاةٍ إلَى جَبَلٍ يُقَالُ لَهُ ثَيْب، مِنْ الْمَدِينَةِ عَلَى بَرِيدٍ أو نَحْوه ثُمّ خَرَجَ مِنْ اللّيْلِ حَتّى أَتَى بَنِي النّضِيرِ تَحْتَ اللّيْلِ فَأَتَى حُيَيّ بْنُ أَخْطَبَ، فَضَرَبَ عَلَيْهِ بَابَهُ فَأَبَى أن يَفْتَحَ لَهُ بَابَهُ وَخَافَهُ فَانْصَرَفَ عَنْهُ إلَى سَلّامِ بْنِ مِشْكَمٍ.

وَكَانَ سَيّدَ بَنِي النّضِيرِ فِي زَمَانِه ذَلِكَ وَصَاحِبَ كَنْزِهِمْ فَاسْتَأْذَنَ عَلَيْهِ فَأَذِنَ لَهُ فَقَرَاهُ وَسَقَاهُ وَبَطَنَ لَهُ مِنْ خَبَرِ النّاسِ ثُمّ خَرَجَ فِي عَقِبِ لَيْلَتِه حَتّى أَتَى أَصْحَابَهُ فَبَعَثَ رِجَالًا مِنْ قُرَيْشٍ إلَى الْمَدِينَةِ، فَأَتَوْا نَاحِيَةً يُقَالُ لَهَا : الْعُرَيْضُ، فَحرَقُوا فِي أَصْوَارٍ مِنْ نَخْلٍ بِهَا، وَوَجَدُوا بِهَا رَجُلًا مِنْ الْأَنْصَارِ وَحَلِيفًا لَهُ فِي حَرْثٍ لَهُمَا، فَقَتَلُوهُمَا، ثُمّ انْصَرَفُوا رَاجِعِينَ)[1].

فخرج رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه في طلبهم، ولم يدركوا أبا سفيان وأصحابه الذين قاموا بألقاء أمتعتهم وأكثرها من السويق وهو حنطة أو شعير مطحون وممزوج بعسل وسمن فاستولى عليها المسلمون فسميت كتيبة السويق.

ولم تحصل معركة كبرى بين المسلمين والكفار بعد معركة بدر إلا بعد نحو سنة عندما زحف الكفار بجيش عرمرم من ثلاثة آلاف مقاتل على المدينة المنورة لقتل النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وقتل أو أسر وتفريق أصحابه، فكان لتلك الكتائب والسرايا موضوعية في تقوية عزائم المسلمين، وتأهيلهم للقتال، وبعث الفزع والخوف في قلوب الكفار.

الخامسة : جاءت آية السياق بالأمر بقتل الكفار أينما وجدوا أي الذين قاتلوا المسلمين في معركة بدر وأحد ويعدون العدة لمعارك أخرى ، وهو لا يتعارض مع النهي عن التعدي الذي جاءت به آية

(١)سيرة ابن هشام ٣/ ٤٨.

البحث، ومن موارده النهي عن قتل الصبيان والنساء والعزل والشيوخ ، (وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم.

عن ابن عباس في قوله {ولا تعتدوا} يقول : لا تقتلوا النساء والصبيان، ولا الشيخ الكبير، ولا من ألقى السلم وكف يده، فإن فعلتم فقد اعتديتم)[١].

الخامسة : يفيد الجمع بين الآيتين أن قتل الكفار عند المسجد الحرام من دون قتال هو من التعدي الذي نهت عنه آية البحث، إلا أن يرد نسخ وحكم يسقط هذا التقييد، وهو معدوم في المقام، وكان للعرب في الجاهلية ضوابط تحكم صيغ القتال والثأر بينهم، فإذا رأى أحدهم قاتل أخيه في الشهر الحرام وتمكن منه فانه لا يقتله لحرمة الشهر، وهذه الضوابط من بقايا الحنيفية.

فجاءت آية البحث بقوانين سماوية ثابتة إلى يوم القيامة وتتصف بالرحمة والإحاطة بالوقائع والأحداث، قال تعالى ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلاَّ مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالأَزْلاَمِ ذَلِكُمْ فِسْقٌ الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلاَ تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمْ الإِسْلاَمَ دِينًا فَمَنْ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[٢]، إذ أن بقايا الحنيفية إلى تضاؤل وزوال أما أحكام القرآن فهي تتجدد كل يوم ﴿تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ﴾[٣].

(١)الدر المنثور ٤١٠/١.
(٢)سورة المائدة ٣.
(٣)سورة إبراهيم ٣٥.

السادسة : أختتمت آية البحث بقوله تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ وأختتمت آية السياق بقوله تعالى ﴿كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ﴾ لبيان أن الكفار هم المعتدون، وأن إعتداءهم مركب على كل من :

الأول : النبوة .

الثاني : التنزيل .

الثالث : أهل الإيمان .

الرابع : على أنفسهم .

الخامس : على الأجيال اللاحقة .

السادس : على الفرائض العبادية .

السابع : الإعتداء على البيت الحرام وقدسيته .

فجاء البطش بصيغة الجزاء، قال تعالى ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾[1].

إعجاز الآية

الأمر الصريح بالقتال والجهاد في سبيله تعالى يدل على قوة الإسلام وعز المؤمنين وملازمة النهي عن الإعتداء للقتال في سبيله تعالى من غير تعارض بينهما.

والآية هداية الى طرق الجنة وتنقيح للأفعال واتمام للنفع، واشارة ومقدمة للجهاد بالمعنى الأخص، وفيها اخبار عن :

الأول : انتشار الإسلام .

الثاني : تولي الحكم ، قال تعالى ﴿وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ

---

(١)سورة النحل ١١٨.

تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾ (١) .

الثالث : ادارة شؤون الناس .

الرابع : حفظ المصالح العامة والخاصة .

الخامس : كما تجعل الآية المسلمين يندفعون في اداء واجبهم من غير تردد أو ريب.

ليس من أمة تستطيع الدوام على الدفاع والخروج في كتائب، والحضور المتجدد في ميادين القتال إلا أهل الإيمان ، وهو من مصاديق قوله تعالى ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ (٢).

وتدل الشواهد على قيام دول وممالك وخوضها معارك ضارية ثم لا يلبث أن يزول سلطان الغالب والمغلوب مع فارق نسبي من جهة أوان الزوال، لتأتي أجيال تنفر من الحرب وتأبى البقاء على الإنقياد للرؤساء في مصالحهم وحبهم لتوسعة رقعة سلطانهم، والإجهاز على خصومهم إلا الإسلام ، قال تعالى ﴿وَتِلْكَ الْقُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِدًا﴾ (٣) .

وتدعو آيات البحث المسلمين كل يوم للقتال دفاعاً ، وكل جيل يتلقى الدعوة والأمر بالقتال من السماء وبما يكون خالياً من النفع الخاص والشخصي وغريزة التسلط والإستحواذ .

وتبعث الآية رسالة أمن إلى جميع أهل الأرض بتقييدها القتال بأنه (في سبيل الله) وليس من أجل مصالح دنيوية، أو غايات رئاسية، أو بسبب الحسد والشر لكي يطمئن الذين لا يحاربون النبوة والإسلام من نوايا المسلمين.

---

(١) سورة النساء ٥٨ .

(٢) سورة آل عمران ١١٠.

(٣) سورة الكهف ٥٩.

وما يقومون بفعله وإن كان تعبئة وتدريب الجيوش، وإقتناء الأسلحة والمؤن الملازمة للقتال دعوة للمسلمين للتفقه في الدين ، وتتجلى هذه التعبئة ومن غير قتال أو هجوم بقوله تعالى ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لاَ تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لاَ تُظْلَمُونَ﴾ [1].

وأن تكون رقابة منهم على قرار الحاكم بالقتال بأن يكون في سبيل الله تعالى مع وجود المقتضي وفقد المانع .

وتتجلى هذه الرقابة بمجيء الخطاب في الآية للمسلمين على نحو العموم الإستغراقي الذي ينبسط على كل ذكر وأنثى منهم، ومع قلة كلمات الآية فأنها قرنت الأمر بالقتال بالنهي عن أمور عرضية قد تصاحبه، فقال الله تعالى ﴿وَلاَ تَعْتَدُوا﴾ [2] لتنزيه المسلمين عن الظلم، ولإقامة الحجة على الناس بأن قتال المسلمين هو في سبيل الله، ولمنع إمتلاء الصدور بالغل والعناد ، ومن معاني ﴿وَلاَ تَعْتَدُوا﴾ وجوه :

الأول : يا أيها الذين آمنوا لا تبدأوا قتالاً .

الثاني : يا أيها الذين آمنوا لا تقاتلوا الذين لم يقاتلوكم .

الثالث : لا تقاتلوا النساء والصبيان والناس العزل .

الرابع : كفوا أيديكم أن أوقف المشركون غزوهم وهجومهم ، إذ أن المعجزات والآيات تنفذ إلى بيوتهم .

وقد ورد ذات لفظ ﴿وَلاَ تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ في قوله تعالى ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُوا إِنَّ

(١) سورة الأنفال ٦٠.

(٢) سورة البقرة ١٩٠.

﴿اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ (١) أي لا تحرموا الطيبات ، ولا تسرفوا في تناولها ، ولا تمنعوا الناس من الماء والكلأ والرزق الكريم .

(وعن ابن عباس قال : كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إذا بَعَث جيوشه قال : "اخرجوا بسم الله، قاتلوا في سبيل الله من كفر بالله، لا تغدروا ولا تغلوا، ولا تُمَثلوا، ولا تقتلوا الولدان ولا أصحاب الصّوامع")(٢).

ويشمل النهي في قوله تعالى(ولا تعتدوا) التعدي أثناء وجوهاً:

الأول : أثناء القتال وحدوث المعركة وإلتحام الجيوش.

الثاني : قبل بدأ القتال.

الثالث : إختيار الجهة الكافرة التي يقاتلها المسلمون.

الرابع : الامتناع عن التعدي أثناء المعركة على الذين لم يقاتلوا ولم يشتركوا في القتال ممن يطلق عليهم في هذا الزمان(المدنيين).

لقد أراد الله أن تأتي أول آية في نظم القرآن بالأمر بالقتال وبيان موضوع وعلة قتال المسلمين وهو(في سبيل الله) ليكون سور الموجبة الكلية الذي يحيط بكل أحوال المسلمين في قيامهم بالدفاع عن الإسلام .

وهل في الآية زجر عن قتال المسلمين بينهم أم لا، وأن هذا الزجر ظاهر ومستقرأ من آيات أخرى منها قوله تعالى﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾(٣)، وقوله تعالى﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا﴾(٤)، وقوله تعالى﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضْ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ﴾(٥)، فلا يكون

(١) سورة المائدة ٨٧.

(٢) تفسير ابن كثير ٥٢٤/١.

(٣)سورة الحجرات ١٠.

(٤)سورة آل عمران ١٠٣.

(٥)سورة الأنفال ٦٥.

التحريض إلا على قتال الكفار المشركين .

الجواب هو الأول، فإن الأمر الوارد في هذه الآيات هو بقتال المسلمين للكفار، وهو متوجه إلى المسلمين على نحو العموم الإستغراقي والمجموعي بأن يقاتلوا كلهم مجتمعين ويكونوا يداً واحدة على أعدائهم، وحصول القتال بينهم نقيض لأمرهم لقتال غيره، والنقيضان لا يجتمعان .

لتدل آية البحث في مفهومها ودلالتها الإلتزامية على عدم جواز قتال المسلمين فيما بينهم، وإن حصل هذا القتال بالعرض يكون طارئاً لوجوب المبادرة للصلح ﴿وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا﴾[1] .

ويمكن تسمية هذه الآية الكريمة آية (قاتلوا) وقد ورد هذا اللفظ تسع مرات في القرآن، وهذه هي المرة الأولى وفق نظم القرآن التي يرد فيها هذا اللفظ ومادة (قتل) .

وهو إعجاز نظم القرآن فقد جاءت قبلها في سورة الفاتحة وما تقدم من سورة البقرة آيات الأحكام وبيان سنن الصلاة وآداب الصيام ومناسك الحج وعلم الكلام وآيات في المعاملات والعقود والإيقاعات كالنكاح والطلاق .

ثم إبتدأت هذه الآيات بأحكام القتال، وكما جاء أول التنزيل بالبعث على العلم بقوله تعالى ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾[2] ، فإن أول آيات القتال وفق النظم القرآني جاءت بالأمر العام للمسلمين بالقتال في سبيل الله.

---

(١)سورة الحجرات ١١.

(٢)سورة العلق ١.

(وقد حكي عن أبي بكر الصديق : أن أول آية نزلت في القتال بعد الهجرة، {أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا}[1] الآية وهو الأشهر وبه ورد الحديث)[2] .

وتمنع الآية الإفراط والتفريط، فلا يحصل إسراف في القتل، وتزجر عن أسباب إستدامته، فإذا زال سبب القتال عاد المسلمون إلى مدرسة الفقاهة في الحضر.

ومن مصاديق تلك الفقاهة الإستعداد للقتال في سبيل الله، والتنزه عن التعدي على الذين لم يقاتلوا المسلمين ولم يعتدوا عليهم، وتأكيد حرمة الإنسان الذي أكرمه الله بخلقه والنفخ من روحه فيه، قال تعالى﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾[3].

الآية سلاح

تعطي الآية الإذن الإجمالي للمسلمين بالدفاع وتساعد النبي صلى الله عليه وآله وسلم في توجيه المسلمين الى سوح المعارك والدفاع من غير ان يظهر الخلاف بينهم في الأسباب والعلل وامكان التأخير والإرجاء وهي تأديب للمسلمين وتهذيب لنفوسهم واعمالهم، وانذار للكافرين ، وحصر لزمان ومكان القتال .

وتبين الآية أن القتال ليس بأمر النبي صلى الله عليه وآله وسلم أو انه قابل للترديد والتشكيك ويبعث الأمر بالقتال الرعب والفزع في قلوب الأعداء والكافرين لحصول العلم الإجمالي عندهم بان المسلمين مستعدون للدفاع .

والآية دعوة لأخذ الحائطة للدفاع والإستعداد له لعمومات قوله

---

(١) سورة الحج ٣٩.

(٢)تفسير ابن كثير ٥٢٤/١.

(٣)سورة الأنعام ١٥١.

تعالى ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ﴾[1] والإعداد مطلق في الآية فالآية في مفهومها وعيد وتخويف وانذار للكفار وفيها اخبار بان المسلمين ومما هو ثابت عرفاً ووجداناً أن العدو متى ما علم أن الفئة المواجهة مستعدة ومتأهبة للقتال فانه يصبح حذراً متردداً وحريصاً على تجنب القتال، وفي استدامة حال المسلم مناسبة لنشر الإسلام واعلاء كلمته وبيان احكامه والآيات الإعجازية في القرآن والنبوة.

أسباب النزول

ذكر في نزول الآية قولان:

الأول : هذه الآية اول آية نزلت في القتال ومن الإعجاز إفادتها الدفاع المحض .

فلما نزلت كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقاتل من قاتل ويكف عن قتل من تركه، وبقي على هذه الحالة الى أن نزل قوله تعالى ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ﴾[2] روي عن الربيع بن أنس وعبد الرحمن بن زيد[3].

ولكن هناك تباين جهتي في موضوع الآيتين فالقتال اعم من القتل وتارة تكون النسبة بينهما عموماً وخصوصاً من وجه فمادة الإلتقاء القتال، ومادة الإفتراق الإقتتال على نحو المفاعلة في القتال، وعدم القتال في القتل خاصة، فاحياناً يكون القتل من غير قتال وعلى نحو القضية الشخصية، كما في الأمر بالقتل، وحال العقوبة .

ومن معاني الجمع بين الآيتين : فاقتلوا المشركين الذين لا زالوا

---

(١)سورة الأنفال ٦٠.

(٢) سورة التوبة ٥.

(٣)أنظر مجمع البيان في تفسير القرآن ٢/ ٢٣.

يقاتلونكم .

ان الأمر بالقتال يدل على قوة المسلمين وان لم ينف القلة لعمومات قوله تعالى ﴿كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً﴾(١).

والآية تمنع من سلطان الآراء الشخصية والأهواء، وتقول بتقديم القتال والرد والدفاع، بمعنى انه لو حصل تعارض بين القتال وبين عدمه مقدم .

وظاهر الأمر انه محمول على الوجوب فان الصبر وعدم القتال إلا مع قرينة على إرادة الإستحباب والندب.

الثاني : أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم خرج باصحابه في شهر ذي القعدة من السنة السادسة للهجرة قاصداً الحج ونزل الحديبية وهو موضع كثير الشجر والماء فصدهم المشركون عن دخول البيت فاقام نحو عشرين ليلة لا يقدر على ذلك ثم صالحوه على أن يرجع ذلك العام ويعود اليهم في العام القابل، ويتركون له مكة ثلاثة ايام حتى يطوف وينحر الهدى ويفعل ما يشاء.

فرضى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بذلك وصالحهم عليه ثم عاد إلى المدينة ، ونزل قوله تعالى ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا * لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا * وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا﴾ (٢).

وتجهز النبي صلى الله عليه وآله وسلم في السنة القابلة، ثم خاف أصحابه من قريش أن لا يفوا بالوعد ويصدوهم عن المسجد الحرام وان يقاتلوهم، وكانوا كارهين لمقاتلتهم في الشهر الحرام وفي الحرم، فانزل الله تعالى هذه الآيات وبين لهم كيفية المقاتلة أن احتاجوا

(١)سورة البقرة ٢٤٩.

(٢) سورة الفتح ١-٣ .

إليها، فقال ﴿ قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾.

(أي يحل لكم القتال أن قاتلكم الكفار فالآية متصلة بما سبق من ذكر الحج وإتيان البيوت من ظهورها)[1].

وسيأتي مزيد بيان وتفسير في الجزء الثامن والعشرين بعد المائتين وهو بعنوان (آيات الدفاع سلام دائم) .

مفهوم الآية

بعد آيات الصيام والحث على التقوى وترجمتها في الواقع اليومي والصلات الاجتماعية انتقلت الآية الى موضوع الجهاد وكأن تنظيم الحياة الاجتماعية مقدمة للدفاع وخوض المعارك مع الكفار ، سواء لوجوب هذه المقدمة أو أن الواجب لا يتحصل الا بها فهي واجب.

وان الوجوب يترشح عليها من وجوب الدفاع وتحقيق مستلزماته ومن المواقيت واحكام الاهلة ضبط المسلمين لأوقات الإستعداد للدفاع ضد هجوم محتمل من الكفار مع معرفة اوانه أو عدم معرفته.

ومن منافع الاهلة في المقام اختيار ليالي المحاق والهلال أو الاستفادة من ضوء القمر في الليالي البيض وفي الثالث عشر والرابع عشر والخامس عشر من كل شهر قمري.

ان بناء مجتمع سليم عقيدة وخلقا وعلى اسس قرآنية ثابتة من اهم اسباب توجه المؤمنين الى القتال لما فيه من ضمان للنظام العام للحياة الاسرية حال وجود رب الاسرة أو عند غيابه بل وحتى عند استشهاده لان أحكام القرآن باقية الى يوم القيامة وجاء الامر بالدفاع في الآية مقترناً بقيدين :

الاول : أن القتال في سبيل الله تعالى .

(١) تفسير القرطبي ٢/٢٤٤.

الثاني : أن القتال متوجه الى الذين يقاتلون المسلمين، وفيه رد على دعوى قيام الاسلام بالسيف بل أن الاسلام اتخذ موقف الدفاع عن العقيدة والتنزيل وعن المجتمعات وعن الافراد وانه استطاع أن يمنع النفس الغضبية الشهوية من التحكم بالقرار، وتوظيف السيف آلة لها.

إفاضات الآية

لما أخبر الله الملائكة عن إرادته بتنصيب خليفة في الأرض إحتجت الملائكة بصيغة الإستفهام وسؤال البيان ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾[1]، فقد رأت وعلمت الملائكة بما يفعله الكفار من التعدي والظلم وأسباب الجحود.

لأن الكفر بذاته فساد ومقدمة للفساد فجاء الرد من الله آية في العالمين، ودعوة للمؤمنين، للتحلي بأخلاق الله، قال تعالى ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾[2]، ومن علمه تعالى نزول آية البحث بالأمر بالدفاع ، وتوجه هذا الأمر إلى ﴿خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾[3].

ليكون من مصاديق خروج المسلمين للناس قتال الكفار عبدة الأصنام وإستئصال الفساد في الأرض، ومنع عودة الطواغيت وعبادة الأوثان إلى الأرض.

إذ إنقطعت ببعثة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وبركات هذه الآية التي جعلت سيوف المسلمين مشرعة في الليل والنهار وحال الإقامة والظعن للقتال في سبيله سبحانه.

---

(١)سورة البقرة ٣٠.

(٢)سورة البقرة ٣٠.

(٣)سورة آل عمران ١١٠.

الآية لطف

إبتـدأت الآيـة بـالأمر بالقتـال دفاعـا ، ومـن إعجـاز ذات الآيـة دلالتها بأنه دفاع محض لتقييده .

وجاء الأمر عاماً لكل المسلمين، ليكون واجباً كفائياً بأن يؤديه الذين تتحقق معهم الغاية والهدف، ولا يعني سقوطه عن الآخرين، بل هو مراتب ودرجات ونوبات.

لذا صار ديوان خاص للجند والنفير وليس أشد على الإنسان من الإقدام على القتال، وخوض المعارك وإحتمال القتل، مع ترك حياة الدعة بين الأهل والأحبة.

ولكن القتال الذي جاءت به الآية رحمة متجددة للمسلمين، ولطف من عند الله بهم، لأنه مفروض عليهم، فقد إختاروا الإيمان وهو واجب أرفع رتبة من وجوب القتال، لأن الأخير فرع عنه، وسبيل للحفاظ عليه.

الصلة بين أول وآخر الآية

إبتـدأت الآيـة بحـرف العطـف والإسـتئناف للإشـارة إلى إتصـال موضوعها بالآية السابقة، وفيه دعوة للمسلمين عامة والعلماء خاصة لإقتباس المسائل والدلالات من حرف العطف في المقام.

ومن معاني الجمع بين الآيتين :

الأول : تقدير الجمع بين الآيتين هو : وأتقوا الله لعلكم تفلحون وقاتلوا في سبيل الله).

الثاني : الإتحاد في لغة الخطاب في الآيتين بتوجهه إلى المسلمين جميعاً ، وتقدير الآية على وجوه :

الأول : يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله لعلكم تفلحون .

الثاني : نشوب القتال بين النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم والمشركين شاهد على ظلم وتعدي رؤساء الكفر ، لذا كان من

تـوالي المعـارك في بـدر ثـم أحـد ثـم الخنـدق عـزوف النـاس عـن القتـال وتخليهم عن رؤساء قريش مع كثرة الأموال التي أنفقوها عليهم .

الثالث : مجيء رجاء الفلاح والتوفيق للمسلمين بين أمرين:

أولاً : الأمر بتقوى الله .

ثانيـاً : الأمـر بالقتـال في سـبيل الله بخصـوص الـذين يقـاتلونهم أي أنه دفاع محض .

الرابـع : الـدفاع في سـبيل الله مـن مصـاديق التقـوى، وبينهمـا عمـوم وخصوص مطلق، وكأن الواو لعطف الخاص على العام .

ويحتـاج المسـلمون التقـوى في حـال القتـال وحـال السـلم، ومـن التقـوى الصـبر عنـد القتـال، فـإن قلـت قـد ورد قولـه تعـالى في معركـة أحـد ﴿وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ﴾[1].

المـراد في الآيـة أعـلاه التعـدد والمغـايرة والجمـع بـين الصـبر والخشـية مـن الله وهـو مـن عطـف الخـاص علـى العـام، وكمـا يـراد مـن الصـبر في قوله تعالى(واستعينوا بالصبر والصلاة)أداء فريضة الصيام .

والمـراد مـن الصـبر في آيـة البحـث في ميـدان القتـال ومواجهـة لمعـان السيوف، والصبر عن التعدي والطمع والقتال من غير حاجة إليه.

ومـن الإعجـاز في إجتمـاع الأمـر بالقتـال والنهـي عـن التعـدي في الآية أمور:

الأول : تقييد القتال بأنه في سبيل الله.

---

(١)سورة آل عمران ٢٥.

الثـاني : عـدم اللجـوء إلى القتـال إلا عنـد الحاجـة وأحكـام الضـرورة، قـال تعـالى ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾(١).

الثالث : إجتناب التعدي قبل وأثناء القتال وبعده.

وبعـد حـرف العطـف جاء الأمـر بالقتـال المتوجه للمسـلمين جميعـاً فـأن قلـت أن الـزمن والشـيوخ والكبـار ونحـوهم لـيس علـيهم قتـال فلماذا جاءت الآية بلغة العموم.

والجواب من وجوه:

الأول : قـد ورد الإسـتثناء والتخصـيص في آيـات أخـرى كمـا في قولـه تعـالى ﴿لَيْسَ عَلَى الأَعْمَى حَرَجٌ وَلاَ عَلَى الأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلاَ عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾(٢).

الثـاني : الآيـة أعـم مـن القـدرة وعـدم القـدرة علـى القتـال بـل تتضـمن مخاطبـة المسـلمين مجتمعين ومتفـرقين، فيشـمل الخطـاب في الآيـة النساء وليس عليهن قتال، ولكنه يشملهن من وجوه:

الأول : بعث المقاتلين على الجهاد، وتنشيط الهمم.

الثاني : الدعاء بالنصر والغلبة للمسلمين.

الثالـث : عـدم صـد الـزوج والابـن والأب والأخ عـن الخـروج إلى ميـادين الـدفاع ، وجـاء قولـه تعـالى في معركـة أحـد ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ﴾(٣)، آيـة في إعانـة المؤمنـات لجـيش المسـلمين علـى الخـروج، لأن الأصـل هـو إنتفـاء الإعـتراض والإحتجـاج من طرفهن إلا أن يرد دليل وخبر خاص في المقام، وهو معدوم.

---

(١)سورة البقرة ٢١٦.

(٢)سورة النور ٦١.

(٣)سورة آل عمران ١٢١.

الرابع : المساهمة في تجهيز الجيش وتهيئة المقدمات والمؤن.

الخامس : الخروج مع الجيش لأغراض السقاية ولوازم المعركة ، وتضميد الجرحى كما في معركة أحد .

السادس : إظهار الصبر على الفراق.

السابع : تلقي نبأ شهادة القريب بالصبر والإسترجاع، كما في رجوع المسلمين من معركة أحد، وإظهار نسوة الأنصار أسمى آيات الرضا بأمر الله، وسقوط الشهداء من الأحبة.

ولا يتعارض معه بكاؤهن وحرقة الألم عند الفراق (قَالَ ابن إسْحَاقَ : وَمَرّ رَسُولُ اللّه صَلّى اللّهُ عَلَيْه وآله وَسَلّمَ بِدَارِ مِنْ دُورِ الْأَنْصَارِ مِنْ بَنِي عَبْدِ الْأَشْهَلِ وَظَفَرٍ فَسَمِعَ الْبُكَاءَ وَالنّوَائِحَ عَلَى قَتْلَاهُمْ فَذَرَفَتْ عَيْنَا رَسُولِ اللّه صَلّى اللّهُ عَلَيْه وآله وَسَلّمَ فَبَكَى ، ثُمّ قَالَ لَكِنّ حَمْزَةَ لَا بَوَاكِيَ لَهُ فَلَمّا رَجَعَ سَعْدُ بْنُ مُعَاذ وَأُسَيْدُ بْنُ حُضَيْرٍ إلَى دَارِ بَنِي عَبْدِ الْأَشْهَلِ أَمَرَا نِسَاءَهُمْ أن يَتَحَزّمْنَ ثُمّ يَذْهَبْنَ فَيَبْكِينَ عَلَى عَمّ رَسُولِ اللّه صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وآله وَسَلّمَ)(١).

وإبتدأت الآية بالمطلق والمقيد من غير وجود كلمة أو موضوع بينهما، فالمطلق هو القتال والأمر العام فيه ، والتقييد هو خصوص الموضوع والغاية بأن يكون في سبيل الله، وفيه آية إعجازية تمنع من التعدي والظلم في أخطر موضوع بين الناس وهو القتال، فحينما إحتج الملائكة على جعل الإنسان خليفة كما ورد في التنزيل ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾(٢).

---

(١)سيرة ابن هشام ٩٨/٢.

(٢)سورة البقرة ٣٠.

جاء الرد من عند الله عز وجل بقوله سبحانه ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾(١)، وفيه بلحاظ المقام مسائل:

الأولى : أن الذين يسفكون الدماء من الكفار ظلماً ينتقم الله عز وجل منهم وهو الذي أعدّ لهم عذاباً أليماً في الآخرة.

الثانية : جاء الأمر من الله عز وجل للمؤمنين بقتل الكفار، قال تعالى ﴿فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ﴾(٢).

الثالثة : نزول المدد من الله عز وجل للمسلمين في ميادين القتال، وليس من حصر لمصاديق وأفراد هذا المدد، وتجلى في معارك الإسلام الأولى بنزول الملائكة الذين إحتجوا على سفك الدماء في الأرض، وفيه وجوه:

الأول : أراد الملائكة في إحتجاجهم خصوص القتل ظلماً وبغير حق.

الثاني : كان إحتجاج الملائكة على حال القتل مطلقاً، فلما قال الله عز وجل لهم ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾(٣)، صار عندهم تمييز بين القتل بالحق والقتل بالباطل.

الثالث : تلقي الملائكة الأمر الإلهي بالنزول والدفاع عن النبي محمد والمؤمنين ونصرتهم بالقيود والإمتثال ، قال الله عز وجل في الثناء على الملائكة ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ﴾(٤).

---

(١)سورة البقرة ٣٠.

(٢)سورة البقرة ١٩٦.

(٣)سورة البقرة ٣٠.

(٤)سورة التحريم ٦.

والصحيح هو الأول والثالث في طوله، والقدر المتيقن من إحتجاج الملائكة هو إرادة القتل ظلماً، وسفك الدماء بغير حق، ومن علم الله في المقام أمرين:

الأول : العقاب الأليم للذي يقتل المؤمن، قال تعالى ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا﴾[1].

الثاني : الثواب العظيم للذي يقتل في سبيل الله، ولبثه الدائم في النعيم، قال تعالى ﴿وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾[2].

الرابعة : دفاع المؤمنين بأمر من الله وفي سبيله، وهوحرب على الفساد، وبرزخ دون سفك الدماء، فإن قلت كيف يكون برزخاً وهو ذاته قتل.

الجواب قد ورد وصف القصاص بأنه حياة مع أنه قتل ، قال تعالى ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[3]، لأن من فلسفة القصاص امتناع الإنسان عن قتل غيره فهو يعلم بأن عاقبة هذا القتل القصاص منه فيجتنب القتل، فيكون القصاص حياة للطرفين، وتسود معاني الأخوة والأخلاق الحميدة بين الناس.

(١)سورة النساء ٩٣.

(٢)سورة آل عمران ١٦٩.

(٣)سورة البقرة ١٧٩.

من غايات الآية

في الآية مسائل:

الأولى : توجيه الأمر والتكليف إلى الصحابة بالدفاع بعد الدعوة إلى الإسلام بالكلمة والموعظة ، ومقابلة المشركين لها بالهجوم وغزو المدينة كما في معركة أحد والخندق

الثانية : وتقييد القتال بأنه خاص بالذين يقاتلون المسلمين والنهي عن التعدي يدل بالدلالة الإلتزامية أن الكفار لم يطيقوا دخول الناس في الإسلام برؤية المعجزات الحسية وإدراك المعجزات العقلية التي جاء بها النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم فاتجهوا إلى قتال المسلمين ، قال تعالى ﴿إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ﴾[1].

الثالثة : في الآية دعوة للمسلمين للتأهب للدفاع ، وإعداد مقدماته، قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : الْخَيْلُ مَعْقُودٌ فِي نَوَاصِيهَا الْخَيْرُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ الْأَجْرُ وَالْمَغْنَمُ)[2].

الرابعة : بيان حقيقة، وهي من خصال المؤمنين القتال في سبيل الله، وهو من عمومات قوله تعالى﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾[3].

الخامسة : زجر المسلمين عن القتال للعصبية القبلية والبلدية ، وإثارة الحروب للحدود بين الأمصار مثلاً.

السادسة : تهذيب أخلاق المسلمين وجعلها وسيلة لجذب الناس إلى الإسلام، وهو من عمومات قوله تعالى﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾[1].

---

(١) سورة الممتحنة ٢.

(٢)مسند أحمد ٣٥٣/٣٩.

(٣)سورة آل عمران ١١٠.

ومن الحكمة إظهار الرأفة، وترك الإنتقام في ميدان المعركة.

السابعة : إيجاد وتأكيد سنن في الدفاع تتجلى بالتنزه عن التعدي مطلقاً، وعدم الإجهاز على الأسير والجريح، وترك الفار إذ لم يقصد اللجوء إلى فئة وعصبة والرجوع لقتال المسلمين ، وتتقوم هذه السنن بمعرفة حدود الله، قال تعالى ﴿وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾(٢).

(وبالإسناد عن حُذَيفة يقول : ضرب لنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أمثالا واحدًا، وثلاثة، وخمسة، وسبعة، وتسعة، وأحدَ عشَرَ، فضرب لنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم منها مثلا وترك سائرَها، قال : "إن قومًا كانوا أهلَ ضَعْف ومسكنة، قاتلهم أهلُ تجبر وعداء، فأظهر الله أهل الضعف عليهم، فعمدوا إلى عَدُوهم فاستعملوهم وسلطوهم فأسخطوا الله عليهم إلى يوم يلقونه)(٣).

أي أن السخط الإلهي نزل على المستضعفين أوان قوتهم عندما بطشوا بعدوهم وتأمروا عليه بأذلاله وإهانته ، لبيان مصاديق متعددة لقوله تعالى ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾(٤) بعفو النبي صلى الله عليه وآله وسلم من الذين قاتلوه يوم فتح مكة ، قال تعالى ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ. . .﴾(٥).

---

(١)سورة النحل ١٢٥.

(٢)سورة الطلاق ١.

(٣)تفسير ابن كثير ٥٢٤/١.

(٤)سورة الأنبياء١٠٧.

(٥)سورة آل عمران ١٥٩.

التفسير

قوله تعالى ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ﴾

الحث على التقوى والتنبيه على لزوم التغلب على الأعداء في النفس فهي ساحة المعركة مع الشيطان واعوانه ، وفي التنزيل ﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾(١) .

وجاءت هذه الآية للدفاع في سبيله تعالى .

فالتقوى اصلاح للنفس وتقوية لها بطرد الصفات البهيمية والشهوانية من مملكتها، وهي دعوة لإقحامها في معترك اعمال البر والصلاح وبذلها في جنب الله.

وفي الآية دلالة على أن الاسلام لم ينتشر بالسيف، لتقييد القتال على شرط اعتداء الآخرين، والقتال لمنع الاعتداء والظلم.

وقال القرطبي وللمرأة آثار عظيمة في القتال منها الإمداد بالأموال ومنها التحريض على القتال وقد يخرجن ناشرات شعورهن نادبات مثيرات معيرات بالفرار وذلك يبيح قتلهن غير أنهن إذا حصلن في الأسر فالاسترقاق أنفع لسرعة إسلامهن ورجوعهن عن أديانهن وتعذر فرارهن إلى أوطانهن بخلاف الرجل)(٢).

ولكن ورد عن النبي كره قتل المرأة في ميدان القتال وفي واقعية حنين (رَسُولَ اللّه صَلّى اللّهُ عَلَيْه وآله وَسَلّمَ مَرّ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ، وَالنّاسُ. مُتَقَصّفُونَ عَلَيْهَا فَقَالَ مَا هَذَا؟

فَقَالُوا : امرأة قَتَلَهَا خَالدُ بْنُ الْوَلِيد؟

فَقَالَ رَسُولُ اللّهِ صَلَّى اللّهُ عَلَيْهِ وآلهوسَلّمَ لِبَعْضِ مَنْ مَعَهُ أَدْرِكْ

---

(١) سورة يوسف ٥٣.

(٢)تفسير القرطبي ٢/٣٤٤.

خَالِدًا، فَقُلْ لَهُ : أن رَسُولَ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وآله وَسَلّمَ يَنْهَاك أن تَقْتُلَ وَلِيدًا أو امرأة أو عَسِيفًا)[١].

ولكن حديث النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم أعلاه مطلق فقد رأى المرأة المقتولة وهو في الدفاع، فأنكر قتلها ، ولم يسأل عن السبب وهل أعانت الكفار أم لا، والقدر المتيقن من الآية الكريمة قتال الذين يزاولون القتال والهجوم على المسلمين، فلا تدخل المرأة التي تقوم بإثارة أسباب الفتنة والندب والشعر.

ومن الإعجاز في سنة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم أو الدلائل أنها شعبة من الوحي أنه لم يكتف بكراهة قتل المرأة، ولم يؤجل النهي عن قتلها إلى ما بعد المعركة، ولم يحصر النهي عن القتل بالمرأة بل أرسل أحد أصحابه ليلحق بخالد بن الوليد ويمنعه عن قتل ثلاثة:

الأول : الصبي.

الثاني : المرأة.

الثالث : العسيف وهو الأجير الذي يؤتى به للخدمة كطهي الطعام والفلاح.

(وقال مالك لا يقتل العسفاء وهم الأجراء والفلاحون فقال مالك في كتاب محمد : لا يقتلون وقال الشافعي : يقتل الفلاحون والأجراء والشيوخ الكبار إلا أن يسلموا أو يؤدوا الجزية)[٢].

وحديث النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم أعلاه حجة في المقام، بأنه لا يجوز قتل العسفاء والأجراء والفلاحين والنساء والصبيان والرهبان .

أن الواقعة كانت قتل امرأة فقد نهى في الحال عن قتل ثلاثة ،

---

(١) سيرة ابن هشام ٤٥٧/٢.

(٢) تفسير القرطبي ٢٤٤/٢.

ليكـون الحـديث قاعـدة كليـة يعتمـد فيهـا القيـاس منصـوص العلـة، وعـدم قتـل هـؤلاء والـذين مثلـهم ، والفرقـان في المقـام هـو آيـة البحـث الـتي جـاءت بـالأمر بقتـال الـذين يقـاتلون المسـلمين، والقتـل أخـص مـن القتال ، فقد يقع قتال من غير قتل وكذا العكس .

وعـن ابـن عبـاس في الآيـة (لا تقتلـوا النسـاء ولا الصِّـبيان ولا الشـيخ الكـبير ولَا مـنْ ألقـى إلـيكم السَّـلَمَ وكـفَّ يَـده، فـإن فَعلـتم هـذا فقـد اعتديتم)(1)،

لطف النبوة مع ابنة حاتم الطائي

وفي قصـة إبنـة حـاتم الطـائي آيـة في النبـوة وسـنة رسـول الله صـلى الله عليـه وآلـه وسـلم فقـد إنهـزم عـدي بـن حـاتم بزوجتـه وأولاده إلى بلاد الشام حينما قدمت جيوش المسلمين وترك أخته سفانة.

قال(وَتُخَـالِفُنِي خَيْـلُ لِرَسُـولِ اللّـه صـلى الله عليـه وآلـه وسـلم فَتُصِيبُ ابْنَةَ حَاتِمٍ فِيمَنْ أَصَابَتْ فَقُدِمَ بِهَا عَلَى رَسُولِ اللّه صلى الله عليه وآله وسلم فِي سَبَايَا مِنْ طَيّئٍ وَقَدْ بَلَغَ رَسُولَ اللّه صلى الله عليه وآله وسلم هَرَبِي إلَى الشّامِ، قَالَ فَجُعِلَتْ بِنْتُ حَاتِمٍ فِي حَظِيرَةٍ بِبَابِ الْمَسْجِدِ كَانَتْ السّبَايَا يُحْبَسْنَ فِيهَا، فَمَرّ بِهَا رَسُولُ اللّه صلى الله عليه وآله وسلم فَقَامَتْ إلَيْه وَكَانَتْ امرأة جَزْلَةً فَقَالَتْ يَا رَسُولَ اللّه هَلَكَ الْوَالِدُ وَغَابَ الْوَافدُ فَامْنُنْ عَلَيّ مَنّ اللّهُ عَلَيْك.

قَالَ وَمَنْ وَافِدُك ؟ قَالَتْ عَدِيّ بْنُ حَاتِمٍ . قَالَ الْفَارّ مِنْ اللّه وَرَسُولِه؟ قَالَتْ ثُمّ مَضَى رَسُولُ اللّه صلى الله عليه وآله وسلم وَتَرَكَنِي ، حَتّى إذَا كَانَ مِنْ الْغَدِ مَرّ بِي ، فَقُلْت لَهُ مِثْلَ ذَلِكَ وَقَالَ لِي مِثْلَ مَا قَالَ بِالْأَمْسِ . قَالَتْ حَتّى إذَا كَانَ بَعْدَ الْغَدِ مَرّ بِي وَقَدْ يَئِسْت مِنْهُ فَأَشَارَ إلَيّ رَجُلٌ مِنْ خَلْفِهِ أن قَوْمِي فَكَلّمِيهِ قَالَتْ فَقُمْت إلَيْهِ.

(1)تفسير الطبري ٣/٥٦٣.

فَقُلْت : يَا رَسُولَ اللّهِ هَلَكَ الْوَالِدُ وَغَابَ الْوَافِدُ فَامْنُنْ عَلَيّ مَنّ اللّهُ عَلَيْك؛ فَقَالَ صلى الله عليه وآله وسلم قَدْ فَعَلْتُ فَلَا تَعْجَلِي بِخُرُوجِ حَتّى تَجِدِي مِنْ قَوْمِك مَنْ يَكُونُ لَك ثِقَةً حَتّى يُبَلّغُك إلَى بِلَادِك، ثُمّ آذِنِينِي. فَسَأَلْت عَنْ الرّجُلِ الّذِي أَشَارَ إلَيّ أَن أُكَلّمَهُ فَقِيلَ عَلِيّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ رِضْوَانُ اللّهِ عَلَيْهِ وَأَقَمْت حَتّى قَدِمَ رَكْبٌ مِنْ بَلِيّ أو قُضَاعَةَ.

قَالَتْ وَإِنّمَا أُرِيدُ أَن آتِيَ أَخِي بِالشّامِ. قَالَتْ فَجِئْت رَسُولَ اللّهِ صلى الله عليه وآله وسلم فَقُلْت : يَا رَسُولَ اللّهِ قَدْ قَدِمَ رَهْطٌ مِنْ قَوْمِي، لِي فِيهِمْ ثِقَةٌ وَبَلَاغٌ. قَالَتْ فَكَسَانِي رَسُولُ اللّهِ صلى الله عليه وآله وسلم وَحَمَلَنِي، وَأَعْطَانِي نَفَقَةً فَخَرَجْت مَعَهُمْ حَتّى قَدِمْت الشّامَ)[1].

قوله تعالى ﴿وَلَا تَعْتَدُوا﴾

أمر إلهي وحكم وقاعدة كلية ثابتة في الشريعة الإسلامية الى يوم القيامة وتدل على بلوغ قواعد الإسلام اعلى مراتب الكمال الإنساني وفيها مطابقة لقوانين وانظمة المؤسسات التي تسعى لحماية حقوق الإنسان وترتقي عليها بدرجات لأنها تعالج النفس الإنسانية وتجعل عندها رادعاً وواعزاً عقائدياً وليس اخلاقياً فقط.

وتدل الآية على التزام المسلمين باحكام الشريعة واهليتهم لتلقي الأوامر التي تعمل على منع جماح الغضب والإستيلاء وكبت الشهوة وفروعها من الطمع والشره ونحوها من الظلمات النفسية والأخلاق الفاسدة والشقاء الذي يجلبه الإعتداء على المعتدي والمعتدى عليه وعلى غيرهما

وما ينشره العدوان من حالات الفزع والرعب، نعم الجهاد في سبيل الله يوجد حالة من الخوف في نفوس الكفار يضاف إلى

(١)سيرة ابن هشام ١٩٥/٤-١٩٦.

أسباب النقص الذاتي من التقصير والجحود الذي اختاروه لأنفسهم، والجهاد انقاذ قهري لهم وسعادة ابدية لمن يهتدي من ابنائهم، قال تعالى ﴿فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾[1].

وتتجلى في الآية مضامين الضرورة واحكامها وان القتال لا يكون الا دفاعاً وضد الذين يقاتلون المسلمين ويعتدون على حرماتهم ويحاولون تقويض ركائز الإسلام.

فمن أفضل وجوه التقوى المحافظة على الإسلام وتعاهده وهو امر لا يكون حينئذ الا بمحاربة هؤلاء الكفار وردعهم ومنعهم من الإفساد في الأرض ومحاولة تغيير سنن الله في الخليقة لأن مشيئته تعالى اقتضت سيادة سنن الإيمان.

ومن اسباب هذه السيادة الدفاع وهو في ابهى مراتبه من جهة الكم والموضوع مقاتلة الذين يقاتلون المسلمين، وعن ابي موسى أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم سئل عمن يقاتل في سبيل الله فقال : هو من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا ولا يقاتل رياء ولا سمعة) أي أن نيته وعمله خالصان لوجه الله من غير أن تشوبهما المصالح الدنيوية.

وإذا تضمنت الآية الأمر الصريح إلى المسلمين على نحو العموم المجموعي بالقتال فانها قيدته بأمور:

الأول : القتال في سبيل الله، وأنه ليس في أمور الدنيا، أو الحمية والعصبية.

الثاني : حصر القتال بالذين يقاتلون المسلمين لقوله تعالى(الذين يقاتلونكم) وفيه حقن للدماء.

---

(١) سورة يونس ١٠٨.

أقسام الجهاد

الأول : أن يتعرض المسلمون لهجوم من الكفار الذين يقصدون الإستيلاء على بلادهم أو قتلهم أو نهب اموالهم أو اخذهم اسارى أو يقصدون هتك الأعراض.

وهذا القسم هو المقصود في الآية الكريمة على نحو الاجمال لأنه عبارة عن دفاع عن النفس، وهو واجب على الذكر والأنثى والكبير والصغير حال العلم، والقدرة على الدفع ويطلق عليه أحياناً الدفاع.

الثاني : مبادرة المسلمين لتفريق جمع الكفار ابتداء ودفاعهم لدعوتهم الى الإسلام.

الثالث : قتال البغاة الخارجين عن الطاعة، وقتالهم ابتداء وان لم يداهموا المسلمين بقصد رجوع البغاة الى الحق.

والأصل في الجهاد وموضوعه هو الأول لذا اطلق عليه اصطلاح الجهاد بالمعنى الأخص لما له من شرائط، والآية وردت في القسم الأول ايضاً واختلف هل هو من الجهاد بالمعنى الأعم ام من الجهاد بالمعنى الأخص وان المقتول دفاعاً عن بيضة الإسلام كالمقتول في ساحة المعركة ، ونطرح تقسيماً جديداً هو أن الجهاد بالمعنى الأخص يمكن تقسيمه الى مراتب تشكيكية متفاوتة يكون القسم الثاني ذروته وسنامه، خصوصاً وان قوله تعالى ﴿الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ﴾(1)، جاء على نحو الإطلاق ، ويشمل الذين يتعدون على حرمات وثغور المسلمين.

والآية القرآنية وردت على نحوالإطلاق وتؤيده السنة، والخطاب القرآني موجه الى المسلمين للدفاع وفق القواعد والأصول.

والآية ضبط وتحديد لهذه القواعد ومنع من التعدي والإسراف، بالإضافة الى رجحان الجهاد عقلاً عند اجتماع شرائطه وضرورة الذب عن الإسلام ومنع الكفار من محو سننه ولزوم رد الفتنة.

---

(1)الآية١٩٠.

قوله تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾

كبرى كلية من الإرادة التكوينية والتشريعية فتشمل الأحكام التكليفية والوضعية من غير أن تنحصر بالشريعة الإسلامية بل هي مصاحبة للخلق ، ويمكن الحاقها بالصفات الفعلية التي أوصلها بعضهم الى اربعة آلاف صفة لذا جعل الله عز وجل للعقل اهلية للحكم على الفعل بالحسن أو القبح الذاتيين، وترى الناس على مختلف مشاربهم يذمون المعتدي ولا يرضون بفعله، بل أن المعتدي نفسه يذم معتدياً مثله بحادثة وواقعة اخرى مشابهة أو غير مشابهة.

ومضمون الآية دعوة عرضية وبالواسطة للهداية والإيمان بالإضافة الى الدعوة الظاهرة والجهاد في سبيله تعالى.

ويمكن احتسابه آية ومقدمة وتوطئة للأمر بالجهاد بالمعنى الأخص والدفاع لأن احتمال وفرص الإعتداء فيه كثيرة، فالآية تأديب للمسلمين واخبار عن اتساع رقعة الإسلام واستقرار مجتمعاته ورجوع الناس كأهل الذمة اليه في موارد الحكم والقضاء، والنهي عن الإعتداء في الآية لا ينحصر بصيغ القتال وسوح المعارك بل هو عام لأصالة الإطلاق وظاهر الآية الكريمة.

ويدل الإخبار عن عدم حب الله تعالى للمعتدين بالدلالة التضمنية على عدم استدامة الظلم والعدوان وان الله عز وجل ينتقم من الظالم ويزيل أسباب الظلم ، قال تعالى ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ﴾[1].

---

(١) سورة ابراهيم ١٣.

ردود كريمة على بعض الأجزاء الأخيرة من هذا السِفر المبارك

١- سماحة الإمام شيخ الأزهر.
٢- سماحة العلامة الشيخ أ.د. مفتي جمهورية مصر العربية.
٣- الأمين العام لمنظمة التعاون الإسلامي.
٤- سيادة رئيس مجلس القضاء الأعلى/ العراق
٥- سيادة مستشار الأمن القومي السيد قاسم الأعرجي .
٦- سيادة رئيس المحكمة الاتحادية العليا .
٧- سيادة القاضي رئيس الادعاء العام .
٨- الأمين العام لإتحاد المؤرخين العرب.
٩- سيادة رئيس محكمة استئناف بغداد / الكرخ
١٠- سعادة أ.د .رئيس جامعة دمشق .
١١- سعادة أ.د .رئيس جامعة ديالى .
١٢- سعادة أ.د. مدير جامعة الملك فيصل/ المملكة العربية السعودية
١٣- سعادة أ.د. مدير جامعة كردفان/ الجمهورية السودانية.
١٤- سعادة أ.د. مدير الجامعة الإسلامية/ المدينة المنورة.
١٥- سعادة أ.د. رئيس الجامعة العراقية.
١٦- عادة أ.د رئيس جامعة واسط / العراق .
١٧- سعادة أ.د. رئيس جامعة البصرة / العراق.
١٨- سعادة أ.د. رئيس جامعة ذي قار / العراق.
١٩- سعادة أ.د. رئيس جامعة القادسية / العراق.
٢٠- سعادة أ.د. رئيس جامعة جدارا/ المملكة الأردنية الهاشمية.
٢١- كلية الإمام الاوزاعي للدراسات الإسلامية/ بيروت.
٢٢- سعادة أ.د.مدير جامعة الأمير عبد القادر/ الجمهورية الجزائرية

بسم الله الرحمن الرحيم

الأزهر
مكتب الإمام الأكبر
شيخ الأزهر

٢٩/ ص
٢٠٠٨/٢/٢٠

السيد صاحب الفضيلة المرجع الديني الشيخ/صالح الطائي
أستاذ الفقه والأصول والتفسير والأخلاق

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

وبعد،.....

فلقد تلقيت بحمد الله رسالتكم الرقيقة وبها الجزء الحادي والخمسون في تفسير آية واحدة من سورة آل عمران من القرآن الكريم.

نتضرع إلى الله العلي القدير أن يلهمكم العلم النافع وان يجعله في ميزان حسناتكم.

وشكر الله لكم حسن عملكم

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

شيخ الأزهر
محمد طنطاوي
(الدكتور/ محمد سيد طنطاوي)

في: **١٣ من صفر ١٤٢٩هـ**
الموافق:**٢٠ من فبراير ٢٠٠٨م**
مصطفى عباس

٦/١٩

بسم الله الرحمن الرحيم

دار الإفتاء
مكتب
صادر رقم ١٠٨
بتاريخ / / ٢٠١١

جمهورية مصر العربية
دار الإفتاء
مكتب المفتي

المرجع الديني الشيخ/صالح الطائي

صاحب أحسن تفسير للقرآن وأستاذ الفقه والأصول والتفسير والأخلاق

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته...وبعد،

فإنه ليسعدني أن أتقدم لسيادتكم بخالص الشكر والتقدير والإحترام على تفضلكم بإهدائنا نسخة من من الجزء الثاني والثمانين.

وأتمنى من الله أن يديم عليكم نعمة الصحة والعافية وأن يسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنه وان يوفقنا لما يحبه ويرضاه.

شاكرين لكم، ولكم تحياتي

أ.د/علي جمعة

مفتي جمهورية مصر العربية

منظمة التعاون الإسلامي
الأمانة العامة

ORGANISATION OF ISLAMIC COOPERATION
GENERAL SECRETARIAT

ORGANISATION DE COOPERATION ISLAMIQUE
SECRETARIAT GENERAL

OIC/CAB-01/2012 001010

جدة في: 23 FEB 2012

سماحة المرجع الديني الشيخ صالح الطائي حفظه الله ورعاه
صاحب أحسن تفسير للقرآن الكريم
أستاذ الفقه والأصول والتفسير والأخلاق

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته...وبعد،

فقد تسلمنا بيد الشكر والتقدير نسخة من كتاب"معالم الإيمان في تفسير القرآن" الجزء التسعون-الآية ١٣٤ من سورة آل عمران، والذي تفضلتم بإهدائه إلى معالي البروفسور أكمل الدين إحسان أوغلي، الأمين العام لمنظمة التعاون الإسلامي، ويشرفنا أن نتقدم إليكم بجزيل شكرنا على جهودكم المتواصلة لتفسير أي الذكر الحكيم، فجزاكم الله عنا خير الجزاء وبارك فيكم وفيما تقومون به من جهد مبارك خدمة للإسلام والمسلمين.

وتفضلوا بقبول وافر الشكر والتقدير.

أحمد الكبوري
مستشار الأمين العام

جمهورية العراق

مجلس القضاء الأعلى

سماحة الشيخ صالح الطائي "المحترم"

تحية طيبة

إشارة إلى كتابكم المرقم(١٧/٧٢٨٥) المؤرخ في ٢٠١٧/١٢/١٧.

تلقينا ببالغ الإعتزاز إهدائكم نسخة من كتابكم الموسوم(معالم الإيمان في تفسير القرآن) الجزء التاسع والخمسين بعد المائة، نقدم شكرنا وتقديرنا متمنين لكم دوام الموفقية.

مع التقدير

القاضي

فائق زيدان

رئيس مجلس القضاء الأعلى

٢٠١٧/١٢/ ٢١

بسم الله الرحمن الرحيم

Republic of Iraq Prime Ministers National Security Advisory		جمهورية العراق رئاسة الوزراء مستشارية الأمن القومي

العدد: ١٥٦٥٢
التاريخ: ٧ / ١١ / ٢٠٢١

مكتب المرجع الديني

الشيخ صالح الطائي (دامت بركاته)

السلام عليك عليكم ورحمة الله وبركاته

ببالغ الإمتنان والغبطة تلقينا هديتكم الكريمة (الجزء السادس عشر بعد المائتين) من التفسير المبارك شاكرين حسن معالجتكم لهذا الموضوع المهم ونشد على عضدكم لتتقدموا للأمة كل ما ينفعهم وينير بصيرتهم ويجلي الرين عن قلوبهم ليفهموا كتاب الله كما أراد سبحانه أن يفهموه ويعملوا بأحكامه ليكون لهم في الدنيا، مرشداً وفي الآخرة شفيعاً. ونضع أنفسنا وامكاناتنا لخدمة هذا المجهود المبارك سائلين المولى القدير أن يوفقكم لكل خير.

مع خالص الدعاء

اخوكم

قاسم الاعرجي

مستشار الامن القومي

مستشارية الأمن القومي

بسم الله الرحمن الرحيم

جمهورية العراق
المحكمة الاتحادية العليا
مكتب رئيس المحكمة

كو٘مارى عيراق
د ادكاي بالآي ئيتتيحادي

العدد : ٥٥ /مكتب/ ٢٠٢١

التاريخ: ١٦/ ٩/ ٢٠٢١

المرجع الديني الشيخ صالح الطائي المحترم

تحية طيبة

تلقينا ببالغ الاعتزاز اهداءكم القيم (الجزء (٢٢٣) من تفسيركم للقرآن خاصاً بالآية (١٨٨) من سورة آل عمران. نقدم شكرنا وتقديرنا مع وافر التقدير .

القاضي
جاسم محمد عبود
رئيس المحكمة الاتحادية العليا
٢٠٢١/٩/١٦

بسم الله الرحمن الرحيم

جمهورية العراق
مجلس القضاء الاعلى
رئاسة الادعاء العام
المكتـــب

العدد /
التاريخ / ٨ / ١ /٢٠١٩

مكتب المرجع الديني
الشيخ صالح الطائي

م/شكر

تحية طيبة
كتابكم ذي العدد ١٩/٢٣ المؤرخ في ٢٠١٩/١/٢.

استلمنا هديتكم (الجزء الخامس والسبعين بعد المائة من تفسير القرآن الكريم) ونقدم لكم شكرنا آملين منكم المزيد من العطاء والتوفيق.
مع التقديـــر.

القاضـي
موفق محمود محمد صالح
رئيـــس الادعـــاء العـــام
٢٠١٩/١/ ٨

مجلس القضاء الاعلى
رئاسة الادعاء العام
الصادرة
العدد/ ٢٠١
التاريخ / /

بسم الله الرحمن الرحيم

مجلس الوحدة الاقتصادية العربية
التابع لجامعة الدول العربية
اتحاد المؤرخين العرب
الأمانة العامة

Council Of Arab Economic Unity
Subsidiary to Arab League
Union of The Arab Historians
General Secretary

العدد : ت/٢٨٠
التأريخ : ٢٥ ذو الحجة ١٤٤٢
الموافق : ٤ / ٨ /٢٠٢١

إلى/ سماحة المرجع الديني للمسلمين الشيخ صالح الطائي المحترم

صاحب أحسن تفسير للقرآن

أستاذ الفقه والأصول والتفسير والأخلاق

م/شكر وتقدير

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته :

وأسأل الله تعالى ان يوفقكم ويحفظكم ويرعاكم انه سميعٌ مجيب الدعاء.

عزيزي سماحة الشيخ المحترم :

تسلمت بمزيد من الفخر والاعتزاز الجزء (الواحد والعشرين بعد المائتين) من موسوعة (معالم الإيمان في تفسيرالقرآن) وهو الجزء الخاص بقانون (النزاع المسلح بين القرآن والإرهاب) التي تدلل على ما حباكم الله تعالى به من رعاية ربانية علمية في انجاز هذا العمل العلمي الكبير ، وهو أول عمل علمي في العالم الإسلامي بهذا الحجم وبهذا العمق وبهذا المنهج ، وأسأل الله تعالى أن يديم عليكم نعمة العافية والستر والتوفيق والسداد من أجل تقديم المزيد من العطاء الفكري والعلمي في هذا التخصص النادر ، والله يحفظكم ويرعاكم بعين حفظه ورعايته إنه سميعٌ مجيب الدعاء.

أكرر شكري وتقديري وامتناني العظيم

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

اتحاد المؤرخين العرب - الأمانة العامة - بغداد

الأستاذ الدكتور محمد جاسم المشهداني
الامين العام لاتحاد المؤرخين العرب
العميد/رئيس الهيئة العلمية لمعهد التاريخ العربي
والتراث العلمي للدراسات العليا

اتحاد المؤرخين العرب - الأمانة العامة - بغداد

بسم الله الرحمن الرحيم

جمهورية العراق

مجلس القضاء الأعلى

رئاسة محكمة استئناف بغداد الكرخ الاتحادية

مكتب رئيس الاستئناف

العدد : مكتب / متفرقة ٢١ / ١٠٤

التاريخ : ٢٣/٩/٢٠٢١

إلى/ مكتب المرجع الديني
الشيخ صالح الطائي المحترم

م/شكر للإهداء

باسمى كلمات الشكر والعرفان والتقدير نظيراً لما قدمتموه من جهود جبارة ملحوظة وملموسة تركت بصمتها جلية على نجاح هذا العمل ولم نجد الا أن نقدم اليكم امتنانا وتقديرا لكي نعبرمن خلاله عن جزء بسيط عن مدى شكرنا واعتزازنا بكم مع تمنياتنا لكم بدوام التقدم والتوفيق.

مع فائق التقدير ...

القاضي

خالد طه احمد

رئيس محكمة استئناف بغداد الكرخ الاتحادية

٢٢ /٩/ ٢٠٢١

الجمهورية العربية السورية
جامعة دمشق
رئيس جامعة دمشق
٢٠٠٧/ /م

سماحة المرجع الديني الشيخ صالح الطائي المحترم
صاحب احسن تفسير للقرآن
أستاذ الفقه والأصول والتفسير والأخلاق

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ..

أتقدم اليكم بجزيل الشكر والتقدير لهديتكم القيمة الجزء الحادي عشر بعد المائتين الخاص بقانون (آيات السلم محكمة غير منسوخة).

وأتمنى من الله أن يديم عليكم نعمة الصحة والعافية والمزيد من النجاح والتوفيق ، نبارك لكم جهودكم ونقدر لكم هذا الإهداء...

رئيس جامعة دمشق

الأستاذ الدكتور محمد يسار عابدين

٢٥ نيسان ٢٠٢١ ١٣ رمضان ١٤٤٢

بسم الله الرحمن الرحيم

Republic of Iraq
Ministry of Higher Education &
Scientific of Research
University of Diyala

جمهورية العراق
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة ديالى
مكتب رئيس الجامعة

العدد ١٧١
No.:
Date:
التاريخ ٥ / ١١ / ٢٠٢٠

سماحة المرجع الديني الشيخ صالح الطائي المحترم

صاحب أحسن تفسير للقرآن الكريم

استاذ الفقه والاصول والتفسير والاخلاق

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته . . .

تلقينا بكل تقدير وإمتنان إهدائكم نسخة من (معالم الإيمان في تفسير القرآن) الجزء السادس بعد المائتين ، ونتقدم بخالص الشكر والعرفان على هذا الاهداء ، لأدعو الله العلي القدير أن يمدكم بعونه وتوفيقه ، وان يسدد خطاكم ويكلل أعمالكم بالنجاح أنه سميع مجيب

ومن الله التوفيق

رئاسة جامعة ديالى

أ.د. عبد المنعم عباس كريم

ع / رئيس جامعة ديالى

٢٠٢٠/١١/٤

KINGDOM OF SAUDI ARABIA
Ministry of Higher Education
KING FAISAL UNIVERSITY
(037)

المملكة العربية السعودية
وزارة التعليم
جامعة الملك فيصل
(٠٣٧)

الموضوع:..............................

فضيلة الشيخ/ صالح الطائي الموقر
مكتب المرجع الديني وصاحب أحسن تفسير للقرآن
وأستاذ الفقه والأصول والتفسير والأخلاق
ص.ب -٢١١٦٨ مملكة البحرين

السلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته وبعد

تلقيت بكل الثناء والتقدير خطاب فضيلتكم رقم ١٦/١٨٦١ وتأريخ ٢٠١٦/٥/٢٠م المرفق طيه نسخة من كتاب بعنوان "معالم الإيمان في تفسير القرآن " الجزء الثاني والثلاثين بعد المائة.

يطيب لي ويسعدني أشكر فضيلتكم جزيل الشكر على إهتمامكم المتواصل بتزويد إدارة الجامعة بهذه النسخة ، وستحال إلى مكتبة الجامعة للإطلاع عليها، سائلاً المولى جلت قدرته للجميع التوفيق والسداد.

وتقبلوا خالص تحياتي وتقديري،،،

مدير الجامعة

د. عبدالعزيز بن جمال الدين الساعاتي

بسم الله الرحمن الرحيم

جامعة كردفان
UNIVERSITY OF KORDOFAN

مكتب المدير
Vice Chancellor Office

Our Ref: ....
Date: ....

النمرة: .... ج ك/م م/١٧ /ح/٣
التاريخ: ... 2016/8/16م

السادة/ مكتب المرجع الديني
الشيخ صالح الطائي
صاحب أحسن تفسير للقرآن

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

تهديكم جامعة كردفان أطيب التحايا ، وتغمرنا السعادة بالإصدارات التي تتوالى إلينا بإنتظام من مكتب المرجع الديني في (معالم الإيمان في تفسير القرآن) والذي كان آخر هذه الإصدارات (الجزء السادس والثلاثين بعد المائة) والذي تشرفنا بإستلامه بموجب خطابكم رقم ١٦/١٥٣٥ الصادر في ٢٠١٦/٧/١٣م، وذلك إثراءاً للمعرفة في مجال تفسير آيات القرآن، خدمة للباحثين والمهتمين بأمر التفسير القرآني، والتي أضحت متاحة في الأقسام المختصة بالمكتبات الأكاديمية في الجامعات ومراكز البحوث وجامعة كردفان تحظى بأعداد وافرة منها في مكتبها المركزية.

ختاماً لكم الشكر والعرفان على هذا الصنيع، نفعنا الله به، وأثابكم عليه خير الجزاء .

وتفضلوا بقبول فائق عبارات التقدير والإحترام

أ.د. أحمد عبدالله عجب الدور
مدير الجامعة

جامعة كردفان
مكتب المدير

المملكة العربية السعودية
وزارة التعليم العالي
الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة
مكتب المدير
(٠٣٦)

الرقم: ١١٢٦٠/١/٢/١٣
التاريخ ١٦/ ٢/ ١٤٣٦هـ
المرفقات: ....
الموضوع: ....

معالي الشيخ/ صالح الطائي سلمه الله

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته،،، وبعد

فأسال الله لمعاليكم العون والتوفيق، ويسرني إفادتكم بأني تلقيت بكل تقدير وإمتنان إهداءكم للجامعة نسخة من الجزء التاسع بعد المائة من(معالم الإيمان في تفسير القرآن).

وإنني إذ أتقدم لمعاليكم بخالص الشكر والعرفان على هذا الإهداء، لأدعو الله العلي القدير أن يمدكم بعونه وتوفيقه، وأن يسدد خطاكم ويكلل أعمالكم بالنجاح إنه سميع مجيب يحفظكم الله ويرعاكم.

ولكم تحياتي وتقديري

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

مدير الجامعة الإسلامية

أ. د/ عبدالرحمن بن عبدالله السند

بسم الله الرحمن الرحيم

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي الجامعة العراقية مكتب رئيس الجامعة	الجامعة العراقية	MINISTRY OF HIGHER EDUCATION & SCIENTIFIC RESEARCH THE IRAQIA UNIVERSITY THE PRESIDENT OFFICE OF UNIVERSITY

العدد : ١/ ٢٩٢
التاريخ : ١٠/ ٤ /٢٠١٦ م
/ / ١٤٣ هـ

NO.:
DATE: / / 201

المرجع الديني الشيخ صالح الطائي المحترم
صاحب أحسن تفسير للقرآن
تحية طيبة...

نشكر مبادرتكم الطيبة بإهدائكم لنا نسخة من كتابكم الموسوم الجزء الثلاثون بعد المائة من(معالم الإيمان في تفسير القرآن) سائلين الباري عز وجل أن يوفقكم في مسيرتكم العلمية والعملية خدمة لبلدنا العزيز.

ومن الله التوفيق...

أ.د.علي صالح حسين
رئيس الجامعة العراقية
١/٤/٢٠١٦م

جمهورية العراق
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
رئاسة جامعة واسط
مكتب رئيس الجامعة

Republic of Iraq
Ministry of Higher Education & Scientific Research
Presidency of Wasit University

العدد: ٢٤٧٩
التاريخ: ٢٤/٨/٢٠٢٠م
التاريخ: / / ١٤ هـ

"النزاهة اية العفة" الامام علي ع
(معاً لمساندة القوات المسلحة لدحر الارهاب)

إلى/ المرجع الديني الشيخ صالح الطائي المحترم

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته :ـ

قال تعالى ((نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ)) أنه لفرح كبير وفخر أكبر ان احظى بأجزاء من تفسيركم للقرآن الكريم ، وهو تفسير واسع اضيف الى المكتبة الإسلامية ، وسيكون له اثره الطيب في فهم نصوص القرآن الكريم ولكم به أجر وثواب الآخرة ، ولا يسعنا في هذا المقام الا ان نقدم لكم شكرنا وتقديرنا على هذا الإهداء الفريد ، متمنين لكم التوفيق والمزيد من العطاء المبارك.

مع فائق الإحترام...

الأستاذ الدكتور
مازن حسن جاسم الحسني
رئيس جامعة واسط

الاستاذ الدكتور
مازن حسن جاسم الحسني
رئيس جامعة واسط
٢٤/٨/٢٠٢٠

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
رئاسة جامعة البصرة
قسم الإعلام والعلاقات العامة

بسم الله الرحمن الرحيم

Ministry of Higher Education &
Scientific Research
Basra University
Dept. of Media & Public
Relations

العدد: ٧/٣١/٩٠٦
التاريخ: ٣٠/ ٣ /٢٠١٤م

الشيخ محمد الشيخ صالح الطائي المحترم

مدير مكتب المرجع الديني آية الله العظمى الشيخ صالح الطائي المحترم

نهديكم أطيب التحيات ...

نتقدم بأجمل عبارات الشكر والتقدير على جهودكم المبذولة في إهدائكم إيانا نسخة من كتابكم (معالم الإيمان في تفسير القرآن/ الجزء الواحد بعد المائة) ..... متمنين لكم المزيد من التقدم والنجاح.

تفضلوا بقبول وافر الاحترام ...

الأستاذ الدكتور
ثامر احمد حمدان
رئيس الجامعة

جمهورية العراق
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعـــة ذي قار
مكتب رئيس الجامعة

Republic of Iraq
Ministry of Higher Education and Scientific Research
University of Thi- Qar
Bureau of University President

وفوق كل ذي علم عليم
جامعة ذي قار
Thi- Qar University 2002

العدد: ٧ / ٥٤ / ٦٧٠٩٢
التاريخ: ٨ / ٦ / ٢٠١٦م

إلى/ مكتب المرجع الديني الشيخ صالح الطائي
صاحب أحسن تفسير للقرآن

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ...

باعتزاز بالغ واعجاب شديد بالجهود الكبيرة لسماحة آية الله العظمى الشيخ صالح الطائي (دام ظله) في تفسير كتاب الله العظيم من خلال تلقينا اهداءكم المبارك للجزء (١٣٢، ١٣٣، ١٣٤) من معالم الإيمان في استظهار كنوز من كتاب الله المجيد، سائلين المولى عز وجل ان يوفق الشيخ الجليل لما فيه خير الدنيا والآخرة وخدمة الإسلام والمسلمين .

والله ولي التوفيق

أ.د. رياض شنته جبر
رئيس جامعة ذي قار
٨/٦/٢٠١٦

Republic of Iraq
Ministry Of Higher Education
and Scientific Research
University of Al-Qadisiya
Chief of University Office

بسم الله الرحمن الرحيم

جمهورية العراق
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة القادسية
مكتب رئيس الجامعة

Ret: العدد: ٥ / ١٥٤٦٦

Date: التاريخ: ٩/ ٢/ ٢٠١٥

إلى / مكتب المرجع الديني آية الله العظمى الشيخ صالح الطائي المحترم

صاحب أحسن تفسير للقرآن

م/شكر على اهداء

تحية طيبة ...

تسلمنا ببالغ الشكر والتقدير الجزء السابع بعد المائة من التفسير وهو القسم الأول من تفسير(أن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله وتلك الأيام نداولها بين الناس) شاكرين لكم اهداءكم متمنين لكم مزيداً من الإرتقاء والأزدهار والتطور.

...مع التقدير

أ.د. أحسان كاظم شريف القرشي

رئيس الجامعة

٢٠١٥/٢/

بسم الله الرحمن الرحيم

جامعة جدارا — **Jadara University**

مكتب الرئيس — *Office of the President*

الرقم [illegible] — Ref.
التاريخ [illegible] — Date
الموافق [illegible]

سيادة الأخ الشيخ صالح الطائي المحترم

صاحب أحسن تفسير للقرآن الكريم

وأستاذ الفقه والأصول والأخلاق

بكل فخر وإعتزاز تلقيت رسالتكم الموقرة التي تحمل العدد (٥٣٢) تأريخ ٢٠١٢/٥/٢٦م، ومرفقها الجزء التسعون من التفسير في الآية(١٣٣) من سورة آل عمران.

وانني إذ أشكركم جزيل الشكر وعظيم الإمتنان على اهدائكم هذا، سائلاً المولى عز وجل أن يديم عليكم نعمة الصحة والعافية، وأن يجعلكم سنداً وذخراً للأمة الأسلامية متمنياً لكم كل التقدم والإزدهار.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

رئيس الجامعة

أ. د محمد الطعامنه

بسم الله الرحمن الرحيم

كلية الإمام الأوزاعي للدراسات الإسلامية

بيروت في ٩/ربيع الأول/١٤٤٠هـ
الموافق ٢٠١٨/١١/٢٤م

سماحة المرجع الديني الشيخ صالح الطائي المحترم
صاحب أحسن تفسير للقرآن
مكتب المرجع الديني الشيخ صالح الطائي

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

تتقدم كلية الإمام الأوزاعي للدراسات الإسلامية بأطيب تمنياتها، وتشكركم على الجزء(١٧١) الذي وصلنا من جانبكم من كتاب: "معالم الإيمان في تفسير القرآن" والذي يتضمن قراءة في آيتين من القرآن بما يدل على أن النبي(ص) كان لا يسعى إلى الغزو ولم يقصده ولم يدع إليه.

آملين الإستمرار في إرسال الأجزاء التي ستصدر منها مستقبلا، شاكرين لكم حسن تعاونكم الدائم معنا وداعين الله تعالى أن يوفقنا وإياكم لما فيه خير الإسلام والمسلمين.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

الأستاذ بدر ...
(أمين السر)

تحريرا في: ٢٥ من ربيع أول ١٤٢٥هـ
١٥ من مـــايو ٢٠٠٤ م

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة الأمير عبد القادر
للعلوم الإسلامية
قسنطينة
رقم ..498../ ر.ج/ 2014

رئاسة الجامعة
قسنطينة في: 2015/03/25

إلى السيد المحترم/الشيخ صالح الطائي
صاحب أحسن تفسير للقرآن
مكتب المرجع الديني

تحية طيبة وبعد :

تلقينا نحن أ.د/ عبدالله بو خلخال مدير جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية قسنطينة، هديتكم القيمة المتمثلة في كتاب(معالم الإيمان في تفسير القرآن) الجزء الثالث عشر بعد المائة.

وإذ نعبر لكم عن شكرنا على هذه الإلتفاتة الكريمة، نهديكم نحن بدورنا نسخة من مجلة الجامعة العدد ٣٣ ونسخة من نشرية أخبار الجامعة.

تقبلوا فائق الإحترام والتقدير.

مدير الجامعة

مدير الجامعة
أ.د. عبد الله بوخلخال

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الفهرس

الصفحة	الموضوع	الصفحة	الموضوع
٣	المقدمة	٢٢	مفهوم الآية
٧	قوله تعالى﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ فَالآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ وَلاَ تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلاَ تَقْرَبُوهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾	٢٦	إفاضات الآية
٧	القراءة والاعراب	٢٨	الآية لطف
٩	اللغة	٣٣	الصلة بين أول وآخر الآية
١٠	في سياق الآيات	٤٣	من غايات الآية
١٦	إعجاز الآية	٥١	التفسير
١٨	الآية سلاح	٥١	قوله تعالى﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ﴾
٢٠	أسباب النزول	٥٤	قوله تعالى﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ﴾

الفهرس

الصفحة	الموضوع	الصفحة	الموضوع
٥٦	قوله تعالى﴿عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ﴾	٨٣	السحور واهميته
٦٠	قوله تعالى﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ﴾	٨٥	قوله تعالى ﴿ ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ﴾
٦٢	قوله تعالى ﴿ فَالآنَ بَاشِرُوهُنَّ﴾	٨٩	صوم الوصال
٦٣	البقاء على الجنابة	٩١	الأكل سهواً
٦٥	دوران الأمر بين الأقل والأكثر	٩٢	قوله تعالى ﴿وَلاَ تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ﴾
٦٥	قوله تعالى ﴿وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾	٩٣	بحث أصولي
٦٨	ليلة القدر	٩٤	قوله تعالى ﴿وَلاَ تُبَاشِرُوهُنَّ﴾
٧٦	قوله تعالى ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمْ الْخَيْطُ الأَبْيَضُ مِنْ الْخَيْطِ الأَسْوَدِ مِنْ الْفَجْرِ﴾	٩٥	قوله تعالى ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلاَ تَقْرَبُوهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾
٧٩	بحث بلاغي	٩٩	القضاء عن الميت
٨٠	افطار الصائم	١٠١	وداع شهر رمضان
٨٢	للصائم فرحتان	١٠٣	قوله تعالى ﴿وَلاَ تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾

الفهرس

الصفحة	الموضوع	الصفحة	الموضوع
١٠٣	الإعراب واللغة	١٤٥	قوله تعالى ﴿وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾
١٠٦	في سياق الآيات	١٤٨	قوله تعالى ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنْ الأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ اتَّقَى وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾
١١٥	إعجاز الآية	١٤٨	القراءة والإعراب
١١٨	الآية سلاح	١٥٠	اللغة
١٢٠	أسباب النزول	١٥١	في سياق الآيات
١٢١	مفهوم الآية	١٥٩	إعجاز الآية
١٢٣	إفاضات الآية	١٦٥	الآية سلاح
١٢٥	الآية لطف	١٦٦	أسباب النزول
١٢٦	الصلة بين أول وآخر الآية	١٧٠	مفهوم الآية
١٣٣	من غايات الآية	١٧٤	إفاضات الآية
١٣٤	التفسير	١٧٦	الآية لطف
١٣٥	قوله تعالى ﴿ وَلاَ تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ﴾	١٧٧	الصلة بين أول وآخر الآية
١٣٩	بحث روائي	١٨٧	من غايات الآية
١٤٠	قوله تعالى﴿وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ	١٩٢	التفسير

الفهرس

الصفحة	الموضوع	الصفحة	الموضوع
١٩٢	قوله تعالى ﴿يَسْأَلُونَكَ﴾	٢٤٣	الآية سلاح
٢٠٠	بحث بلاغي	٢٤٤	أسباب النزول
٢٠١	بحث تأريخي	٢٤٦	مفهوم الآية
٢٠٣	قوله تعالى ﴿ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ﴾	٢٤٧	إفاضات الآية
٢١١	قوله تعالى ﴿وَالْحَجِّ﴾	٢٤٨	الآية لطف
٢١٢	قوله تعالى ﴿وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا﴾	٢٤٨	الصلة بين أول وآخر الآية
٢١٤	بحث قرآني	٢٥٥	من غايات الآية
٢٢٠	بحث أصولي	٢٥٧	التفسير
٢١٩	قوله تعالى﴿وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ اتَّقَى	٢٥٧	قوله تعالى ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ﴾
٢٢٣	قوله تعالى ﴿وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا﴾	٢٥٩	لطف النبوة مع ابنة حاتم الطائي
٢٢٤	قوله تعالى ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾	٢٦٠	قوله تعالى ﴿وَلاَ تَعْتَدُوا﴾
٢٢٤	قوله تعالى ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾	٢٦٢	أقسام الجهاد
٢٢٥	قوله تعالى﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾	٢٦٣	قوله تعالى﴿إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾
٢٢٦	الإعراب واللغة	٢٦٤	ردود كريمة
٢٢٤	في سياق الآيات	٢٨٧	الفهرس
٢٣٩	إعجاز الآية		

معالم الإيمان/ج٣٣ ـــــــ